

الرغبة والألم والرماد



حكايات وقصص قصيرة ليست
للتسلية وقضاء الوقت ..

عبدالرزاق يحيى

الفهرس ..

١. مقدمة ..
2. ردهة الطوارئ ..
3. الكذبة الأولى ..
4. حياة استثنائية ..
5. اليد التي أهدت ورداً ..
6. ودّع كل أحلامك ..
7. الجنازة ..
8. حكمة على سكة ..
9. لغز الباص ..
10. الحصان ..
11. العقد المزيف ..
12. المسبحة ..
13. المعادلة ..
14. أخطاء طويلة الأمد ..
15. عامل ولباخ وبائع خضار وأرنب ..
16. الضحية ..
17. من يستحقها ..
18. خمر شاي ماء ..
19. قِطُّ في طريقه للأسفل ..
20. المخلوق ..
21. لا أمان ..
22. الروح والقضبان ..
23. سيف ..
24. كلمة لا بد منها ..

كان يُمكنك أن تُعامل أي فرد من العائلة بذاتِ الطريقة التي
تُعامل بها ابنتك .. لتحصل على ذاتِ العلاقة الجميلة التي تفخر بها ،
وتُخبر عنها الجميع ..

مقدمة ..

وراء كل لحظة وموقف في حياتنا قصة وحكاية أو رواية تستحق ان تُروى ، وتحمل بين سطورها رسالة ، بعضها قد يدفعك للتأمل ، وبعضها الآخر قد يوقظ فيك شعوراً كنت تظن انك فقدته ..

يتكون المخطوط مما يقارب ثلاثين نصاً بأطوال متفاوتة ، حمل كل نص منها عنواناً خاصاً منسجماً مع ما يحتوي متن النص من أفكار ، وحينما يباشر القارئ بقراءة أي من تلك النصوص سيجد نفسه في السُّطور الأولى منه أمام ما يشبه حكاية ، أو سرد لحدث معين ، وهذه الحكاية أو الحدث هو من تجاربي الشخصية وأحداث من حياتي ، أو نادرة من النوادر ، أو قصة من التراث ، احياناً مضحكة وأحياناً عميقة ، لكنها كلها تنبض بالحياة والدراما ..

ومع استمرار القارئ بقراءة النص ، سيجد ان سرد الحدث قد انتهى إلى عبرة ، أو دلالة ، أو فكرة ما ، سوف يخلص إليها القارئ من خلال القراءة ، وسوف نبدأ بمناقشتها معاً ، وعندها سوف تتغير لغة السرد ، وتصبح أقرب ما تكون للغة المقال . . . وسوف يتضمن النقاش أسئلة وردود ودفوع وجدل وكذلك اقتباسات وأحداث تاريخية حقيقية ، وكل ذلك طبعاً في سبيل الايضاح وإثبات الفكرة ، وأثناء ذلك ستجد العديد من الفوائد التي تم اختيارها بعناية لينتفع منها القارئ في سبيل توجيهه نحو ما هو أصوب وانجع له في مسيرة حياته ..

ولتكون له إشارة تحذره من المفاهيم الخاطئة ، أو التصرفات التي يقوم بها في يومياته ، أو الاحكام المسبقة التي ورثها أو تمّ تلقينها له ، وكل ما يمكن ان يضعف من طاقاته أو ثقته بنفسه وبقدراته ، وكل ما يمكن ان يؤثر على مسيرته الحياتية سلباً أو .. أو .. أو ... انها ليست قصصاً للتسلية ، بل هي نوافذ صغيرة تُعيد صياغة نظرتنا للأشياء ، وتمنحنا قوة لنستمر في طريقنا ، وبالتالي نحن أمام كتاب يحمل الكثير من التوجيهات للقراء ... غير انني اخترت هذا الاسلوب غير المباشر ، وبالشكل الذي ذكرته انفاً لإيصال الفكرة بطريقة أتمنى ان تكون عند رضا القارئ ..

فلنستمتع معاً في هذه الحكايات ، ولنسمح لكل كلمة وكل معنى في هذا الكتاب ان يتدخل ويحشر انفه في قراراتنا وخطواتنا القادم ...

ردهة الطوارئ ...

يعتمد غالبية الناس على المنبه من أجل الاستيقاظ من النوم ، لكنهم لا يعلمون المخاطر الصحية التي تكمن وراء هذا الاستخدام الذي يتكرر بشكل يومي ، وقد نشرت إحدى الصحف في مقال لها ان المنبه ثاني اختراع مكروه في المجتمع بعد الهاتف المحمول ، وأوضحت ان المنبه يزرع في نفسية الإنسان الخوف والذعر وعدم الثقة ، وأن الاستيقاظ المفاجئ كل صباح قد يكون له مخاطر على الصحة القلبية ، وقالت: "لا يجب ان تكون طبيباً لتعرف ان المنبه يشكل خطراً حقيقياً على قلبك" ..

وفي دراسة مشابهة أجبر المشاركون في التجربة على الاستيقاظ فجأة خلال عدد من الأيام ، ووجد الخبراء ان هذه الفئة باتت تعاني ارتفاعاً في ضغط الدم وعدد ضربات القلب ، لأن التغيرات التي تحدث لجسم الإنسان خلال نومه تجعله ضعيفاً في حال تلقى إشارة مفاجئة للاستيقاظ ، سواء كانت منبهاً أو صيحة أو بكاء أو ضحكة عالية.. خلال النوم يكون الإنسان شبه ميت مما يعني ان معدل ضغط الدم وضربات القلب يكون ثابتاً لكن هذه الأمور كلها قد تنقلب في حال استيقظ مذعوراً مما قد يؤدي في بعض الاحيان إلى سكتة قلبية ..

ومن بين النصائح التي يقدمها الخبراء لتجنب خطر المنبه ،
ترويض الجسم على الاستيقاظ بشكل طبيعي وفي الوقت المناسب ، مثل
تدريب جسمك لكي يستيقظ يومياً في الوقت الذي تريد ودون الحاجة
للاعتماد على المنبه ..

ومن تلك الوسائل أيضاً "بزوغ الشمس" مثلما كان أجدادنا
يستيقظون على ضوء النهار بعد إشراق الشمس . . . لذلك يُنصح
بالنوم في غرفة تسمح نافذتها بدخول القليل من ضوء الصباح المنعش
والذي سيكون دليلاً للاستيقاظ ، ويقترح الخبراء كذلك ان تذكر
نفسك قبل موعد نومك بالساعة التي تريد الاستيقاظ فيها ، ليصبح
جسمك مستعداً لذلك ، وإذا كان من الضروري اللجوء إلى المنبه فمن
الأفضل استخدام نغمة منبه لطيفة وهادئة ..

إلى هنا تنتهي هذه المعلومة الناعمة الهادئة المؤدبة ، والتي
وضعتها للفائدة . . . أما موضوعنا التالي فهو عن اختلاف وتناقض
الدراسات مع دراسات أخرى ، وكذلك الاختلاف والتنازع بين وهم
الأفكار وكتب الأحلام وروايات المراهقين وتضادها مع قساوة الواقع..
ولنأخذ عدة أمثلة بسيطة في هذا الصدد ..

المثال الأول .. وبما أننا كنا بصدد ذكر المنبه ومخاطر استخدامه ، سنذكر دراستين متناقضتين لخاصية الغفوة أو زر الغفوة التي نستخدمها يومياً بعد انطلاق جرس المنبه لكسب دقائق معدودة ، في محاولة أخيرة يائسة للاكتفاء والشبع من النوم . . . حذرت دراسة علمية من مخاطر العودة للنوم عدة مرات بعد رن جرس المنبه بصورة متكررة ، لأن العودة لإكمال النوم بعد انطلاق جرس المنبه ترفع معدل ضربات القلب ، وذلك بسبب رنّ جرس المنبه مجدداً مما يفاجئ القلب مرة بعد أخرى ، ويسبب عليه ضغطاً أكثر وأكثر . . . وقد أشار باحثون إلى ان الغفوة الخفيفة بعد الاستيقاظ على صوت المنبه وضبطه ليرن بعد بضع دقائق قد تكون مضرة بصحتنا أكثر مما نتوقع ، والاستمرار على هذا الأمر لأيام وأشهر وسنوات يؤدي إلى العديد من الآثار الصحية السلبية ، بما في ذلك الإصابة بالسكري وأمراض القلب ..

بينما على الجانب الآخر من هذه النظرية ، كشفت دراسة حديثة عن ان أخذ غفوة لمدة خمس أو عشر دقائق أخرى بعد قرع جرس المنبه ربما يكون مفيداً للصحة ، وان هذه الغفوة لبضع دقائق إضافية يمكن ان تساعد الاشخاص على التخلص من النعاس الصباحي.. حيث تهيأ الدماغ والقلب والعضلات كافة لعملية الاستيقاظ من السبات ، وتسهل الانتقال من النوم العميق إلى مرحلة أخف ، وتحسين الادراك والقدرة على التذكر ، وان هذه الغفوة اليسيرة قد تساعد بشكل فعال على الاسترخاء وتقليل الاجهاد وزيادة اليقظة ..

المثال الثاني .. منذ أولى مراحل الدراسة الابتدائية ونحن نقرأ في حصة العلوم ان البرتقال والحمضيات تساعد على راحة المعدة وتسهل عملية الهضم ، ومن ثم نكبر ونقرأ دراسات ونظريات خبراء التغذية والاطباء التي تدعم هذا القول وتعززه . . . يتميز البرتقال بمحتواه الغني بالألياف الغذائية غير القابلة للذوبان ، التي تسهل عملية الهضم وتقلل من الضغط الواقع على المعدة ، وهذه الألياف تمهد حركة المواد عبر الجهاز الهضمي ، وتزيد كتلة ووزن الفضلات مما يسهل انسيابها خارج الجسم ويقلل مشكلات الإمساك ، وتعمل الألياف الغذائية على امتصاص الماء من الفضلات وتزيد من كتلتها مما يقلل من الاسهال . . . كما ان البرتقال غني بمضادات الاكسدة ومضادات الالتهابات التي تقوم بمحاربة مسببات جرثومة المعدة ، مما يقلل من خطر الإصابة ببكتيريا الملوية البوابية التي تغزو غشاء المعدة المخاطي مسببة تقرحات المعدة ..

وكذلك فوائد الليمون للمعدة وبالرغم من حموضته العالية فإنه يساعد في علاج حموضة المعدة ، وذلك لقدرته الفائقة على تعديل مستوى الاحماض في المعدة لحين الوصول للتوازن المطلوب ، كما يحتوي الليمون على العديد من الالياف الغذائية التي تساعد في تحسين عملية الهضم وتنشيط الجهاز الهضمي ، ويعالج الغثيان والدوار الناجمين عن تلك المعدة ، ويعمل الليمون أيضاً على التخلص من الشعور بالحرقنة والانتفاخ ..

بينما نتفاجأ مع تقدم العمر وكثرة الاطلاع ، على بحوث ودراسات تفصح عن كلام نقيض ما سمعناه في السابق ، حيث يقول الخبراء والعلماء في دراسات حديثة عن الحمضيات: يعتبر الليمون من الفواكه الحمضية التي تحتوي على نسبة عالية من حمض الستريك، والذي يسبب بعض الاضرار للجهاز الهضمي مثل الشعور بحرقة الصدر وحموضة المعدة وتفاقم أعراض داء الارتجاع المعدي المريئي ، وهي حالة تتسبب في ارتداد سوائل المعدة إلى المريء لذلك ينصح بعدم الافراط في شرب الماء الدافئ مع الليمون لأنه يؤدي إلى تضرر الغشاء المبطن لجدار المعدة والتهاب المعدة على المدى البعيد..

ويمكن ان يؤدي حمض الستريك الموجود في الليمون إلى ظهور أعراض مثل الغثيان ، وزيادة خطر الإصابة بقرحة المعدة ، والتي تؤدي مع مرور الزمن إلى حدوث ثقب في بطانة المعدة . . . أما البرتقال فكونه أيضاً فاكهة حمضية فإنه يزيد من حموضة المعدة ، وذلك يؤثر سلباً على ادائها الوظيفي ، ومن الممكن ان تزيد الاعراض سوءاً إلى نفخة البطن وسوء الهضم ، وبلا شك حرقة المعدة التي يعاني منها كل من يقرأ الكتب والجرائد ..

ان الحياة معقدة بما يكفي ، وأعتقد ان هذا النوع من البشر الذين يصنعون التناقضات يتمتعون بضمان مئة ..

المثال الثالث .. حساء الفاصولياء مع الرز ، انها الوجبة التي لا يتأفف منها الصغير ولا يضجر منها الكبير . . . خلق الله حبة الفاصولياء على شكل يشبه الكليتين لكي نعلم بلا بحث ولا دراسة انها مفيدة للكل . . . تعتبر الفاصولياء مدرة للبول وبهذا فان لها دور فعال في علاج المسالك البولية ، والتخلص من العدوى البكتيرية والقضاء على الفطريات التي تصيب المثانة ، كما انها تقلل كمية السكر في البول وتنظف الكلى من الرمل . . . وبالمقابل تقرأ ان الفاصولياء تحتوي على نسبة كبيرة من البروتين ، والبروتين بكل انواعه مؤذي للكل ، وتحتوي أيضاً على مركبات تسمى الاوكسالات ، وهذه الاوكسالات تساهم في تكوين حصى الكلى في بعض الحالات ..

المثال الرابع .. تقوم النظارات الشمسية بتقليل الوهج وتقليل الشعور بالانزعاج ، وحماية العين من الغبار والأتربة ، وبالتأكيد فان ارتدائها ينعم بالراحة والتمتع بالمزيد من الجمال . . . ومن فوائد النظارات الشمسية أن لها دور هام في الوقاية من الساد وتتكس الشبكية والعمى الجزئي ، وهذا بسبب قدرة النظارات على حماية العين من الأشعة فوق البنفسجة الضارة ، كما يجنب ارتداء النظارة الشمسية شعور الفرد بالصداع النصفي الحاد الناتج عن شد اعصاب العين أثناء النظر في الجو المتهوج ، وكذلك وقاية قرنية العين من الالتهابات والاحمرار الناتج عن أشعة الشمس ..

وفي بعض الحالات قد يتعرض العديد من الاشخاص لسرطان الجفون والجلد الرقيق المحيط بالعين نتيجة التعرض الدائم لأشعة الشمس بدون حماية ، لذلك تعتبر النظارة الشمسية جزء أساسي للوقاية من سرطان الجلد ..

وهنا يأتي التناقض المقيت ليحشر انفه وسط نتائجنا ، حيث أكدت طببية مختصة بالأمراض الجلدية ان لها رأي آخر ، عندما صرحت موضحة ما يلي: عند التعرض لأشعة الشمس القوية تقوم الخلايا الميلانينية وهي إحدى خلايا الجلد المُنتجة للصبغ بإنتاج كميات أكبر من الميلانين ، وهو صبغة بنية اللون تجعل الجلد داكناً أكثر وتؤدي إلى اسمراره ، والوظيفة الرئيسية للميلانين هي فلترة أو تصفية الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من ضوء الشمس ، للمحافظة على بشرة الإنسان من الضرر والمساوئ التي تؤثر على شكل وصحة الجلد (مع أننا نؤمن بقوة ان اللون الغامق وكلما ازداد سواداً يمتص أشعة الشمس ويضاعف حدتها ويزيد من ضررها على جسم الإنسان)

المهم . . . هذا غيض من فيض ، نستأنف مقال الدكتورة: وكذلك فانه عندما يتعرض الإنسان لحرارة شديدة تقوم الغدد الموجودة في الجلد بإفراز العرق ، حيث يتبخر العرق ويعمل على خفض درجة حرارة الجسم وتبريده ، وان ارتداء النظارة الشمسية يقلل من أشعة الشمس الداخلة للعين ، مما يجعل المستشعرات في العين ترسل معلومات خاطئة للدماغ ، مفادها ان درجة الحرارة الخارجية طبيعية

وان أشعة الشمس الحالية غير مؤذية للجلد ، لذلك يقوم الدماغ بإرسال إشارة تنفي حاجة الجلد لإنتاج الميلانين ، وكذلك بالتوقف عن إنتاج وفراز العرق ، وحصيلة هذه المعلومات الخاطئة المُرسَلة من المستشعرات في العين إلى الدماغ ، بسبب النظارة الشمسية ، يقوم الدماغ بتعطيل آلية التسقّع الشمسي ، وهي آلية دفاع يقوم بها الجلد للحفاظ على نفسه من الاشعاع الزائد ، وهذا بالطبع له مساوئ وتبعات خطيرة على بشرة الإنسان وعاقبته الاصابة بالكثير من الأمراض الجلدية ، ومنها ..

الحروق البسيطة التي تصيب الطبقة الخارجية فقط من الجلد ، وتستمر لأيام قليلة أو حتى لأسابيع وفي نهاية المطاف تُشفى ، لكن ليس قبل ان تتسبب في تقشر الجلد . . . أما الحروق الشديدة فهي تصل إلى طبقات الجلد الداخلية وإلى الاطراف العصبية ، وهي مؤلمة جداً وتستمر وقتاً أطول ، كما ان أشعة الشمس تضر بالألياف الكولاجين والاليف المسؤولة عن مرونة الجلد ، وبهذا تكون سبباً لظهور النمش والكلف والبقع الداكنة وتجاعيد الجلد وترهله ،

وقد يصل الأمر إلى الاصابة بسرطان الجلد وهو من أكثر أضرار أشعة الشمس خطورة ، حيث ان الأشعة فوق البنفسجية تُحفز حدوث انقسامات غير طبيعية في خلايا الجلد ، لهذا تجد أننا عندما نرتدي النظارة الشمسية لا نشعر بلهب الشمس وحرارتها على اليد والوجه والرقبة ..

هل سألت نفسك يوماً عن السبب من وراء عدم احساسنا وعدم شعورنا بهذه الحرارة . . . في المرة القادمة حين ترتدي نظارتك الشمسية وتخرج من البيت لا تفوت ان تجرب هذا ..

وهناك مئات الامثلة من هذا النوع والتضارب في الاستنتاجات.. منها ان علماء الحياة البرية كانوا يفسرون ظاهرة تبول الحيوانات ، ونثر رذاذها على جذوع الأشجار في الغابات أو على اطارات السيارات وفوهات الحريق في الشوارع ، على انه فعل تقوم به الحيوانات لتحديد مكان سيطرتها ونفوذها في المنطقة ، وطردها عنها بعيداً عن مناطق عيشها وتجوّلها ، ثم تبدل قولهم مع مرور الزمن إلى ان هذه الحيوانات تنثر رائحتها للبحث عن شريك واعلام الآخرين بأنه في طور الاستعداد والتهيأ للزواج ، وجذب ابناء جنسها للزواج وتكوين روابط اجتماعية فيما بينها ..

وكذلك النظرية القديمة ، بأن كل مطر ينزل فلا بد من وجود السحاب ، ثم اكتشفوا ان المطر ينزل في كثير من الأماكن مع خلو السماء من اي سحب أو غيوم . . . وغيرها الكثير مما لا يعد ولا يحصى من نظريات ودراسات يتعلق الناس بها ويتخذونها قوانين يسيرون بها أمورهم وحياتهم ، ثم يتبين ما يخالفها ويناقضها تماماً ..

ان هذه المعلومات المتضاربة لن تمر على حياة المراهقين بخير ، انها تغرقهم في متاهات سوداء ، واننا كبشر لا نحب هؤلاء العلماء الذين يتلاعبون بفطرة الله التي خلقها في هذا الشباب الطموح ، ارضاءاً لتزمتهم وتمسكهم بأرائهم وكبريائهم العلمي .. إلا ان هؤلاء العلماء والاطباء لديهم من الصحة والصبر ما يسمح لهم بقول المتناقضات والثرثرة ، اما نحن فلا نملك راحة البال وصفاء الفكر لنستوعب كل هذا التشويش ..

صديقي سأخبرك أمراً ، اطمئن ولا تخف ، تناول الفاصولياء واشرب بعدها عصير البرتقال الطازج المثلج ، ونم جيداً ، سيوقظك صوت المنبه ، أو بائع الحلوى ، ضع نظارتك حتى لو كانت تمطر في شهر آب ، وانتبه حيث تجلس في الأماكن العامة لنلا يكون هناك آثار لبول قط أو كلب ضال ، معدتك بخير ، ولن يتوقف قلبك فجأة ، ولن تموت من حصى الكليتين ، وبشرتك ستبقى بيضاء تتوهج كالورود الندية تحت الامطار ..

- عزيزي ، أعتقد انه سيحدث العكس ، لا تأخذ كلامي على محمل الجد ..

- في الحقيقة ، أظن ان الأمور تبشر بخير ، والأشياء حولك آمنة ، ولن يصيبك اي أذى ..

- أو ، ربما ستصاب ببعض الأمراض ، نعم ، أعتقد هذا ..

- كلا ، لا تخف ، افعل ما يحلو لك ..

- حسناً ، لست متأكداً ..

- اممم ، ما رأيك انت ، فأنا لست مستعداً لأكون سبب
معاناتك

- حسناً توكل على الله ، انت حر في قرارك ..

ومن ثم تجلس مرهق البال خائر التركيز ، تأخذ هاتفك
وتتصفح الإنترنت ، ويثير انتباهك منشور أعجبك وتقرأ فيه:

- لا يمكنك ان تُشفى في نفس البيئة التي جعلتك مريضاً ،
غادر...

ثم تنزل لأسفل الشاشة فتقرأ منشور آخر يقول بعكسه:

- هروبك مما يؤلمك سيؤلمك اكثر ، لا تهرب ، تألم حتى
تشفى ...

ويتكرر المشهد في يوم آخر وتقرأ:

- لا تسمح لمجرد يوم سيئ ان يشعرك ان حياتك سيئة ..

بينما تقرأ في نفس اللحظة من يعارض هذا الرأي ويقول:

- لا تسمحوا لمجرد يوم جميل ان يشعركم بأن لديكم حياة سعيدة ، حياتكم جسيم وستبقى كذلك ..

ثم تنام ليلاً بعد هذه النظريات المتخاصمة ، فتكون أحلامك على النحو التالي ،

الفاصولياء جاهزة للحرب . . . فوهة حريق حامضة . . .
حيوان يتبول . . . رن رن . . . مؤلف مسرحي . . . السلوقي مضحك
وهو يرتدي نظارة سوداء ، يبدو وكأنه محامي قديم من الريف البعيد..
ولدي الصغير حصل على شهادة الدكتوراه والآن يعمل في الاطفاء ..
حيوان الكسلان مضطرب المعدة لأنه تناول الكرز . . . فاصولياء
ترن . . . دراسة تثبت ان البرتقال فيلسوف ولونه حزين . . .
نغمة الحساء . . . حيوان يتصل بك . . . رن رن . . . حيوان الكسلان
يطلبك على الهاتف . . . !

وعندما تصحو صباحاً تجد نفسك في دوامة حقيرة مبهمة من الأحلام المبعثرة ، وكأن العلماء والباحثين والمتطوعين المشاركين في كل هذه التجارب ، ومعهم الشياطين ، يهيجون داخل رأسك ، ويسبب بعضهم بعضاً ، ويضرب أحدهم الآخر بالعصي ، ويهوي كل واحد منهم على رأس صاحبه بالمجرفة ...

ولهذا ، لا أجد ما أخبرك به على يقين تام ..

حقاً بدأت أشعر بالقلق من تدهور حالتي الذهنية ، وفي حيرة وتيه اكتب لك ، واعرض عليك اقتراحاتي ، مسترشداً بتجاربي وبعض الحكم ، ويعينني ويطمئنني ان العالم مليء بأناس ييغضون مثل هذا الخلط والهذر ...

تعال معي لنكتشف ، نكتشف ماذا ، لا ادري ، ولن ادري.. أعتقد انه لا أحد يبحث عن الحقيقة سوانا ، انا وانت ، نبحث عنها بطريقة غريبة وعويصة ، والمشكلة هي ، حتى لو وصلنا للحقيقة فمن يؤكد لنا انها الحقيقية حقاً ، هل نُجهد أنفسنا ثم نقول ان الحقيقة لم تكتشف بعد . . . لنكمل يا صديقي ..

نتعرض يومياً لمثل هذا التشويش عند قراءة الكتب والروايات فتجد ان لكل مؤلف رأيه ، وقد حشد الادلة المقنعة وساقها بما يناسب محتوى موضوعه ، وكل عالم وطبيب يطبق المثل القائل: كل شخص يحود النار لخبزته ..

بل ان الكتاب نفسه يحتوي أمراً غريباً اضافة إلى مخالفة المؤلفين لبعضهم في الآراء ، وهو ان للكتاب سحر عجيب للتحكم في تصرفات قارئه ، وتعتبر كلماته كأنها شيفرة ورموز تعالج أفكار القارئ وتغير نمط حياته . . . لذلك ، وفي الغالب ، تجد الشخص الذي يقرأ هادئ إلى درجة كبيرة ، وما هذا الا نتيجة اختلاط روحه بالكلمات والغوص العميق بين الاسطر ، فتراه يحمل في جعبته اطنان من الأحلام والامنيات والتي تكون خيالية أو بعيدة المنال ، وما هذا الا حصيلة قراءة الروايات ، وتمني عيش مغامراتها ..

كثير من المراهقين يحلم ان تسقط به طائرة أو تغرق سفينته قريباً من جزيرة نائية ، ليعيش وحيداً منعزلاً مع الحيوانات الصديقة والطيور التي تأكل من باطن كفيه ، والشواء ، والفاكهة ، وصيد السمك ، وما كل هذا الا من حشو القصص والروايات ، وعندما تقرأ روايات قصيرة كتبها المراهقين تجدها كلها تدور حول العيش في جزيرة وسط البحر ، وهناك دائماً فتاة كطرف ثاني في الحكمة ..

بينما في الحقيقة ، لن يستطيع الشخص العيش في هذه الجزر الا لأيام معدودة ثم يموت ، أولاً من انعدام الماء ، والحيوانات المفترسة والحشرات على تنوعها ، وأصغرها بعوض الغابات وزواحفه ، ثم الخوف ، ثم الطعام ، ولا تظن انه سيأكل الحشرات كما في قنوات السفاري الوثائقية ،

الأمر كله تمثيل ومختلف عن الواقع تماماً ، لان ابتلاع حشرة وأحدة يجعلك تتقيأ معدتك وعشرة أمتار من امعائك ، وتتقيأ معها الكبد والطحال ، كلها دفعة وأحدة ..

وتلاحظ ان القارئ معجب كل الاعجاب بالشخصية التي يسردها المؤلف ، ولا يمكن للقارئ ان يرى مزية جميلة ونصيحة الا وحاول ان يعمل بها لإصلاح عيب فيه ، ومهما قيل ان على الإنسان ان يبقى على طبيعته فهذا لا يمكن ، لأن لكل شخص نواقص لا يدري بها غيره ، وعيوب ينقبض منها صدره ، فإذا ما وجد كلمات تساعده وتدفعه للأفضل ، فلا شك انه سيبادر للتغيير ..

والكتب تعج بخطوات التغيير وأساليب التنوير ، ونصائح في تنمية المال ، والتحفيز لمستقبل أجمل ، وكيفية القيادة وإدارة الشركات، وصنع العلاقات الاجتماعية والصدقات ، وأهمية العائلة ، ونجاح الفرد في كل مرحلة من مراحل حياته ..

لنأخذ مثلاً صفحة واحدة من مؤلفاتي السابقة وقد كنت قد ذكرت فيها: "إذا احببت ان تكون شخصاً قوياً واثقاً من نفسك عليك بإتباع هذه النصائح العشر" .. ثم تشرع بالقراءة بنهم وتركيز ..

- اهتم بظاهرك ، فالناس ترى العيب ولا تعلم الغيب ..

- شد الظهر ، ورفع الرأس ، والنظرة القوية للعيون ، لغة يفهمها الجميع ، وعند التحدث مع شخص حاول النظر في عينيه ..
- احذر الاستهانة بنفسك ، فشخصيتك تقوى بقدر احترامك لنفسك ، ان كنت تعتقد انك لا شيء سيعاملك الناس على انك لا شيء . . . تقبل ذاتك كما هي ..
- اجعل صوتك جهورياً ، ولا ترتبك اثناء الكلام ، واغضب لكن لا تجعل الغضب يستفزك ويفقدك تركيزك على الأمور ..
- لا تكشف أسرارك واشيائك الخاصة ، كن غامضاً لان الغموض يضيف على شخصيتك هالة من الاجلال والتوقير ..
- مرّن نفسك على قول " لا " وأوجز في الكلام ، وليكن جوابك على قدر نصف السؤال ..
- لاتكن ثرثاراً ، ولا تتدخل في ما لا يعنيك ..
- احذر الاستعجال فانه إعصار يسلبك حاضرك ومستقبلك ..
- تجنب الاكثار من الاعتذار بلا سبب ، أو حتى ان كان هناك سبب .. فان الاسراف في الاعتذار يورث الذل ، بل ويغمرك في الذل ، وكذلك الحال مع تبرير كل ما تقوم به، فالناس يكرهون القوي لكنهم يقدرونه ويطيعونه ، ويحبون الضعيف لكنهم يستحقرونه ويستخدمونه ..

- قاتل النوم وأكدح بكل حواسك لتصبح غنياً ، فبدون المال لن تنفعك كل الخطوات السابقة ولن ينفعك الآلاف مثلها ..
مرتبتك بمستوى راتبك ، ومقدارك هو نفس مقدار ما في جيبك ..

إلى هنا كل شيء بخير والأمور طيبة والكلمات حلوة مفيدة ، وعلى ما يبدو ان هذه الخطوات قدمت لك ما يسيل لعابك لكن ، عند المضي بتطبيق هذه النقاط العشر سيحدث ما يلي ..
تخيل انك تلتقي بشخص وتطبق كل هذه القواعد ، سوف يكرهك وينظر لك بسخرية ، ويعرف انك ضعيف تتكلف وتمثل ، ويتمنى ان يصفعك بقوة ..

ستصبح نموذجاً غريب الاطوار ان طبقت كل ما قرأت ، وتخيل انك تدخل على صاحب محل يريد استخدام قاعدة بذل الكلام المعسول لجذب القلوب ، فتقول له السلام عليكم ،

فيرد عليك وهو يفتح فمه وعينه ، وكأنه يريد أن يبتلعك ، ويقول: عليكم السلام ، حبيب قلبي الغالي ، اهلا وسهلا ، تفضل انا بخدمتك وتحت تصرفك . . . تطلب منه شيء بسيط فيقول لك: تفضل انها أجمل قطعة ، لأجمل شخص في الدنيا ، تفضل يا طيب ..

ستهرب ..

وعندما يلتقي شخصان يطبقان بالحرف الواحد تعاليم كتاب في أسرار لغة العيون وبناء الشخصية ، يركز أحدهم في عيون الآخر بطريقة يصعب على أي إنسان في الكون أن يعرف نوعها ، عدا أنها نظرة بلهاء غاضبة ، تشبه نظرة رجل مخبول نام أمام مكان عملك ، وعندما توقظه لأنك تريد أن تفتح أبواب دكانك صباحاً ، ستري نفس هذه النظرة والعيون المبلقة ، أنا متأكد أنك مررت بمثل هذا الموقف يوماً ما ..

أو أن شخصاً يحدثك بكل مفاصل وجهه وانت تركز بصلابة وجمود على طريقة كلامه ، وتعابير وجهه ، ورسم عينيه ، وحركة يديه لتجرب فراستك الطازجة في قراءة ما يخبئه بين السطور ، إلى أن تنسى فحوى حديثكم ، وتنسى سبب زيارتك ومجيئك إليه .. ستبدو احمق أيضاً ..

تقرأ مقالاً عن إعادة تدوير الشخصية والبدء من جديد ، وانه يجب عليك تعلم قول " لا " والا تسكت ولا تخمد بوجه الظلم ، وان تدافع عن حدودك ولا تهدأ إذا أخذ حقك . . . ثم بعد ذلك تذهب برفقة زوجتك عصراً إلى بائع الخضار ، فيزن لك البطيخ والموز وانت تراقبه ، وتلوي عنقك كأنك حيوان اللاما لترى الرقم على شاشة الميزان ، فتكتشف انه يسرقك في الوزن ، وتتمنى حينها لو كنت لاما حقيقية فتبصق في وجهه .. انها دراهم قليلة لا تلقي لها بالاً ، لكنك ، وكأن مصباحاً سطع في ذهنك ، تذكرت الكاتب والمؤلف اللطيف حين أوصاك ان لا تسكت ولا تصمت وأن تدافع عن حقك ، حتى لا يسود الشر في مجتمعنا الطيب .. عندها تقول للبائع انك غير منصف في الحساب ، والوزن الحقيقي هو اممم .. نضربه في السعر وهو اممم هم . . . والناتج يساوي امم هممم هممم . . . نعم ، سوف يقتنع ويعطيك حقك ، لكن البائع اظهر امتعاضه وبدأ الحمق والحنق يغلي في وجهه ، وعندما تقول له شكراً لن تسمع رداً ، وعندما تأتي مرة أخرى وتسلم عليه لن يرد لك السلام ، وسوف يسرقك أكثر انتقاماً لنفسه ..

وأنت بدورك تغضب وتذهب ليقال غيره لكنه يسرقك أكثر وأخلاقه أسوء من الأول ، ويتكرر الأمر مع النجار والحداد والمصلح ، الواقع مختلف يا عزيزي ، عليك ان تتحمل بعض السرقة وبعض الكلام والقليل من الاذى ..

لا تقرأ كتاب وانت متعلق به حد الافراط وتطبق كل حرف فيه مساوئ قراءة كتب التنمية والروايات كثيرة ، الرواية تجعلك كثير الأحلام ، وكتب التنمية تزيد همومك إلى حد الجنون ان صدقت كل ما فيها وأمنت به ..

لنأخذ مثلاً عن أحد كتب التنمية ، تقرأ عن طريقة جمع المال وهو يبسطها لك في خطوات يسيرة ،

- ان تحب المال ،
- تعمل بلا انقطاع ،
- تدخر من ارباحك تحسباً واستعداداً للفرصة حين تأتي فجأة ..
- ثم تُفرغ كل أموالك في العقار " ..

نعم ، انها سهلة جداً وتجعلنا نبتسم ، وعندما تذهب لتطبيق هذه النظرية تصبح صعبة ، وتحتاج إلى عمل شاق ووقت طويل جداً ..

يظهر رجل على الشاشات وهو أحد المشاهير ، وأحد رجال المال الأغنياء ، وهو يعرض قاعدة بسيطة جداً لكسب مليون دولار ، بطريقة سهلة هينة لطيفة ، كأطف ما يكون .. قاعدة لم تخطر على بال أحد منا يوماً .. قال وهو يتحدث عن خطوات هذه القاعدة بثقة وسعة اطلاع:

سأوضح لك كيف تصبح مليونيراً ، كل ما تحتاجه هو أن يكون لديك شيء واحد ، يُمكنك من الحصول على عشرة دولارات .. لا يهم ان كان قص الشعر ، جز العشب ، الطلاء ، مجالسة الأطفال .. فقط اعثر على عمل يجني عشرة دولارات في اليوم ، وبعد ان تحصل على هذا العمل ، أريدك أن تكرر فعله عشر مرات أخرى ، الآن أصبح لديك مئة دولار . . . أريدك أن تفعل ذلك عشر مرات أخرى ، أصبح لديك ألف دولار . . . ما أريدك أن تفعله الآن ، هو أن تكرر ذلك عشر مرات أخرى ، لقد أصبح لديك الآن عشرة آلاف دولار جميلات ..

بعد حصولك على هذه العشرة آلاف دولار ، من فكرة العشر دولارات البسيطة هذه ، كل ما أريدك أن تفعله ، هو أن تستمر بتكرار ذلك لعشر مرات أخرى ، وسيكون لديك مئة ألف دولار ، نعم مئة ألف دولار ..

إليك خدعة ذكية جميلة أخرى ، بمجرد أن تجني المئة ألف دولار ، يستعين عليك توظيف عدد قليل من الأشخاص .. وكل ما أطلبه منك الآن ، بعد ان تجني المئة ألف دولار .. نفس الفعل الذي قمت به لكسب المئة ألف دولار ، أريدك فقط ، وبكل سهولة ، أن تكرر ذلك لعشر مرات أخيرة . . . تهانينا ، أنت الآن مليونير ..

أنها فكرة تجمع العمل الأكثر وفرة ، والأيسر أداءً ، والأفضل نجاحاً.. وها انت تفتح عينيك على مصراعيها ، وتعتدل في جليستك ، وتتشنج ساقيك ، وتشعر بالأدرينالين يندفع في عروقه ..

ستحدث نفسك معاتباً: كيف لم انتبه لهذا قبل سنين ، كم أتمنى لو اني سمعت عنه قبلاً . . . ثم تشجع روحك وتطمئنهما قائلاً: مع ذلك لا مشكلة ، لا يزال هناك متسع من الوقت لتطبيق هذه الخطوات ، إنها خطوات يسيرة : هيا لنفعلها ..

وعندما تشرع بتطبيق هذه الخطة الرائعة ، أو قبل ان تبدأ بالبحث عن عمل مناسب يضمن لك هذه العشر دولارات الجميلة .. هل يمكنك ان تحضر آلة حاسبة وتعدّ معي ما يلي ..

كم من الوقت تحتاج للحصول على أول ألف دولار .. لنبدأ معاً بالحساب . . . أول عشرة دولارات تحتاج يوم واحد فقط ، ثم تضرب اليوم الواحد في العدد عشرة لتحصل على مئة دولار ، وهذا يحتاج لعشرة أيام . . . ثم للحصول على الألف دولار سوف تضرب العشرة أيام في العدد عشرة ، لتصبح مئة يوم . . . وحسب هذه النظرية فإننا لا يجب أن نتوقف هنا ،

بل علينا أن نستمر للحصول على العشرة آلاف دولار ، وما بعدها ، ولهذا فإننا نضرب المئة يوم في العدد عشرة وأصبح المجموع ألفاً من الأيام . . . وللحصول على المئة ألف دولار سوف نضرب الألف يوم في عشرة ، وهنا أصبح الوقت المستغرق للحصول على هذا المبلغ الكبير من الدولارات ، هو عشرة آلاف يوم ..

اريدك ان تنتبه معي أيها الصديق الرائع ، هل تدري ماذا يعني وقت العشرة آلاف يوم ؟ إنه يعني ما يقارب الثلاثين عاماً .. ومعناه أنك حين تملك المئة ألف دولار بيدك ، فإن عمرك قد وصل إلى ما يزيد عن الخمسين عاماً وقريباً من الستين عاماً . . . والآن عليك أن تأخذ هذه المئة ألف دولار وتهديها لطبيب الأمراض الباطنية ، يصلح بها قلبك ، أو يستبدل إحدى كليتيك ، أو تذهب وتشتري نعشاً فاحراً يليق بثري ناجح مثلك ..

هل جفلت الآن ؟ هل خاب ظنك ؟ هل استسلمت للفقر وعدت تبحث عن طريق آخر للربح ؟ .. نعم الأمر أصعب مما تظن . . . وتخيل معي لو أنك حلمت بالمليون دولار لتصبح مليارديراً كما يقول الرجل.. فإننا سوف نضرب الوقت الأخير في العدد عشرة ، ولا داعي لإخبارك بالنتيجة القاسية ، لأنها أصبحت قريباً من ثلاثمائة عام ..

وقس على هذا المنوال ما تقرأه من الكتب أو تشاهده يومياً على الشاشات . . . لأن هذا هو حال الكثير من الكتب ، وهذا هو حال صنّاع التنمية ورجال التطوير والنجاح ..

تقرأ عن فن التعامل مع الآخرين ..

- الابتسامة ،
- الكثير من المدح والكلام اللطيف ،
- حفظ أسمائهم ،
- الاهتمام بهواياتهم ،
- تجنب كلمة نسيت ولا ادري ،
- تجنب طباع الرفض ومعارضة الغير ..

أليس من قالها يعاني جنون العظمة ،

وما ان تلنقي بمجموعة من رفاق العمل حتى ترى ان الفجوة بينكم تزداد وتكبر .. الكتاب يدلك على ربح هذه الأمور بسهولة ، وعندما تحاول تطبيقها تفشل فتزداد همأً ، ثم تمل من التمثيل والتكلف ، وتعود لما كنت عليه سابقاً ، مع نصيبك من الخذلان .. وهكذا قس على باقي أمور حياتك ..

ان هذه المعلومات ومهما كانت مهمة وقيمة بالنسبة للقارئ ، الا انها لا ترتقي لطبقة العلم ، انها مجرد بحوث صنعت من جانب واحد للتلاعب في عقول الهواة والطبقة الفتية ، بحثاً عن الاعجاب والشهرة..

ولأن كل هذه النظريات والتناقضات لا تفعل شيئاً سوى دفع القراء المحبين للحياة نحو الجنون ، والأدهى من ذلك انهم ليسوا مجانيين حقاً وإنما اذكاء لدرجة أكثر من الحد المقرر للذكاء ، وبذلك فهم واقعيين في نظرهم ، مجانيين في نظر الجميع ..

كقارئ للكتاب تبحث عن ضالتك ، فأنت لم تشتري كتاباً وتقرأ عبثاً دون جدوى ، انما تريد ان تتعلم وتطور نفسك وتتغير للأفضل ، بعكس من لديه الكثير من الفراغ فيشاهد فلماً أو يجلس في مقهى يريد ان يقتل الوقت ، وعندما تحاول تطبيق مفردات وقوانين الكتاب ستقع في زوبعة تدفعك للتقيؤ ، مفادها هو ، إذا اردت إصلاح نفسك فهذا يعني ان بك عيباً ، إذا اردت التطور هذا يعني انك متأخر ، إذا اردت ان تصبح أفضل هذا يعني ان هناك أشياء سيئة تتخلل شخصيتك ، وبما انك تفكر كيف تصلح نفسك هذا يعني انك مهووس بالأفكار السلبية ومراقبة نفسك ، ومراقبة الناس من حولك ، مراقبة تصرفاتهم، مراقبة لكنتهم وافكارهم ، مراقبة عدد المرات التي ترمش فيها اجفانهم، وعدد مرات فرقة اصابعهم ، وتتعرف على السيء والجيد في تصرفاتهم ، وتقارن وتستنتج ، وبالتالي تتعب وتكره محاولة إصلاح النفس ، وتطبيبها وزخرفتها بالعبارات الرهيفة ، والحركات الأنيقة ، ثم تكره هذا الارهاق والكم الكبير من السير على القواعد وتطبيق الاساليب ، وبالتالي تكره محاولتك وتكره الخطة التي وضعتها للتغيير من الاساس، وقبل كل هذا ستكره روحك لأنك تظنها على خطأ، وتعاقبها وتلومها على أقل هفوة وزلل ..

ان النفس البشرية خلقت لتكون بين الصواب والخطأ ، وكل ابن آدم خطاء ، كما وصفها الله سبحانه في أكثر من موضع في القرآن الكريم ((جهولاً ، ظلوماً ، ضعيفاً)) ..

اهدأ عزيزي ، انت إنسان رائع ، يكفي انك تقرأ وتُتعب نفسك وتبحث ، ثم تحاول ان تتغير وتصبح شخصاً أفضل ، بينما غيرك يتفاخر بعيوبه ، ويتباهى بها ، ويتحدث عنها بغرور . . . أعتقد انه من المفيد والأسلم لهذا القلب الطري ان نترك عيوبنا وشأنها ، فلا شيء يستحق اجهادك النفسي في هذه الحياة ..

إذا كنت تصدق كل ما تقرأ وتتأسى به وتتخذ منهجاً لك فتوقف فوراً عن القراءة . . . ان هؤلاء الفلاسفة هم بأنفسهم غير مقتنعين بأقوالهم ، ولديهم ارتياب من مؤلفاتهم ، كما صرح فيلسوف من النمسا قائلاً: ان هدف الفلسفة هو ان تُظهر للذباب طريق الخروج من الزجاجاة ..

ومن قرأ تلك الكتب قال عنهم: الفلسفة هي فنّ التحدّث عن التفّاحة بدلاً من أكلها ..

فكم من كتاب بنهاية مفتوحة ، أو مضللة ، أو تحمل بين طياتها الكثير من الغموض .. انهم يتلاعبون بنا .. لم نعد بحاجة للاستغراب من كل هذه التناقضات .. فمع مرور الوقت سوف نذوب معها ونصبح قالباً واحداً ان لم نمسك زمام عقولنا عن التشعب في دهاليزها .. انهم يعابثونا بارتياح .. لا تستمع إلى النصائح لمجرد ان القائل من كبار السن أو ممن يظهر في الاعلام ، هل نسيت ان الاحمق والخبيث يكبر في العمر أيضاً ، وكذلك يصنع كتاباً ..

حتى هتلر الذي مات بسببه ما يقارب من مئة مليون شخص قام بتأليف كتاب اسمه كفاحي ، وكثير من جنود وضباط هتلر وهم من كبار القتل والمجرمين لديهم كتب تحكي سيرتهم الذاتية أو قصص وخطط الحروب التي قاموا بها ، وكذلك فعل ستالين ، وزعماء المافيا ورجال العصابات ، وكثير من السكارى والحمقى ، هل سمعت يوماً عن كتاب يشرح ويعرض لك طرق مختلفة عن الانتحار ، لا تستغرب، هذا الكتاب موجود وقد تم منع تداوله في كثير من الدول . . . وهذه المعلومات تتسرب إلى العقول بسهولة بحسب الطريقة الساحرة التي تُقدم بها ..

لا تُتعب نفسك وتقرأ كتب تطوير الذات وتحسين العلاقات بإسراف واعجاب كبير ، وإلا ستصبح كإنسان آلي ، فكل الذين يطبقون القواعد بحذافيرها تجدهم غرباء الطبع ، غرباء التصرفات ، غرباء الكلام ..

ولا يمكن ان نجلس خائري الأفكار ونقول ان الأمر انتهى وليس هناك ما يقال ، بينما يعتقد من يقف على الضفة الأخرى ان افكاره غير قابلة للنقاش ، وتعدو الحقيقة نقطة بعيدة متوهجة ، ولا يمكن أبداً ان نصرح أننا هُزمنّا ، وإلا لماذا نقرأ ونبحث .. أما بخصوص مواقع الإنترنت فهي أكثر شراً وتخطأً في المعلومات ، ولو جربت وكتبت في محرك البحث سؤال بسيط عن مضار الخبز مثلاً ، لوجدت ان من مضار تناول الخبز ما قد يصل بك إلى تدهور حياتك بالكامل ، وفقدان صحتك ، والموت المبكر ..

أظنني أعرف فيما تفكر الآن ، انت تُحدّث نفسك وتقول في سرك وتسالني ، وهذا الكتاب ، ألا يندرج ضمن الكتب التي فجعت رأسي وأرهقته بها ؟ ألا يندرج ضمن حفلة التناقضات الفكرية ؟ ..

نعم ، انا معك ، وانت محق في كل ما تقول .. لكنني ادافع عن رأي وأقول: ان هدف الكتاب الرئيسي من وجهة نظري هو التسلية وقضاء بعض الوقت الجميل مع خير جليس .. ثم اصف لهذه المتعة القليل من الفائدة ، فلو كتب المؤلف عن الطبخ وعن تصليح أجهزة التكييف ، وكتب عن الشعر الجاهلي ، وكيفية تعلم الخياطة ، فان كل قارئ سينتبه وينجذب إلى ما يفتقر إليه ، ويعطي رأيه في مجال تخصصه فقط ، والباقي ليجعله للتسلية وإبادة الوقت .. ثم ان لكل شخص اتجاهه وسريره في القراءة ، لذلك تجده يركز على ما يُحب .. وتكفيك كلمة من كل كتاب ، وأخذ ما يلزم حاجتك لا أكثر ..

خُذْ شيء من كل شيء . . . أعلم ان خبر تجاهل معلومات الكتاب هو أمر محبط ، ولا اريد ان أفسد عليك بهجة القراءة ، لكنك ستشكرني لاحقاً . . . ربما ستقول لي: انا اقرأ لأتعلم وأنتقف وأغير حالي للأفضل ، انت مصيب في هذا ولكن ، هناك طريق مضمون لتتال كل هذا ، انه الاختلاط والتشابك مع أفكار الآخرين وتصرفاتهم ،

الثقافة من الاختلاط مع المتعلمين والمتقنين والناجحين وليس من الدراسة والشهادة نفسها ، ولذلك فان دكتور وسط عائلة من الحمقى أو مهندس وسط سائقي الباص وبائعي الخضار ومصلحي السيارات ، ستجد هذا الشخص خليط من الحمافة والتكبر والشرور ..

انها نزعة اصيلة في النفس البشرية منذ بداية التاريخ ، وهي التأثير بالمحيطين به والاصغاء لحديثهم وتقليدهم ، انه شغف قديم ، قوي ، لا ينحني ..

حصلت على وظيفة في وزارة الكهرباء عام ٢٠١٩ في مشروع "ديزلات الحرية" الواقعة في بغداد على طريق منطقة الشعلة السريع ، عدد الذين تم تعيينهم في نفس المكان والزمان كانوا اربعمئة شخص ، تم توزيعنا إلى مجاميع من عشرون فرداً أو أقل ، ولكل مجموعة كرفان خاص بهم للجلوس والاستراحة والطعام والنوم ، لأن المشروع كان متوقف عن العمل ،

ولم تكن الوزارة بحاجة إلى كادر موظفين جدد لكنهم اضطروا لاستحداث وظائف جديدة لتهدئة وامتصاص غضب الشارع اثناء موجة مظاهرات "تشرين" في تلك السنة ، في الكرفان الذي أشاركة مع ثمانية عشر شخصاً ، كان بينهم من حملة الشهادات الماجستير والبيكالوريوس والاعدادية ، ونزولاً حتى نصل لمن لا يمتلك مؤهلاً دراسياً ولا يقرأ ولا يكتب ، أعانه الله على ازدراء زملائه واحتقارهم له ، ان لم يكن في تصرفاته أو هيئته ما يخيفهم ويرعبهم .. تلك الوظيفة التي حلمت بها وتمنيتها وسعيت بكل قوتي واطفاري للحصول عليها ، كانت تشبه بقعة اتسخت من حياتي ، وما جعلني اكرهها وتنقبض روحي من تعاطيها والاستمرار بها ، هو كمية السباب والكفر والكلام البذيء الداعر الوسخ بين الموظفين الجدد ، كل الوقت ، ويومياً ..

وعندما انتقلت لمشاركة مجموعة أخرى صغيرة في كرفان صغير خاص بمهندسي الكهرباء حصراً ، انتقلت معهم كخطوة استتبطتها لإراحة اذني وعقلي من لوث المفردات الآسنة .. لكنني تفاجأت ان معظم أفراد المجموعة الجديدة كانوا ، وبلا مبالغة ، من أقذر البشر الذين قابلتهم في حياتي على الاطلاق ، و مما زاد في البلية انهم كانوا على مستوى عالي من التعليم ، ولهذا لم يقدرُوا شهادتي الجامعية ، ولم يُكرموا أخلاقي وأداء صلاتي عندهم ، على عكس المجموعة السابقة ، حيث كانوا وبالرغم من مساوئهم ، الا اني كنت الملح بعضهم - أحياناً لا على الدوام -

يغمر لصاحبه منبهاً له انني موجود بينهم ، ليخفف من وطأة
وثقل الكلمات احتراماً وأثرة لمكانتي في قلوبهم ، كنت أعتقد ان الكلام
القدر سببه ترك التعليم ، والافتقار للشهادة الدراسية ، والعمل الرديء
في الشوارع الملوثة ، والتشابك والاختلاط مع النماذج الخبيثة
الوضيعة .. يبدو انني لم أفهم ولم ادرك الحقيقة إلا بعد ان تخلصت من
تلك الوظيفة.. وبحث في ذكرياتي .. لأنني أتذكر جيداً أنه كان هناك
كرفان قريب من الكرفان الذي كنا نشغله ، ويوجد في هذا الكرفان
موظف واحد من القدماء ، وهو كبير في السن ، ويشارك خمسة عشر
من المتعنين الجدد ، ولذلك لم نشم من هذه الغرفة زنخ الكلمات ،
ونتن الحوارات ، وحدث هذا لأن الموظفين الجدد خالطوا من لديه
معرفة بأدب العمل الجماعي والسلوك الوظيفي ..

هناك حل آخر ، اضافة لمخالطة الطيبين ، اقرأ الكتب السابعة
بالعلم ، الغزيرة بالفوائد ، مثل كتاب "تفسير القرآن الكريم" وكتاب
"سير اعلام النبلاء" و "الرحيق المختوم" و "مجلد البداية والنهاية"
وكتاب "التوايين" .. وستكتشف بعد أن تقرأ هذه الكتب أن عقلك يكبر
بحيث انه لن يتنازل أو يداري بالأل لكل تلك الكتب التي قراتها سابقاً
وإنما سيتمرّد عليها، ولا عتب عليه ولا ملامة في هذا التمرّد للمكانة
والرتبة التي وصل إليها ، وكما يقال "التعلّم في سبيل الله وسيلة إلى
كل فضيلة" ..

ومن فائدة هذه الكتب انها تجعلك تنتشغل بنفسك وتداري عيوبك وتترك الناس وعيوبهم ، وهذه الكتب لو أردنا تلخيص المفيد منها وحصره في كتاب واحد ، لاحتجنا إلى إعادة كتابتها جملةً وتفصيلاً ، لأن محتواها كله فائدة .. ولأن هذه الكتب لا تحتوي على دراما ولا ألوان ولا كذب ، حتى ان أحد مؤلفي هذه الكتب يقول في بعض مقدمته: "وفيه قصص جميلة ، ونوادر لطيفة ، يكون بها بعض العوض عن غناء الاسواق ، وقذارات الفساق ، الذين شغلوا الناشئة بالمجلات والقصص المأجنة" .. وكثير غيرها من كتب العلوم والفيزياء والطب والتاريخ والاطلس ، وها هنا يكمن العلم والثقافة وصنع الذات ..

اقرأ لتتسلى ، ومن ثم لتحصل على بعض الإلهام والتشجيع لكن ، لا تتخذ من بطل الرواية قدوة لك وتحاول أن تخطو على نفس خطاه ، ثم تتوقع أن تحصل على نفس النتيجة ، هذا لن يحصل أبداً ، لأنك شخص مختلف ، ومعطياتك وتفصيل حياتك مختلفة عنه تماماً ..

لا تأخذ نصائح الكتب التي تملأ الاسواق والرفوف على محمل الجد ، وإنما لتكن كالمطبخ على الطعام ، خذ القليل واترك الكثير ، أما ان بقيت تقرأ كتباً بالطريقة الشائعة المنتشرة هذه الأيام ، شارداً بين الأحلام والأوهام ، ستجد رأسك يوماً وكأنه ردهة الطوارئ في مستشفى حكومي ..

وخير مثال على التيه والضياح في متاهات الكتب الملونة ،
والأفكار الملوثة ، وروايات الأحلام .. هذه المعضلة ، والتي تسمى
معضلة سفينة ثيسيوس ، وهي بإيجاز: كان ثيسيوس ملكاً إغريقياً ،
أخذ سفينته وذهب لمحاربة أعدائه وانتصر عليهم ، وعندما عاد احتفل
الناس به وقرروا تخليد سفينته الاسطورية ، ومع مرور الوقت كانت
ألواح السفينة تتآكل ، فكان الناس يستبدلون الألواح التالفة بأخرى
جديدة كل عام .. وهكذا سنة بعد أخرى حتى لم يبق في النهاية أي
خشب أصلي في السفينة .. وهنا تظهر المعضلة ..

هل السفينة لا تزال هي نفس سفينة ثيسيوس التي انتصر بها ؟
هل ما زالت تحتفظ بنفس أسطورتها الأصلية ؟ إذا كانت الاجابة نعم ،
فكيف يكون ذلك والخشب الاصلي لم يعد موجوداً ؟ وإذا كانت الاجابة
لا ، ففي أي مرحلة فقدت السفينة هويتها ؟ هل كان ذلك بعد تغيير
اللوح الأول ؟ أم الثاني ؟ أم الالف ؟ أم الاخير ؟ .. من هنا ، نصطدم
بسؤال: هل للأشياء جوهر تتعرف به حتى لو تغيرت من الخارج ؟ أم
انه لا يوجد شيء يُدعى الجوهر، وان الاشياء ليست إلا مجموع
عناصرها وخصائصها الخارجية ؟ ..

تم ربط هذه المعضلة بسؤال عن الهوية الإنسانية ، ليس فقط
التغيرات البيولوجية التي تحدث لنا مع مرور الوقت من موت وتجديد
خلايا الإنسان وما إلى ذلك ، ولكن على مستوى الذات والشخصية ،
وهذا يطرح سؤالاً: من نحن حقاً ؟ أي نسخة منا هي حقيقتنا ؟ ..

بمثال بسيط ، يمكنك التفكير في فريق كرة القدم الذي تحبه وتشجعه ، تخيل لو أن كل شهرين يتم بيع لاعب من الفريق ويحل محله لاعب جديد ، وهكذا حتى تجد نفسك يوماً تشاهد مباراة وترى فريقاً جديداً تماماً لا تعرف حتى أسماء لاعبيه ، هل ستظل تشعر بأنه نفس الفريق الذي كنت مرتبطاً به وبلاعبيه القدامى ؟ وتقول الفريق بمن حضر ، أم إنك سوف تشعر بشيء غريب ؟ ..

وكذلك نفس الأمر ينطبق على وطن أو مدينة تحبها وترتبط بكل مكان وشارع فيها ، ومع مرور الوقت تُزال معالمها ، الأشجار التي تحبها تُقطع ، والبحر يُحاط بقضبان ، والأماكن التي ترتبط بها تتحول إلى خرسانة ، هل ستشعر بنفس شعور الارتباط والانتماء ؟ .. ولنفترض أيضاً أنك في مرحلة ما من حياتك تمكنت من تكوين هوية تُقدم بها نفسك للناس ، لقد حدّدت عقيدتك ومبادئك وطباعك ، وما تحب وتكره وما يُغضبك ، ولنفترض ان شخصاً يدعى زيد كان معك طوال تلك الفترة ، ومع مرور الوقت كل ذلك تغير ، مبادئك إذا كانت في اليمين أصبحت في اليسار ، ما كنت تؤمن به أصبحت تسخر منه ، طباعك اختلفت ، والأشياء التي تحبها وتكرهها تغيرت بالكامل. ولنفترض أنك خلال كل ذلك كنت بعيداً عن الشخص زيد ، وتعرفت على شخص آخر يدعى عمر .. السؤال هنا: من يعرف حقيقتك أكثر ؟ واحد منهما ؟ كلاهما ؟ أو لا أحد ؟ أم الشخص الذي سيشهد على نسختك الأخيرة في نهاية الرحلة ؟ .. ولنفرض أنك بعد هذا التغيير

التقيت بصديقك القديم زيد ، فكيف سيكون شعوركما وكيف ستتعاملان مع بعضكما ؟..

نعود إلى السفينة ، حيث قرر شخص آخر وبدلاً من حل المعضلة ان يضيف لها سؤالاً آخر ، فقال: تخيل ان هناك شخصاً ما يجمع كل الخشب الاصلي المتآكل ويصنع به سفينة جديدة ، هل يمكننا القول حينها انها سفينة ثيسايوس ؟ أم ان السفينة التي رمنها في السابق هي سفينته ؟..

يمكن تقريب هذا بالقياس لفريق كرة القدم ، تخيل ان اللاعبين الذين تم بيعهم ذهبوا جميعاً إلى فريق جديد ، وهذا الفريق الجديد يلعب ضد فريقك الاصلي ، ضد الفريق الذي كان يضم لاعبين ترتبط بهم وبذكريات بطولاتهم وقمصانهم التي تحمل أسمائهم ، فلمن سيكون ولائك وتشجيعك في هذه الحالة ؟..

عندما نقول: انا أعرف فلان ، أو فلان يعرفني .. ماذا نعني بذلك ؟..

هل يمكن حقاً ان يعرف إنسان إنساناً آخر تمام المعرفة ؟ هل للأشياء جوهر أصلي خاص بها مهما حدث ؟ أم ان هذه الأشياء هي مجرد انعكاس وتخيلات لتصورات المراقبين لها ؟..

معضلة سفينة تيسوس تُعتبر واحدة من أكثر المعضلات الفلسفية إثارة للاهتمام ، لأنها تتناول أسئلة جوهرية حول الهوية والتغيير ، تطرح هذه المعضلة تساؤلات عميقة حول مالذي يجعل شيئاً ما هو ذاته الاصلية ، وكيف يمكن ان يتغير بشكل تدريجي دون ان يفقد هويته الاساسية ، المعضلة تفتح الباب لمناقشات حول الهوية الشخصية وكيفية تغيرها عبر الزمن .. من نحن حقاً ؟ هل نحن مجرد مجموعة من الذكريات والتجارب ؟ هل بقي شيء منا بعد موت الخلايا القديمة كلها وظهور خلايا جديدة بدلاً عنها ، جديدة كلياً ؟ هل نحن مجرد ذكريات ؟ أم ان هناك جوهر ثابت داخلنا ؟..

لذلك يا صديقي الطيب ، عليك بقراءة الكتب النافعة ، ومجالسة الرفقة النافعة ، راقبهم واختلط بهم ، وتجاهل الاعلام المُغرض ، والعواطف المُدّلة ، والالوهام الرائجة ، والأحلام الصببانية ، تجاهل كل هذا لتحافظ على رشذك وتهناً لما بقي من أيامك ، وخذ لك أمثلة ظريفة من ذلك الاعرابي الذي توسد التراب ، واستظل تحت شجرة ، فمر به رجل حكيم وقال له: هل أدلك على ثلاثة أشياء تكسب بها قلوب الناس ؟ قال الاعرابي: لا ..

إذا لم يكن هناك خبز للفقراء ،
دعهم يأكلون الكعك ..

ملكة فرنسا ١٧٨٩

ملكمة فرنسا ١٧٨٩

دعهم يأكلوا الكعك ..

إذا لم يكن هناك خبز للفقراء ،

الكذبة الأولى ..

عندما بلغت السابعة عشر من عمري ، أرسل ابي في طلبي وأخبرني انه يريد أخذ استراحة من العمل لمدة أربعة أشهر ، ولذلك سوف أتسلم زمام الأمور في السوق بدلاً عنه ، فقام بجرد البضاعة وحساب تكلفتها على أن يستردها مني لاحقاً ، أما الأرباح ستكون كلها من نصيبي .. استيقظت صباحاً متحمساً في يومي الأول وذهبت إلى السوق لإحضار بعض المواد من تجار المواد الغذائية ، وكان الباص العجوز الأنيق ذات الأربع والأربعين راكباً ينهب شوارع الرصافة ويسير بجد متجهاً إلى "سوق جميلة" ، وكنت انظر من الشباك إلى كل شيء ، وأراقب قرص الشمس وهو يستمر بالظهور ، لكنني أعتقد انها تخرج اليوم أسرع من العادة .. وصلت هناك وبدأت مهمتي في التسوق ، اشتريت كيس حُمص زنة خمسين كيلو بعد ان قمت بفحصه بواسطة "السمية" ، وهي انبوب من المعدن قُطعت نهايته بطريقة مائلة كي يتم أحداث ثقب وإخراج عينة من المواد التي يحتويها الكيس بدون تمزيقه ، ثم اخذت كيس من جريش الكبة وكيس من السُكَّر زنة كل منها خمسون كيلو أيضاً ، هناك الكثير من العربات ، عربات يدفعها بشر أو يجرها حصان .. ناديت على صاحب عربة مصنوعة من الخشب تُدفع باليد ليوصل أغراضي إلى الشارع الرئيسي ، حيث يقف أصحاب الشاحنات التي سوف تنقل أغراضي إلى مكان عملي ، وضع الولد الأكياس الثلاثة في العربة وبدأ بدفعها وأنا اسير بجانبه ..

ولا أتذكر ان كنا تحدثنا أو قضينا تلك الدقائق نسير صامتين ،
ثم تذكرت أن علي شراء علب زيت الطعام من الباعة على جانب
الطريق .. أوقفت صاحب العربة قريباً مني بينما كنت أطارح البائع
محاولاً تخفيض السعر ، اشتريت صندوقين من الزيت ودفعت المبلغ
وانحنيت لحملها ..

إنها ثقيلة جداً ، يا الله ، هيلاً هوب ، وها هي ترتفع عن
الأرض ، ثم استدرت لوضعها في العربة ، لقد اختفت ، اختفت العربة
والولد ومعهم الأغراض .. نظرت يمناً ويسرة ، هناك الآلاف من
البشر لكن لا أحد منهم هو صاحبي وعربته ،

أين هو ؟

أين العربة ؟

وأين الأكياس ؟

تمنيت لو اني استأجرت تلك التي يجرُّها حصان لم أكن
لأضيقها وسط هذا الزحام ، أولاً لأنها مرتفعة وبارزة وسط هذا
الزحام ، وثانياً ان الحصان لا يسرق .. نظرة الفشل ..

قال لي رجل: أركض بهذا الاتجاه لعلك تلحق به ... نظرت له ولم أرد بكلمة ولا حتى حرف ، أعتقد انها صدمة أو شرود الذهن ، أي طريق منها أيها الرجل المستريح البال .. هناك عشرات الطرق ، يعرفها حيوان الخلد هذا ، أما أنا الغريب من هنا فلا أعرف أين أنظر وأين أمشي ، وأنا متأكد انه الآن يختبئ خلف كيس من أكياس الطحين ، أو البرغل ، يراقبني مطمئناً غير خائف اطلاقاً ، ينتظرني ريثما أذهب للبيت ليختفي على مهل ، خيرٌ له من الهرب والركض الآن .. أراه الآن وهو يفرك يديه بمرح وخبت كما تفعل الذبابة ، إنه لشيء مُحزن يدفعك للسباب والشتيمة ان يحدث لك هذا في يومك الأول .. حسناً أيها الخلد الشرير ، في أي جهة تختبئ الآن ؟ وخلف أي شيء تخنس ؟ هل تفرك يديك قلقاً ؟ أم منتصراً على هذا الولد المبتدئ ؟..

أستطيع الركض ، أستطيع الصراخ ، لكنني لم أُحرِّك ساكناً ، ولا أعرف السبب .. أعتقد انه الخجل من الناس ، نعم أنا متأكد انه السبب .. الحياة تستمر حولي والناس تبيع وتشترى ، والعمال يرفعون العشرات من أكياس الحبوب إلى الشاحنات ، وكانت الأحصنة بعيونها الواسعة تنزلق بحوافرها على الاسفلت ، أو يطير شرر إذا احتكَّ حُدوها بحصى الشارع ، وكانت الجرذان تنسلُّ بسرعة ، والقمامة في ركن الشارع تزداد كل لحظة .. وأكاد أجزم ان لا أحد من هؤلاء الناس حولي يعرف قصتي ، ولا أحد غيري يدري بحالتي ، وأن هذا الحمال القذر قد سرق بضاعتي ، ولا أحد يحزر ما أشعر به الآن ،

ولا أحد يعلم ان هذا هو يومي الأول .. لماذا انا هادئ لهذه الدرجة ؟ هل سببه أنني لم أتعب بجمع هذه الأموال ؟ هل كان سيغير هذا الشعور لو اني جمعتها ديناراً ديناراً وإلا فكيف أشعر بقيمتها ، لكني قد فهمت وتيقنت تماماً اني قد سُرقت ، واختفت الأغراض ، وأن الأمر قد انتهى . . . كنت أجوب الشوارع على غير هدى . . . ثم رأيت أصدقاءً لي من الباعة الذين يعملون بجانبني في سوق "الدورة" ، فأعطيتهم علب الزيت ليرجعوا بها إلى ابي بينما أبحث عن صاحب العربية ، بعدما ذهبوا بقيت أتمشى على مهل وأنا متيقن كَلّ اليقين بأنني لن أجده أبداً ، لكنني أردت ان أرجع لأبي وقد سبقني الخبر إليه ..

عندما تُسرق أو تحدث لك مصيبة أو تتعرض لحادث ، دائماً ما يكون الجو غريباً ، لا عواصف ، لا أمطار ، لا هواء منعش ، وكذلك لا حر قاتل ولا رطوبة خانقة ولا غبار ، لا شيء من كل هذا إطلاقاً ، ربما لأنك تنفصل عن الدنيا ومحتوياتها .. لكني أظن ان السبب شيئاً آخر لا أعرفه ، لكنه يتكرر كل مرة أتعرض لسوء أو أذى .. وأعتقد انك معي في هذا ..

وكما يحدث في المسلسلات التلفزيونية عدت حائراً في باص آخر حالته يرثى لها ، يجر نفسه على الشارع بتناقل والأغاني العتيقة ودخان السجائر ، يسير بي نحو أبي وأنا أحاول تخمين ما أقول له وأتكهن ردة فعله ، هل سوف يوبخني ؟ أم يصفعني ؟ ..

كنت أرسم في مخيلتي أبي وهو يعض أسنانه غيضاً وكرهاً لي ، وأنه سوف يعصر كتفي بيديه ويسألني كيف أضعت المال بغباء وأنني أحقق لا خير في تربيتي ، أو ان ما سيحدث هو أسوء من ذلك بكثير .. جلست وحيداً في هذا الباص المسكين وهو يتعثر في الطرقات رغم انه مكتظ بالبشر ، جلست شارد الذهن أفكر في ما عليّ فعله بعد هذه الضربة الموجهة ، وما هي خطوتي التالية ، أددن كلمات أغنية مسلسل عراقي قديم لم أعد أتذكر اسمه ، وربما أخطأت في بعض كلماته .. كل يوم أقول اليوم ويطلع خسارة ، واركض ركض تعباً بس ماكو جارة ..

نفس الكرسي لساعة تقريباً ، وهذا يعني اني لم ألاحظ الناس من حولي ، لأنني لم أنهض وأترك مقعدي لرجل عجوز ، أو أنادي على امرأة لتجلس بدلاً عني ، أيقنت ان السرقة والأذى والمصائب في الحياة والعمل سوف تتكرر كثيراً ، كأنها لعبة الدومينو ، سوف تراها أينما ذهبت ، يلعبها الكبار والصغار ، في البيت أو المقهى أو في السوق ، ولا تفسير مادي لتكرار وقوعك في الشر والمصائد والخداع دائماً ، وفي الغالب لن تنفع معها الحيلة والحذر ..

لقد نفعتني حكمة توزيع الأموال في جيوب بنطالي تجنباً لفقدائها كلها مرة واحدة ، لكن سرقة الحمال لأغراضه هي حيلة أخرى سأحذر منها عندما تتكرر ، وأعلم اني وبلا شك سوف أنزلق في غيرها ، لا تفسير مادي لتكرار الوقوع في المصائد والخداع ..

وصلت مكان عملي وقد بدا لي مريحاً أكثر ، وكان المكان وما يحتويه يريد ان يربت على كتفي مواسياً لي .. عدت لأبي وأنا أحاول تكلف الغضب والحزن حتى أنجو من العقوبة والتوبيخ ، لكنني عندما رأيت أبي يقترب مني ، وفي الحقيقة أنا من كان يقترب منه ، بدأ قلبي يقفز في صدري كأنه كنغر صغير يلهو .. خطوت نحوه وقد رسمت على وجهي أعتى امارات الهم والحزن ، أتصنع الخسارة والألم لعلني أنجح في كسب حنانه وأرخي قلبه ، وأتجنب صفعته ، وهذا ما حدث بالفعل ، ما ان وصلت قريباً منه حتى ابتسم في وجهي وجبر بخاطري ، ودفع المبلغ الذي سُرّق مني تسليّة ومواساة لي .. سأعود في اليوم التالي وأستأنف إحضار الأغراض ..

فعل ذلك ليعطيني جرعة مفادها انك لن تخسر وتُهزم بهذه البساطة ، وكأنه يقول لي: لن تنتهي كتاجر بائس ، لن تتحول إلى مدمن يتعاطى حبوب الهلوسة والمخدرات لينتقم من عالمه وأحلامه ، لقد استبدلها بحبه وحكمته الأبوية إلى واحدة من أجمل ذكرياتي .. أعتقد انكم احببتموه وتحسدوني عليه ، نعم ، هذا هو أبي البريء انه أجمل أب في الدنيا كلها ... بعد كل هذه الأحداث كنت أفكر في نجاح خطتي ، حيلتي ، لأنني تملّصت من العقوبة .. تراجعت بضع خطوات للخلف ، جلست على عتبة معدنية قريبة ، لم أعد أتذكر ، هل شعرت حينها بالعار لأنني كذبت على أبي ؟ أم شعرت بالانتصار لأنني نجوت من العقاب ؟ ...

إياك ان تكون نقياً صريحاً واضحاً للكل ، لا بد من التصنّع
والتمثيل وإظهار الخسارة والألم ..

إذا مرضت يوماً تظاهر بالمرض ، تعثرت تظاهر بالغضب
ولا تبتسم ، احترقت بعض الأغراض في بيتك تظاهر بالحزن ، تلكأت
تجارتك تصنّع الخسارة ، سُرقت أو خُدعت تصنّع الهم والانكسار ،
وإلا فلن يساعدك أحد ولن يسندك أو يدعمك حتى أقرب الناس إليك ،
الناس اليوم وللأسف ، ومع كل هذا الخداع والشرور الذي يملأ الكون
من حولهم ، اعتادوا وجود الكذب ، اعتادوا التمثيل والتصنّع ، وإذا ما
صادفوا في الحياة غير هذا الطراز والمنوال سيصبح ظاهرة غريبة
عليهم . . . أما بالنسبة لي ، يبدو ان الإنسان وكما يلين عظمه مع
مرور الزمان كذلك تلين طباعه ، وينسى الحذر ، لأن هذا الحال تكرر
معي ولكني لم أتقن التمثيل في المرة الثانية ..

خرجت صباحاً ذاهباً للعمل ، وركبت باص نقل الموظفين ،
وبعد خمس دقائق وبينما السائق أبو مصطفى يجوب الطرقات ويجمع
الموظفين من هنا وهناك كأنه طائر يلتقط حبات القمح ، وأنا بين
النعاس والضجر من روتين العمل اليومي ، أحسست بألم اسفل بطني
على جانبي الأيمن ، ألم في المعدة ، وكنت على وشك ان اتقيأ داخل
الباص ، سألت السائق وسألت موظف آخر عن السبب فكان جوابهم
انه اضطراب في القولون نتيجة تناول طعام غير مناسب ، كان الأمر
يزداد سوءاً في كل ثانية تمر ..

نزلت على جانب الطريق الفرعي قبل ان تصعد السيارة وتنطلق في الخط السريع ، استأجرت التاكسي عائداً وقبل ان أصل للمنزل شعرت بأن لا مجال للصبر أكثر فاخترت بقعة تتجمع فيها القمامة على جانب الطريق وتقيأت عليها.. وجع في الخاصرة وعذاب لا يُحتمل ، أهيم داخل منزلي وأذرعته ذهاباً وإياباً ، أولول كأفعى كسر ظهرها ، وأصرخ أحياناً ، لقد بكيت ، بكيت وضحك أطفالي مني لأنها المرة الأولى لهذا الأب القوي العصبي الذي يتشاجر مع الأقارب والجيران ، ويتشاجر مع الباعة في السوق ، ويتشاجر حتى مع نفسه عندما يغضب ، فكيف له ان يبكي ، لم يسمعوا هذه النعمة من قبل ولن ينسوها ، إلى اليوم وصغيرتي فرح تهزأ مني وتلومني عليها..

جهاز المفراس في المستشفى الحكومي عاطل عن العمل لذا اكتفوا بعمل السونار ، وتبين ان هناك حصاة في الكلى اليمنى لكن مكانها وقياسها لم يُحدّد بدقة ، فأرسلني الدكتور إلى عيادة خاصة في شارع الكندي ، بعد ظهور أشعة المفراس تبين ان هناك حصاة بقطر خمسة ونصف ملم وطول خمسة عشر ملم نزلت إلى الحالب وانحشرت هناك ، تمنع السائل من المرور إلى خارج الجسم ، ولهذا تجمع السائل في الكلى وضغط عليها حتى انتفخت وفُتقت من أحد جوانبها داخل جسدي ، في فحص بسيط سابق قبل أشهر أخبرني الدكتور ان لديّ مشاكل في الكلى والمجاري البولية لكنني تجاهلت الخبر وتناولت بعض أكياس الفوار الذي يحتوي على حمض الليمون ، ارتجالاً من عندي ..

الدكتور الأول وصف حالتي بأنه انفجار في جانب الكلى وتسرب السائل داخل البطن وتحتاج إلى عملية مستعجلة ، لكنه شكك في نجاحها وأخبرني أنها قد تتحول إلى ثلاث عمليات متفرقة ، خرجت كالأخرس أهمهم الأنين كنت احتاج في ذلك الوقت لغزوة بسيطة في خاصرتي لأصرخ وسط شارع الكندي المكتظ بالبشر ، عدت للبيت ونمت على الأريكة بوضعية الجلوس ، كنت أستيقظ غارقاً في العرق والخوف ، ان الألم الناتج عنها يمكن تشبيهه وكأن أحدهم يمسك بالكلى ويجرها بقوة لينتزعها من مكانها ..

ها نحن ، أنا وزوجتي المسكينة نتنقل يومياً في منطقة الحارثية بين عيادة ودكتور وأجهزة السونار وتحليل الدم ، والمزيد من السائل ما قبل السونار ، إلا انه لا بد من استخدام هذا السائل ليسمح بحركة سلسلة للجهاز على الجلد وللتخلص من الهواء بين الجلد والجهاز ، السائل المقرف ، وكان حلزوناً ضخماً يسير على بطنك ، ذهبنا إلى مطعم قريب وتناولنا بعض الطعام ، صامتين كمجرمين هاربان ، نأكل بهدوء كعاشقين ، حزينان ، خائفان ، كثعلب وسط الزحام ..

الدكتور الآخر قال ان حالتك الآن تشبع بالوعة المجاري طفحت بأوساخها وسمومها داخل جسدك ، ثم بدأ يلحس أمواله لحساً بلا رحمة كما يفعل الحيوان أكل النمل مع وكر الحشرات ، ورغم اني أجريت فحص المفراًس الدقيق ولكنه طلب مني فحص جديد بالسونار، يريد ان يقنعني ان كل هذا خاص بالفحوصات السريرية ، فقام بملاً

بطاقة السونار في مكتبه ودون أسمى عليها وأرسلني لعيادة سونار بعد توجيهي لنفس العيادة وتذكيري بالاسم أكثر من مرة خوفاً ان أهرب لعيادة أخرى ويفقد حصته في الأرباح ، وكذلك فعل مع الصيدلية .. المفروض ان دراسته ومستواه التعليمي وثقافته تدفعان بروحه إلى الأفضل ، هذا ان كان يملك روحاً من الأصل ، في المستشفى وعيادات الأطباء ومختبرات التحليل لن تفكر إلا بحالك ، تنسى المال وتنسى كل ما تحب ، كلمة أو كلمتين من المواساة أفضل إليك من قطار علاج ، وحالك يُرثى لها ، انت أضعف من المتسول ، تُدرك حينها كم كنت قاسياً وأحمق عندما رأيت أو زُرت مريضاً ولم تواسه وتطمأنه ، في مثل هذا الموقف العصيب تشعر ان الحياة تصبح أضيق من ثقب إبرة الخياطة ، لا صحة ، لا راحة ، لا مال .. وكنت يومياً أقاوم رغبتني في الصراخ ألماً كالمجنون ..

هناك ، لن تفكر بأسعار اللحوم والخضار ولن تفكر في درجات أولادك الدراسية ، لن تفكر في مشاكل العمل .. الصراع بين الأوجاع التي تبتطش بي الآن وبين الخطوات التالية المجهولة يسحق بعضها بعضاً ، كنت منهكاً من الألم ، وأمسى رأسي فارغاً كأنبوبة الكاكاو بين أسنان طفل قروي ..

ذهبت أخيراً إلى مستشفى "الخيال" الواقعة في شارع المغرب في بغداد ، واجريت العملية ، أما السبب الذي جعلني أوافق على إجراء العملية هناك ان الدكتور "أنس" لم يطلب أي فحص جديد ولا أشعة السونار ولا تحاليل للدم أو غيره ، بل أخبرني انني أجريت

وهيأت فحوصات أكثر من المطلوب ، انه حدثٌ غير مألوف في هذا الزمن ، والسبب الآخر هو ان الدكتور قال لي يمكننا إجراء العملية الآن وفي هذه اللحظة ، لم أتمنى الهرب أو التراجع لحظة واحدة عن قول موافق ، فما أصابني من الألم والعذاب يدفعني للدخول في مفرمة اللحم لأتخلص منه ..

نحن في مستشفى أهلي وغرفة خاصة لكل مريض ، وهذا يعني ان كل شيء فخم ونظيف ويستبدل كل مرة ، وأجهزة التكيف والتلفاز والحمام المعطر ويعاملونك باحترام جزاء ما دفعت لهم ، وكنت مضطجعا على السرير هناك أرسم بأصبعي في الهواء على سقف الردهة ، أرسم خطوطاً وآمالاً ..

كنت أظن في السابق ان الماء بعد شربه يذهب للكليتين ثم للخارج مباشرة ، ثم تبين لي بعد البحث والخوض في نقاشات مع الأطباء ، أننا بعد ان نشرب الماء يذهب من الفم إلى البلعوم ثم يصل إلى المعدة ليتم امتصاص ما يحتاجه الجسم من الماء بواسطة الأمعاء ، ثم إلى الشرايين ويختلط بالدم وإلى جميع أجزاء الجسم ، ومع دوران الدم في انحاء الجسم فإنه يلتقط السوائل الزائدة والمواد الكيميائية والفضلات ويرجع محمل بهذه الفضلات ليصل إلى الكلى ، ثم تقوم الكلى بترشيح الدم وتنظيفه ويخرج الماء المحمل بالفضلات والمواد العضوية والسموم الذائبة لتُطرح خارج الجسم عن طريق البول .. وبهذا فإنه عندما يتبول الشخص بعد عشر دقائق من شرب الماء فهو لا يتبول من الماء الذي شربه للتو ..

وتعلمت أيضاً ان حصى الكلى تتكون من المعادن والاملاح المتواجدة في السوائل ، وعند انخفاض كمية السوائل نتيجة للجفاف الذي يحدث للجسم بسبب عدم شرب السوائل الكافية أو العيش في مناطق حارة أو القيام بعمل شاق لفترة طويلة أو الاسهال المستمر ، ونتيجة لكل هذا سوف تنخفض نسبة السوائل في الجسم وتترسب هذه الأملاح والمعادن وترتفع تراكيزها في الكلى ثم تتصلب لتصبح حصوات الكلى المعروفة ، وهناك الكثير من الأسباب مثل السمنة وأنواع محددة من الأدوية وبعض المكملات الغذائية المشبعة بالبروتين التي يستخدمها لاعبي كمال الاجسام ، وكذلك مما يؤدي الكلى ويجهدا هو المبالغة في شرب كمية من الماء دفعة واحدة في نفس الوقت بدون تقسيمها على عدد ساعات النهار .. كنت قابعاً هناك كالأسد ، أسد البحر طبعاً..

بعد دقائق هينة دلفنا داخل قاعة مضيئة ونظيفة جداً ، وعدد من الأشخاص رحبوا بي وهم يراقبونني بشدة ، ورائحة الدواء والتعقيم تملأ المكان ، وطلبوا مني الهدوء لأن كل شيء سيمر بسلام ، وهذا ما حدث تماماً ، هدأت من فوري واستقبلت النصائح والتوصيات كالإسفنجة .. هذه هي المرة الأولى التي أجري فيها عملية جراحية ، وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا المصباح الخاص بغرفة العمليات ويقال عنه أنه يضئ ولا يترك ظلاً ، للحصول على أفضل رؤية للجراح ..

الدكتور ومساعديه وطبيب التخدير وكم هائل من العباقرة يبحثون عن هذا الحجر الصغير ، حيث يكمن فيه سر نجاتي وحيواتي.. الحال لا يشبه البحث عن إبرة في كومة قش ، وإنما هم يعرفون مكان الحجر بالضبط وهمهم الوحيد هو الوصول إليه ..

الكثير من الأمور الغريبة تحدث هنا ، أين اختفى الخجل ، وكنت أحاول بكل جهدي ان أركز وأن أبقى مستيقظ قدر المستطاع ، وحاولت فتح عيني أوسع ما يكون كأنني قرد التارسير الفلبيني ، لأعرف شعور التخدير وكيف سيبدأ الجسم بالغفوة شيئاً فشيئاً تحت تأثير المخدر ، ولكن بلا جدوى ، وكل محاولاتي باءت بالفشل ، وفي أقل من مليون جزء من الثانية تلاشى كل شيء ، إنما حدث بعد اعطائي المخدر لا يمكن وصفه والتعبير عن سلسلة أحداثه أبداً ، وكأنهم قطعوا بعض الوقت من حياتك وعمرك ، إنه أمر لا يمكن وصفه حقاً ، يمكنك ان تتخيله وكأنهم ضغطوا زرراً وأخمدوا حياتي لساعتين ، أو انهم أمسكوا شريط حياتي وقطعوا جزءاً منه بالمقص ثم أرجعوا الباقي وألصقوه ببعضه ..

لا يمكنني ان أعبر لك عنه بصورة دقيقة جداً فأنا لست ماهراً لأصل إلى هذا المستوى من التعبير ، لكنك لو أغمضت الآن إحدى عينيك وفتحت الأخرى ، وحاولت معرفة ماذا ترى في العين المغلقة ، لفهمت ما حدث معي ، لقد كان الحلم قصير جداً..

خرجت من صالة العمليات بنصف عقل ، الغريب انه عندما تخرج من غرفة العمليات وتذهب إلى غرفتك الخاصة ويضعونك على السرير ، سوف تتحول الغرفة كأنها سيرك ، سوف يحضر الدكتور ومساعدته والممرضة ، والرجل الذي كان يدفع سرير العمليات واصدقائي وأقربائي ، والمنظف وزميله ، وأعتقد ان اثنين من الزائرين في الغرفة المجاورة دخلوا غرفتي أيضاً ، كل هؤلاء لم يأتوا من أجلي وإنما للحصول على البقشيش ، وأخي ينوي ان يعطي كل شخص عشرة آلاف من أمواله التي كانت في يده ، أي ما يقارب منتي ألف دينار ، ليزيد من ألامي وغيوبتي ..

ها هو المريض يفيق ، والجميع يحدق به بين اطمئنان وفرح ، وترقب لما سيتفوه به من سباب أو مزاح أو فضيحة أو موعظة أو غناء ، ما فعلته كان غير ما توقعه الجميع ، قُبلت أخي الكبير كما تفعل ابنتي ذات السبع سنين مع أخيها ذو الستة أشهر ، إثنا عشر قبلة من الخد وصعوداً إلى الجبهة ، مع صوت باسق وشفاه متعركة ، جيد أنني لم أُقْتَل الدكتور ، أما الممرضة التي كانت تُحَضِّر ابرة مضاد الالتهابات والمنظفة فمن حسن حظهما انهما كانتا بعيدتين عني ،

ثم بدأت أخبر الممرضة عن زوجتي وكم أحبها فأمسكت زوجتي بفي لتسكتني لكن الممرضة قالت لها اتركيه ليتحدث بما شاء فنحن معتادون على هذا يومياً ،

اتصل بي اصدقائي بعد العملية بنصف ساعة ، أخبرتني زوجتي ان أتصّع الألم ولا أرد على اتصالهم ، وأن أتظاهر بالتعب والمرض ، وقالت لي: لن يهتموا لأمرك إن لم تعاني وتُظهر الألم والمخاض ، ولو تصنعا وكذباً ، إنّ النساء ماهرات حقاً في هذا الباب.. لكنني تجاهلت النصيحة وأمسكت الهاتف وأخبرتهم أنني بأحسن حال ، وسألت عن أحوالهم وأوصيت صديقي ان يوصل لهم سلامي ..

خرجت بعدها للبيت فزارني أهل زوجتي وبيت أختي وعائلة أخي ، فكنت أمزح معهم ، وأتحرك بنشاط ، وأرتب سريري ، وأظهر لهم انني أقوى من الألم ، وأقوى من ان يفتك بي مرض أو عملية جراحية كهذه ، وكنت أمزح معهم وأقول لهم: لماذا لم تأتوا لزيارتي في المستشفى علّكم حصلتم على قُبلة . . . كانوا يتحدثون فيما بينهم عن مشاكل الوظيفة وتصليات المنزل وعن الوضع السياسي للبلد ، غير مُبالين لما مررت به ، أحسست وكأنني نادل في مطعم خال من الزبائن .. ثم زارني رفاق العمل ، وكنت أقف أمام المنزل وأستقبلهم بنفسي ..

عُدت لعملي الوظيفي بعد عشرة أيام مبتسماً ، متوقد الملامح ورشيق العزيمة ، هنّئي الجميع لسلامتي واستبشروا لعودتي ، وبعد ساعة أو أقل أرسلني مسؤول عملي لإيصال البريد ثم استئناف العمل المعتاد ، وأداء مهاممي الطبيعية كما قبل المرض ، وكذلك القيام ببعض النشاط الإضافي لتدارك حزمة من الاعمال المتراكمة ..

أتذكر زميلي في الغرفة المجاورة حين نهض صباح أحد الأيام وما ان وضع قدمه على الأرض ليرفع نفسه حتى التوث قدمه فعاد إلى فراشه مرة أخرى ، أخذ إجازة لمدة اسبوعين ثم جاء بعدها صباحاً للعمل متكرر الملامح ، غاضب ، حزين ، يئن ، مغتم لحاله ، وكان المسؤول عندما يطلب منه أداء مهمة أو القيام بواجبه ، يكلمه بصيغة الاعتذار ، أو يرسلني بدلاً عنه ..

لا أَشَجِّعُكَ في هذا المقال على الاحتيال والغش ، ولا أدفعك للخداع والدجل ، لا أنصحك في هذا المقال ان تكذب وتتصنع المرض والهم والألم بلا مسبب حقيقي ، ولكن ما أطلبه منك ونصيحتي لك أيها الحبيب ، لا تتصنع القوة والعافية ، لا تتكلف الابتسامة والفرح ، لا تتظاهر بالشجاعة والتغلب على المصائب وتظن ان هذا أفضل لك وأن من حولك من الأصدقاء والغرباء سوف يفتخرون بك ويحبون نقاء قلبك ، على العكس تماماً . . . كن مثلما يراك الآخرون ، وكن على الحال التي يظنون انهم سوف يقابلونك بها ، مريض ، تعبان ، تتألم ، منهزم ، عاجز ، مُصاب ..

اعتبرها كذبة بيضاء ، ولا تكررهما كثيراً ، واعتبرها أيضاً ، ودائماً ، وفي كل مرة ، اعتبرها الكذبة الأولى ..

بماذا تفكر ؟

ابحث عن ثمرة واحدة ، واحدة فقط ،
أخبرت عنها الآخرين ومزلت احتفظ بها ..

أبحث عن ثمرة واحدة ، واحدة فقط ،
أخبرت عنها الآخرين ومزلت احتفظ بها ..
بماذا تفكر ؟

حياة استثنائية ..

كان صديقي في المدرسة الثانوية يعمل مع إخوته الكبار في استوديو تسجيل الأغاني على أشرطة الكاسيت ، نهاية تسعينات القرن الماضي ، تذهب إليه وتطلب عدة أغاني من اختيارك وحسب حالتك المزاجية ، ربما وقعت في الحب ، أو هجرتك بعد أيام ، أو اخترت أغاني الطيش والرقص لحفل زواج ، أو فقدت شخصاً عزيزاً عليك ، ليقوم صاحب الاستوديو بتسجيلها على شريط الكاسيت ثم تذهب إلى جهاز التشغيل الخاص بأشرطة الكاسيت في بيتك أو مكان عملك ، وتلقمه الشريط ثم تسرح وتنتشي البهجة أو الهرجة ، أو تُداري دموعاً وتخفيها ..

أتذكر انه كان يعمل بالقرب من مكان عملي في سوق الدورة فتى عمره ستة عشر عام تقريباً ، هذا الفتى سجل شريط كامل لأغنية واحدة مكررة على طول الشريط ، وكذلك على الجانب الآخر للشريط عندما يقلبه ، ويصرع رؤوسنا بها على طول النهار ، من الصباح إلى المساء ونحن نسمع المطرب وهو يصرخ بألم ، بصوته الناعم جداً كأنه يغني مستخدماً قصبة العصير ، أو كأنه ديك صغير يحاول الصياح ، أغنية مطلعها حزن ونهايتها حزن ومحتواها نحيب قاتل ..

المُصيبة ان وقت هذا العزاء يمتد لعشر دقائق ، تتكرر في نفس الشريط تسع مرات ، ومن الصباح للمساء ولعشر ساعات ، تسعون مرة يومياً ، ويستمر هذا العذاب لأسبوع وشهر ، وهذا معناه أننا ولأكثر من ألف مرة نسمع المطرب يوصوص ، انتهيت ، ضعت بعدك ، دمرتني ، انتهيت ، ولن تنتهي القصة هنا لأن غداً لناظره نحيب . . . ولا أعتقد انه بقي شخص من الباعة في السوق لم يتكهّن ويحزر قصة الفتى النعسة ، من غير ان يسأله حتى ، انتهيت ، تعلمت بعد خسارة ، انتهيت ، يا أناني ، دمرتني .. حسناً ، هل انتهيت ، شكراً استاذ . . . أعتقد اني بقيت أحلم بهذه الكلمة عدة ليالي ، اني انتهيت ، والله انتهيت ، انتهيت ..

حتى لا نبتعد كثيراً عن جوهر حديثنا ، هذا الولد الذي يعمل في الاستوديو كان كسولاً مشاغباً في مدرستنا ، ولديه أصدقاء كأنهم أفراد عصابة ، وبمساندة رفاقه هؤلاء وجمعهم الأصوات لصالحه في انتخابات يوم القدوة ، تم ترشحه ثم فوزه ليصبح الطالب القدوة للصف ، والعجيب انه تغيّر وتبدّل حاله إلى الأفضل ، وأصبح مجتهداً في دراسته ، ومن النخبة ، وأكثر الطلاب نشاطاً ، ليؤكد للدنيا أجمع أننا كبشر نستطيع فعل الكثير لكننا لا نثق بقدراتنا . . . نعم ، انه صديقي الكسول ، بسبب رتبة القدوة وسحرها أصبح مجتهد ، وأنا صديقكم المسكين بسبب البطيخ الأحمر صرت من الكسالى ، سوف أحكي لكم قصتي مع البطيخ الأحمر في وقت لاحق في هذا الكتاب ، أما الآن لنركّز على أهمية العقل في تحديد مسار الحياة ..

عقلك وتفكيرك هو ثروتك ووسيلتك للوصول والحصول ،
فالطاقة الجسدية والعضلات يمتلكها الجميع ، وسائل النجاح لدينا حتى
ان كُنَّا لا نشعر بها ، كل ما نحتاجه هو حافظ من داخلنا أو محيطنا
ليدغدغ عقلنا ويكشف عن امكانياته .. تأكد ، ودائماً ، انه ليس المهم
في الأمر الذي تفعله هو نوعه وقيمته ، وإنما المهم كيف تفعله ،
والطريقة التي تتعامل بها معه للخروج بنتيجة مُرضية ، وأكثر موقف
يواجهك من هذا النوع وتحتاج عندها لتطبيق هذه المعلومة ، هو
امتناع الابناء عن قبول كلمتك ونصيحتك وعنادهم ، فعندما يريد ولدك
ان يختار ما يقرر مصيره ، لا تبادر بالرفض والغضب والاستهزاء
باختياره ، وإنما قل له: لن أمنعك مما تحب ، ولكن لنفعله بالطريقة
الصحيحة .. ثم اشرح له المساوي ، وأرشده لخيار أفضل ، وهذا أكثر
نفعاً من مواجهته ..

أرسل رسول الله ﷺ أنس يوماً لقضاء حاجة ، فقال أنس: والله
لا أذهب (أقسم لأنه كان صغيراً لا يدرك) فخرج وفي طريقه مرّ على
صبيان وهم يلعبون في السوق فوقف عندهم اما للتفرج أو ليلعب ،
وإذا برسول الله ﷺ قد جاء إلى نفس المكان ورأى أنس فذهب ووضع
يده على مؤخر عنقه ، فنظر أنس إليه فإذا النبي ﷺ يضحك ثم قال: يا
أنيس هل ذهبت حيث أمرتك ؟ قال: نعم ، أنا ذاهب يا رسول الله ، ثم
ذهب ..

من الحكمة ان يستخدم الإنسان البدائل ، الحب بدل القوة ، التشجيع بدل الزجر والتوبيخ ، الفكرة بدل العضلات ، ولهذا يُعتبر العقل من أقوى عضلات الجسد .. في إحدى المرات جرب رجل هذه الحكمة مع أولاده فقال لهم: من يقرأ ويتفوق ويحرز معدل درجات عالٍ يُمكّنه من الإعفاء العام من امتحانات نهاية السنة الدراسية له مني هدية قدرها خمسون ألف دينار ، فعل ذلك بدلاً عن الضرب والصياح والتهديد والصداع ، نَفَعَت معهم الكلمة وكانوا يقرؤون بجد ، ومع مرور الأيام اعتراهم الضجر ، فقال ولده الأكبر: لن أقرأ ولا أريد الخمسون ألفاً ، فقال له الأب: لقد خَصَصْتُ خمسون ألف نقداً لكل منكما ولن أُغيّر كلامي ، لكن ، إذا حصل أحدكم على الإعفاء وفشل الآخر ، فإن الأول سيأخذ الجائزتين معاً وهي المئة ألف كاملة ، وهنا بدأ السباق حتى استحقوا الإعفاء العام من أداء جميع الامتحانات النهائية ..

لطالما أزعجتني تلك النخلة في نهاية البيت ، يسقط التمر الحلو على السطح ، ويتدقق دبسها وعسلها حتى تصبح كومة من قشور التمر والدبق وما يلتصق به من الأوساخ والأوراق ، ثم يكلفني تلقيحها خمسة عشر ألفاً ، وقطف التمر وإنزاله يكلف خمسة وعشرون ألفاً أخرى .. أحضرت الكثير من الحطّابين وساوتمهم على سعر إزالتها .. أحدهم طلب مني مئة وخمسون ألفاً ليقطعها ، لقد أضرتني حين كانت تحمل الثمار ، وآلمني السعر حين نويت التخلّص منها ..

بعدها أحضرت رجل تلقيح النخيل نفسه وطلبت منه ان يزيل السعف كله ، وأعطيته خمسة عشر ألفاً ، فأصبحت مجرد جذع قائم ، ثم أحضرت رجل آخر وأعطيته خمسون ألفاً ليقطعه ، وبتغيير الخطة وطريقة القطع كلفتني خمساً وستون ألفاً فقط لا غير ، لإزالتها وتسويتها بالأرض ..

لنفرض ان أحدهم لا يملك حديقة كبيرة في بيته يجتمع بها مع أولاده وأحفاده ، للطعام واللعب والاسترخاء ، وإقامة الولايم معهم كل يوم جمعة ، وكذلك لا يملك سيارة تأخذه حيث أراد ، هذا مقدار رزقه والأمر ليس بيده ، الحل ان يُغيّر طريقة تفكيره ، لأن السعادة ليست مستحيلة المنال ولا تشترط وجود المال . . . ولم نسمه يوماً ان صاحب الكثير مَلِكٌ ، ولا صاحب القليل هَلِكٌ . . . نعم ، كل ما عليه ان يُغيّر طريقة تفكيره وينظر للأمور من زاوية أخرى ..

لا يملك سيارة جميلة يذهب بها مع زوجته وأولاده ، كل ما عليه فعله ان يؤجر التاكسي ويجوب الشوارع حيث يريد وأعتقد ان الاجرة قليلة جداً هذه الأيام ، لن يرغم نفسه ليمسك المقود مكرهاً ولن يتشاجر مع السائق الأهلل المار بجانبه ، لن يفكر بالمحرك والبنزين والأعطال ، لن يتحير أين يركن سيارته ، لن يشغل باله إن عاد ووجدها مخدوشة أو تعرضت لحادث ، أو كُسر المصباح وهرب الفاعل ، لن يجفل حين يقفز أمامه رجل المرور ، كل ما عليه ان يجلس ويوجه التبريد على وجهه ورقبته ويستمتع بالرحلة ، وأعتقد ان الاجرة قليلة جداً هذه الأيام ،

لا داعي ليختلق الاعذار ويبحث عن مبرر للتشاؤم والنحس والنكد الذي يغمر وجهه ويطفح عنه ، الخير موجود ومترع ، وأما من أراد الشؤم والنكد ، فان الاعذار متوفرة .. لا يملك بيت كبير ولا حديقة واسعة يجتمع بها مع أولاده وأحفاده كل يوم جمعة ، يمكنه بكل سهولة وكرم ان يذهب إلى أكبر منتزه في مدينته ..

حين راودته الفكرة صباحاً قفز من فراشه على عجل ، كأنه أرنب أو جرادة أو حمار صغير ، أخذ يراقب السماء وهي تنذر بصحو حقيقي بالرغم من الغيوم القطنية الجميلة المنتشرة على كل السماء ، وتحت الغيوم ، وبعض الطيور بلونها الباهت التي تعود لأحد المطيرجية في منطقته ، وموسيقى العصافير في كل مكان ، طلب سيارة أجرة بكبسة زر على أحد التطبيقات في هاتفه الصغير ..

ما ان وصل هناك حتى وقف يتأمل ، واضعاً يديه على خاصرته وقد أفرج بين ساقيه ، وشرع يشاهد الناس هناك مبعثرين كأنهم مجموعة من النمل نزعت قطعة الحلوى من بينهم ، وقد اختار بقعة ينبت فيها العشب الرطب بالقرب من بحيرة صغيرة حيث بريق الجواهر على صفحة الماء المتلألئ ، صحيح انه لا يوجد سمك يتقافز لكن لا ضير ان تخيل ذلك وهو منتشي أحلام اليقظة بين كل هذا السرور والملاهي ، يمكنه ان يتنفس بهدوء وعمق ، ورائحة العشب وأوراق الشجر ، والعصافير ، والأطفال ، ورائحة الطعام من هنا وهناك ، ورجال يجلسون على طرف الماء يمسون عصي منتصبه مربوطة إلى كلايب داخل الماء ، لم يصطادوا أي شيء لكنهم

ينظرون إلى الماء لساعات وساعات بلا سبب ولا فائدة ، يمكنه ان ينام هناك فكل ما حوله بيت مؤقت له ، صوت الزوارق وقهقهة الأطفال ويطغي على ذلك كله ويتسلط عليه صوت القطار الذي يمر في مدينة الملاهي كل نصف ساعة ، يحمل العوائل وهم يصفقون ويحتفلون ويشاهدون الرجال والأطفال محمّلين بأكياس الطعام ويتسابقون إلى الفيء تحت الأشجار ، وعلى مقربة منه بعض الكواخ التي أُعدّت لالتقاط الصور ، سوف يستمتع حتى ان كان الطعام والشراب الذي يحمله يكفي لثلاثون شخصاً ، لكنه يفكر ان يبقى هناك لوقت أطول ، قريباً من منتصف الليل ، وها هو بعد لحظات هنية يلعب ويضحك ، ويشوي السمك ، ويأكل الدجاج ..

دلق كل شيء في جوفه واتكى على كوعه الأيسر أمام البحيرة ، البحيرة التي لن يمتلكها بالتأكيد حتى لو كان من الأغنياء أو كانت لديه مزرعة . . . ثم تناول الحلويات والكرزات ولعب كرة القدم والتنس وركض كالصغار ، لن يحفل به أحد ولن يهتم ، بينما تعلّق أولاده بالأشجار ، أظن انه لو كان شخصاً غنياً جداً ويملك ما يملك من العقار والأموال لأحب ان يأتي هنا ويفعل كل هذه الاشياء ، انه سارح ومبتسم في مكان مريح ويشعر باطمئنان ، لن يضايقه الجيران ولا فاتورة الكهرباء ، انه مبتسم على الدوام حيث عربات السلع والحلويات والألعاب التي تهيج الأطفال منتشرة على الطرق ، أينما أدار وجهه ، كأنها شبكة صيد ، وهو يشاغل أطفاله عنها ..

هرع أولاده إلى عربة مكعبة مغطاة بكل الألوان ، تعلوها فراشة كبيرة ، ومقدمتها رأس أرنب ، تشعّ بالأضواء من كل مفاصلها وتصنع سحراً كأنها شعوذة رجل المزمар الذي سرق الصبيان ، ليشتروا منها غزل البنات ، ولا سبيل لصدّهم عنها ، الجهد الوحيد الذي بذله ان يحذر صغاره من التعثر في حفرة أحدثها السقي ، أو يصدّموا بعضهم ، أو يقتربوا كثيراً من أسوار القروود والحيوانات ومخالبهم القبيحة .. بينما لا بأس إن تدلّوا من الأشجار ، وحتى ان اختفوا عن مرآه ، فبعد قليل سوف يظهر رأس من هنا وذراع من هناك ، ثم يظهر جسد وهم يضحكون ويلهثون ، هو في حرية يحسده عليها الجميع ، حتى الحيوانات داخل الأقفاص .. ها هو قرص الشمس يهرب بعيداً ليختفي ويحل الظلام ، ولده الصغير يتبول واقفاً كما يفعل الكلب المطرود ..

وينتشر الظلام لا يبده سوى بعض المصابيح المنتشرة هنا وهناك ، والأضواء الخافتة التي تأتيه من قريب ، من الألعاب والأشجار وعربات بيع الدمى والزهور .. ثم غادر وهو يسمع صوت القطار للمرة الأخيرة ، أنهى سفرته واختتم يومه بأجمل نصيحة وأهم قاعدة عليه ان يلتزم بها في التنزه والسفر ، وهي ، أن تعود لمنزلك سالماً .. رجع لبيته الصغير ونام مبتسم الأسارير بينما جاره الغني لم يزل يُقَلِّب وسادته التي انبجعت من هنا ، وتورمت من جهة ، وارتخت من الأخرى ، وهو يدحرجها ويمرغ بها منذ ساعات ، بينما هو حظى بيوم استثنائي ، ولم يُكَلِّفه كل هذا المرح أجرة فلاح ليوم واحد ..

وهكذا لن يحتاج إلى تلك الفيلا الواسعة التي عليه ان يُداري زرعها ونبتها وأشجارها وزهورها ، ويوفر الماء والسماد والفلاح ، وهذا كل يوم ، ولا يهدأ له نوم ولا أطراف ، خوفاً من لسعات البعوض والحشرات ، وبهذا فإنه بالعقل يعيش ملكاً ، وهذه الحياة تُعالج وتستمر بالعقل وليس بالمال . . . بعد هذا النظرة المختلفة سوف يرى ان حياته ليست بهذا السوء ..

وأنت أيضاً ، في ظرف مشابه ، كل ما عليك فعله ان تغير نظرتك للأمور ، الأعطال لن تضرك ، ولن تقتلك ، إنها مجرد حدث بسيط من يوم طويل ، مع انها لا تحدث كل يوم وإنما كل موسم مرة واحدة ، حتى انفاق المال انه إجراء جميل واختبار حزين ، فالمال ليس ملكك من الأساس وقبل ان تمسكه كان عند غيرك ، ومن أخبرك ان السعادة رفيقة المال ، كلا يا صديقي السعادة للجميع ، انظر للأمور من زاوية أخرى لتتخلص من الكثير من همومك ، خاصة عندما يكون الأمر ليس بيدك ولن تتمكن من تغييره ..

وهناك مثال آخر لأمنية بعيدة المنال ، وأعتقد انها قد خطرت على بالك يوماً ما ، هل تتذكر انك رأيت منزلاً كبيراً يقف منتصباً أمام نهر أو بحيرة ، ألم تتمنى في خلدك ان تملك مثله يوماً ما ، ولو بعد حين ، أظن ان الجميع سوف يطلق آهات عندما يرى هذا المنزل ، تحسراً وأمانى .. لكن تخيل لو انك امتلكت مثل هذا المنزل وسكنت فيه وزوجتك وأولادك ، وكل يوم تتناول فطورك على الشرفة تحيطك النباتات في أوعيتها ، والتي تعتني بها انت وزوجتك ، وانت تراقب

الأمواج والطيور وأصواتها ، والزوارق ، وعندما تعود من العمل تضع كرسيّاً وتحتسي الشاي والكعك والمكسرات ، وتُنهى أعمالك الهاتفية وأنت تراقب الغروب وانعكاس قرص الشمس على الأمواج ، والأولاد يتقافزون إلى الماء كالضفادع ، ثم ان طفلك الصغير أو ولدك المراهق أو الكبير ، أيا كان منهم نظر من الشرفة الجميلة فرأى الأولاد والشباب يسبحون ويلعبون ، لم يستطع مقاومة رغبته وسط كل هذه المغريات ، الماء يحثه ليلعب والأولاد يدفعونه للمشاركة وتحدي القفز ، والرجل الصغير لا يمكنه رفض التحدي وقبول العار ، والحُرّ يلهب جسده ويغويه للبلل ..

المغريات كثيرة ، وبالنسبة لأولادك فان تحقيقها سهل وميسر.. لقد أعجبتك الفكرة وأغوته التجربة ، فذهب للسباحة في النهر ، وكرر الذهاب هناك واللعب والسباحة والقفز من الدرجات الحجرية إلى الماء.. ذهب مراراً وتكراراً بعلمك أو بدونه ، ثم غرق .. وها قد خسرت أحد أولادك واختفى من حياتك ، بعد كل تضحياتك وجهدك وعطائك ليكبر ويصير إلى ما وصل إليه ، أو ربما فقدت شخصين من عائلتك دُفعةً واحدة .. هل تعتقد ان منازل الدنيا كلها تستطيع ان تُعيده لك ؟ عندما تنظر للنهر والأمواج والطيور بعد سنة من الحادث ، هل تشعر بالنشوة والانشراح والابتسامة ؟ وهل تفتخر بموقع دارك ؟ وهل تستطيع بعد هذه الفاجعة النظر من شرفتك تجاه النهر حتى لو كنت واقفاً تصلح شيئاً أو مررت مرور الكرام ؟..

مثال آخر ، رجل متوسط الحال اشترى مدفأة جديدة وآخر غني اشترى مثلها ، أدخلها الفقير للبيت فاجتمع حولها أفراد عائلته فرحين وكأنها فرد جديد ، أحدهم يجرب تشغيلها والآخر يضغط أزرارها ، والزوجة فرحة وقد ملأ عينها هذا الزوج الكادح صاحب المسؤولية . . . أما الغني ، دلف بها للبيت فلم يشكره أحد ، ولم ينتبه له أولاده أو يساعدونه في إدخالها .. ثم دخل ابنه الكبير يُمسك مفتاح سيارته يُلْقِه بيده يمناً ويسرة ، فلما رآها قال له: ان هذه المدفأة من النوع الرديء وتلوث هواء البيت ، ينظر لوالده بخليط من التكبر والسخرية ، وكأن والده قليل خبرة في هذه الحياة ، صمت الابن قليلاً ثم قال وهو يغادر الصالة: لو أخبرتني لاخترت لك غيرها . . . فليس كل ما يتمنى الفرد هو خيرٌ له وأنفع . . . وتذكر ان التُّخمة أشدُّ ضرراً من الجوع ..

مهما كنت ، قليلاً أو جليلاً ، صغيراً أو شريفاً ، فإنك تحتاج إلى تغيير نظرتك وطريقة تعاملك مع الأمور ، لينقلب الحال ، ويتبدل مسار هذه الأمور لصالحك ، وكما تحب يا مُكَدِّر البال .. الجميع يعلم هذه الحكمة ولا أحد يطبقها إلا القلة القليلة ، النادرة، يعلمون انك إذا أتعبت نفسك قليلاً بطريقة ذكية ستربح أضعاف مضاعفة من أشياء يُصعب الحصول عليها إلا بجهد كبير ، وربما لن تحصل عليها حتى بالجهد الكبير هذا ، ومنها وعلى رأسها هو الدعاء وذكر الله سبحانه ، فربما تربح الجنة حيث الأنهار والقصور والخدم والخور بهذه الكلمات السهلة الطيبة ..

وقد قال رسول الله ﷺ: ان الله حيُّ كريمٌ يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه ان يردهما صفراً خائبين . . . اطلب من الرب الغني القوي الرحيم ، ولا تطلب من المخلوق الفقير الضعيف المحتاج .. نفس الكلمات التي تقولها بتذل ومسكنة لصديقك ، أو لأقربائك ، وتشتهي لهم عسر حالك ، وتلتمس منهم المساعدة .. نفس هذه الكلمات أخبر بها من بيده رزقك وحفظك وتوفيقك .. قل يا رب أنا جوعان ، ابني مريض ، ثلاثتي فارغة ، احتاج عمل ، وقعت في مصيبة ، أنا خائف ، أولادي لا يطيعونني ، احسن تربيتهم لي ، اموري عسيرة .. راتبي لا يكفيني . . . وتأكد أنها لن تُردَّ صفراً خائبين ..

وقال رجل من الصالحين: إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم ، لم يَرَوْا عملاً أفضل ثواباً من الذكر ، فيتحسر عند ذلك أقوامٌ فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا من الذكر . . . وكذلك الاستغفار الذي يجلب لك كنوز الأرض بلا عناء ، كما قال سبحانه وتعالى ((فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)) ، ومنها أيضاً الدراسة والحصول على شهادة سامية وصناعة النفس وإيصالها لأعلى المقامات ..

حتى في صالة الرياضة سوف يُخبرك المدرب ان تغيير طفيف في وضعية التمرين والتركيز على العضلة المستهدفة يجعلها تنمو وتقوى . . .

وذلك القاضي الحاذق الفطن ، وقد تحاكم إليه أخوين في أرضٍ لهما ، فقال: ليقوم أحكما بالقسمة وليختار الثاني أيهما يريد..

إن هذه كلها أفكارٌ استثنائية ، يعتمد عليها أشخاص استثنائيين لعيش حياة استثنائية .. فلا يمكن للحياة ان تمضي رتيبةً بلا مصاعب واضطراب ، لكنها تحتاج إلى عقل يعرف الطريقة الصائبة لاستخدام الحل الصائب .. إنها باختصار طريقة الأذكاء لتخطي العقبات في هذه الحياة .. هناك حكمة تقول: سيصل الرجل الأعرج الذي يحمل فانوساً إلى هدفه أسرع من الفارس الذي يتجول في الظلام ..

وهذه قصة من التراث القديم تحاكي استخدام العقل لتتال أفضل النتائج بأسهل الطرق .. يُحكى ان غراباً كان له وكرٌ في شجرةٍ على جبل ، وكان قريباً منه جحر ثعبان أسود ، فكان الغراب كلما كبرت فراخه جاء الثعبان إلى فراخه وأكلها ، فصعب البلاء على الغراب وأحزنه ، فشكا حاله إلى صديق له من بنات أوى وقال له: أريد مشاورتك في أمر قد عزمت عليه .. قال ابن أوى : وما هو ؟ ..

قال الغراب: قد عزمت أن أذهب إلى الثعبان إذا نام فأنقر عينيه فأفققهما لعلني أستريح منه .. قال ابن أوى: بنس الحيلة التي احتلت ، فالتمس أمراً تُصيب فيه مُرادك من الثعبان من غير ان تُغرّر بنفسك وتخطر بها ، وإياك ان يكون مثلك مثلُ العلجوم الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه .. قال الغراب: وكيف كان ذلك ؟ ..

قال ابن آوى: يُحكى ان علجوماً عاش في بركة كثيرة السمك فكان ينتقي أزكى ما فيها من السمك فيأكل منه ، فعاش بها ما عاش ، ثم هرم فلم يستطع صيداً ، فأصابه جوع وجهد شديد فجلس حزيناً يلتمس الحيلة في أمره ، فمرَّ به سرطان فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن ، فدنا منه وقال له: ما لي أراك هكذا حزيناً كئيباً ؟ .. قال العلجوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما يوجد هنا من السمك ، وإنني رأيت اليوم صيادين قد مرَّا بهذا المكان فقال أحدهما لصاحبه: ان هنا سمكاً كثيراً أفلا نصيده ؟ .. فقال الآخر:

إنني قد رأيت في مكان كذا سمكاً أكثر من هذا السمك ، فلنبدأ بذلك المكان فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه ، وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هناك أتيا إلى هذه البركة فاصطادا ما فيها ، فهذا هو هلاك مُدَّتِي ونفاد طُعْمَتِي ، فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهنَّ بذلك ..

فأقْبَلَن على العلجوم فاستشرنه وقلن له: انا أتيناك لتشير علينا فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه ، وبقاؤك ببقائنا .. قال العلجوم: أمَّا مكابرة الصيادين فلا طاقة لي بها ، ولا أعلم حيلة إلا المصير إلى غدير قريب من هنا فيه سمك ومياه كثيرة وقصب ، فإن استطعتن الانتقال إليه كان فيه صلاحكن وخصبكن .. فقلن له: ما يمنُّ علينا بذلك غيرك . . . فجعل العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتى ينتهي بهما إلى بعض التلال ، حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين فجاءه

السرطان فقال له: اني أيضاً قد أشفقت من مكاني هذا واستوحشت منه، فاذهب بي إلى ذلك الغدير ، فقال له: حباً وكرامة ، واحتمله وطار به..

حتى إذا دنا من التلّ الذي كان يأتي إليه كل يوم ، نظر السرطان فرأى عظام السمك مُكدّسة هناك فعلم ان العلجوم هو صاحبها ، وأنه يريد أن يأكله مثل ما فعل مع السمك ، فقال السرطان في نفسه: إذا لقيَ الرجل عدوّه في المواطن التي يعلم فيها انه هالك سواء قاتل أم لم يقاتل ، كان حقاً عليه ان يقاتل كرامةً وحفظاً لنفسه، ولا يمكّن عدوه من نفسه حتى يستفرغ ما عنده من الحيلة في قتاله ، لأنه قد أيقن الموت ، فلعل خلاصه في ذلك القتال ، والهلاك واقع به على كل حال ، فلم يزل يحتال على العلجوم حتى تمكّن من عنقه ، فأهوى بكلبتيه على عنق العلجوم فعصرها فمات ، وذهب السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهنّ بذلك ..

وأكمل ابن أوى قائلاً : وأنا إنما ضربت لك هذا المثل لتعلم ان بعض الحيلة مهلكة للمحتال ، ولكني أدلّك على أمر ان انت قدرت عليه كان فيه هلاك الثعبان من غير ان تهلك به نفسك ، وتكون فيه سلامتك .. قال الغراب وما ذاك؟ .. قال ابن أوى: تنطلق فتتبصّر في طيرانك لعلك ان تظفر بشيء من حُلِي النساء فتخطفه ، ولا تزال طائراً بحيث لا تختفي عن عيون الناس حتى تأتي جحر الثعبان فترمي بالحُلِي عنده ، فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حُلِيّهم و أراحوك من الثعبان..

فانطلق الغراب محلقاً في السماء فوجد بنت من بنات العظماء
فوق سطح تغتسل ، وقد وضعت ثيابها وحُلِيَّها جانباً ، فانقضَّ عليه
واختطف من حُلِيَّها عقداً وطار به ، فتبعه الناس ، ولم يزل طائراً
بحيث يراه كل أحد حتى انتهى إلى جحر الثعبان ، فألقى العقد عليه
والناس ينظرون إليه ، فلما وصلوا إلى الجحر شاهدوا الثعبان فقتلوه
وأخذوا العقد ..

التدبير نصف العيش ..

التدبير نصف العيش ..

اليد التي أهدت ورداً ..

" للسعداء علامتان كثرة الإحسان وسرعة النسيان ، ومن غاص
في النوايا غرق في الخطايا "

منذ ان قرأت هذه الكلمة قبل سنين ولم تُفارق ذهني إلى اليوم،
أخبر بها أولادي وأصدقائي وكثير من زملاء العمل ..
هل سألت نفسك يوماً ! .. عندما تساعد فقير في الشارع، لماذا يهدأ
قلبك وتشعر انك اليوم احسن حالا وأكثر سعادةً وأطيب قلباً وأفضل
حالاً ؟ .. لماذا فرحتك أكبر من فرحته ؟ .. ولماذا تزداد غبطة
وسروراً ؟ .. أليس المفروض انه يفرح أكثر لأنه حصل على رزق
يكفيه وعائلته ؟ ..

عندما تُحسن وتهدي لجارك شيئاً بسيطاً لماذا تطمئن وتشعر
أنك تُحبّه وتغمرك الراحة .. عندما تعانق طفلاً وتُقبّله فإن الطفل يبتسم
بلا شك ، لكن أنت من يفرح أكثر وتشعر بالأمان والسكينة ، وربما
أحسست وكأنك تريد ان تغفو في حضنه ، بل في الحقيقة أنت من كان
مُحتاج لهذا الحضن . . . ألا تتذكّر تلك اللحظة التي صنعت فيها
الطفرة لطفلتك الصغيرة ، ثم كانت هذه الذكرى أغلى عندك من
كنوز الدنيا ، لا بد ان هنالك سر ! ..

في المواصلات العامة تنهض ليجلس غيرك ، تفخر بنفسك وترى حالك أجمل وأكرم وأطف ، وبعد لحظات من هذا الفعل البسيط النافع يصعد شخص آخر ويقول السلام عليكم ، فتزد السلام بصوت أعلى وأوضح ، تشعر بزهو وحماس ، تشعر بحب الحياة والناس والرغبة لفعل الخير ، وبالطبع تحب نفسك وتشعر ان حالتك المزاجية اليوم أكثر إشراقاً ، وتتمنى ان تصنع معروفاً مرة أخرى وأخرى ..

عندما تفعل الخير تشعر ان كل ما في هذه الحياة من أشياء جميلة مغرية ، تبتسم لك عن حلاوتها ، وأن النسيم ينقل إليك رائحة الامتنان وأثير دعوات الناس من حولك ، جزاء معروفك وسخاءك وإحسانك لهم ..

وكذلك وكما هو متعارف بين الناس ان أفضل طريقة للفهم والحفظ وإتقان المادة الدراسية ، هي تلقين وشرح هذه المادة للآخرين، ولا شيء أثبت للخير من تعليمه ونشره للغير ..

ودائماً نسأل أنفسنا ، لماذا هذا الشخص ظريف ومحبوب ومرغوب به ، ولا يجلس مع مجموعة من الناس إلا وأحْبُوهُ واستأنسوا بقربه ، ولا يفارقهم إلا وقد ترك أجمل انطباع في النفوس ، ولماذا مهما حاول غيره أن يُقلِّده ويصبح مثله لم يستطع ، بلا شك انه الإحسان والعطاء عن طيب القلب ..

صاحبي يا من تُمسك كتابي بين يديك المبدعتين ، وتتطلع إليه
بوجهك الطري الناعم المُشرق ، وعينيك الثابتة ، تُقَلِّب أسطري
الخبولة ، يا رفيق الدرب ، يا نقيَّ القلب والروح والابتسامة ، يا
صاحب الوفاء وأعز الأصدقاء .. سامح وأحسن ، صالح وأكرم ، وكن
طيباً حتى مع من آذاك ، وسترى ان هناك أعباء غليظة خشنة زالت
عن قلبك ، و تشكلت بدلاً منها فرحة وبشاشة لتسمو على ملامحك ،
لو أنفقت مئات أضعاف ما أهديت وأحسننت فلن تحصل على هذا
الانشراح والارتياح ..

وخلاف هذا وضده ، من يواظب ويكرّر لوم نفسه كل لحظة
وكل ساعة ، ويتذكر موقفه مع زميله الموظف أو صديقه ، أو عميل
شارد الذهن جاء إلى مكان عمله ، لماذا لم أرّد عليه ؟ لماذا لم أنتقم ؟
لماذا ولماذا ولماذا ، هو لم ينسى ولن ينسى ولا يريد ان ينسى أبداً ..
فإنه بالتأكيد يزداد حزناً بعد حزن ، وألماً فوق ألم ..

ثق بي أيها الحبيب انك عندما تحقد فانت من يتألم أكثر
وخسارتك أكبر ، حتى لو حصلت على انتقام يُرضي كبريائك ويُطفئ
النار التي تغلي وتتأجج داخلك ، فإنك ستربح في لحظة تهور طائشة
عابرة ، أما ألم الحقد والغضب والإسراف في التفكير ، فإنه يدوم كل
العمر .. تُلازمك وحشة ونفور وينقبض صدرك من رؤية البشر ، ثم
أضيف إلى هذا الألم انك سوف تعتاد الانتقام ورد الصّاع بالصّاع حتى
مع أقرب الناس إليك ..

كن طيباً كريماً حلماً عفواً ولا تهتم للصنف السيء من الناس، ولا تسمح لطبعهم الخبيث الرديء أن يتغلب على طبعك الحلو المستطاب ، وكن مطمئن بأن الله سيجازيك بما هو أئمن وأنفع ، كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، قال: بينما رجلٌ بفلاةٍ إذ سمعَ رعداً في سحابٍ ، فسمعَ فيه كلاماً : اسقِ حديقَةَ فلان "باسمه" فجاءَ ذلكَ السحابُ إلى حرّةٍ فأفرغَ ما فيه من الماءِ ، ثم جاء إلى أذنانِ شرجٍ فانتَهى إلى شرجةٍ ، فاستوعبتِ الماءَ ، ومشي الرجلُ مع السحابةِ حتى انتهى إلى رجلٍ قائمٍ في حديقَةٍ له يسقيها فقال : يا عبدالله ما اسمُكَ ؟ قال : ولم تسألُ ؟ قال : اني سمعتُ في سحابٍ هذا ماؤه : اسقِ حديقَةَ فلان ، باسمك ، فما تصنعُ فيها إذا صرمتها ؟ قال : أما ان قلتَ ذلكَ فإني أجعلها على ثلاثةِ أثلاثٍ ، أجعلُ ثلثاً لي ولأهلي، وأردّ ثلثاً فيها ، وأجعلُ ثلثاً للمساكينِ والسائلينَ وابنِ السبيلِ ..

وكيف لا يُجازَى فعل الخير بأضعافٍ من الاحسان والخير وقد قال رسول الله ﷺ: ما نقص مال من صدقة ..

أيها الاخ السمع النبيل ، تذكر هذه الكلمات دائماً ،

للسعداء علامتان ، كثرة الإحسان وسرعة النسيان ..

ولابد هنا من إثبات عملي حسابي بسيط ، بسيط جداً لهذا القول .. لنفرض أنك أكملت الدراسة وحصلت على شهادة بكالوريوس في إحدى تخصصات الطب أو الهندسة أو ادارة الأعمال ، وحصلت على هدايا ومغلفات تحتوي مبلغ من المال من الأصدقاء والأقارب

والأهل - كما هو متعارف في بلداننا - وكما قال رسول الله ﷺ :
تَهَادَوْا تَحَابُّوا . . . وجمعت مبلغ كبير من المال .. ثم أجريت عملية
جراحية في يوم من الأيام ، ومرة ثانية جاءك الأقارب والأهل وزملاء
الوظيفة ، وكل منهم دفع ظرفاً في يدك وجيبك أو وضعه على طيلة
الشاي والحلويات ، مُغلف يحتوي مبلغاً من المال .. ثم رُزقت بطفل
ومرة أخرى تدفقت الهدايا والأموال إليك .. ثم ذهبت لحج بيت الله
الحرام ، ثم رُزقت بطفل آخر ، ثم ارتقيت في السلم الوظيفي إلى
منصب المدير أو نائبه ، وفي كل مرة يتكرر مشهد الأموال والهدايا ..
الآن ، لو أحضرت ورقةً وقلماً وكتبت كل مناسبة ويقابلها ما حصلت
عليه من المال ، وجمعت المبلغ الكلي لهذه الهدايا ، لوجدت أن المبلغ
ضخم جداً ، ولو أنك بالمقابل زُرت كل شخص من هؤلاء الأصدقاء
والأقارب والجيران ، وكررت زيارتهم في كل من مناسباتهم وأفراحهم
وأتراحهم ، وأهديت لكل واحد منهم نفس المبلغ الذي أعطاك إياه أو
أكثر ، لما كُفِّكَ ذلك إلا رُبْع ما حصلت عليه أو العُشْر ، ويمكنك أن
تُحضر ورقةً وقلماً ، والتأكد بنفسك الآن ..

لذلك ، يا قُرَّةَ العين وأغلى الأصدقاء ، تذكر ولا تنسى ، كُثرة
الإحسان وسرعة النسيان ..

ويبقى العطر في يدٍ أهدت ورداً ..

زوجة سعيدة حياة سعيدة

زوجة سعيدة حياة سعيدة

ودّع كل أحلامك ..

الأحلام كثيرة ومتنوعة ، لكل منا أحلام مختلفة وفريدة ، وشغف وتطلعات ، ورغبات لم تتحقق ، وكل إنسان يمتلك حلم يناسب توجهاته وميوله وطموحه ، سواء كانت هذه الأحلام تعود بالنفع عليه ، أو لمنفعة غيره ، مثل أحلام شخص ينوي العطاء ومساعدة المخلوقات على تنوعهم ، وكل هذه الأحلام والرغبات لن تتم إلا بعد التمكن والاستطاعة من تحقيقها .. وهذا لن يكون إلا بالقوة ، قوة الجسد والشجاعة والجرأة للحصول عليها والدفاع عنها ، أو قوة البديهة وعدم التردد لاستعمالها قبل ان تختفي أو يسرقها غيرنا ، أو نحتاج القوة للتخلص مما يمنعها ويعيقها ..

لن أُحَدِّثُكَ في هذا المقال عن المواقف التي نحتاج فيها إلى القوة اللازمة لشجار في الشارع وحماية أنفسنا والذود عنها ، أو القوة لقيادة جيش والدخول في حرب أو تحرير وطن ، أو الدفاع الشخصي عن البيت والمال .. لن أُحَدِّثُكَ عن جيوش المسلمين وجبروتها وجراتها في زمن الخلفاء الراشدين ، وأنه قد بلغ من إتقان الصحابة رضوان الله عليهم للرمي بالنبل انهم في إحدى معاركهم مع الفرس ركزوا الرماية على عيون الأعداء ، فقلعوا ألف عين فسميت المعركة بذات العيون ..

ولا أَحَدٌكَ عن الصحابي الذي قَتَلَ أسداً أَحضره الفرس معهم وأطلقوه ليرهبوا به المسلمين ، أسدٌ ضخم شرس مدرب على القتال ونهش الرجال وتقطيعهم ، فخرج له هذا البطل وتصارع مع الأسد حتى تمكن من إصابته بعدة طعنات وأرداه قتيلاً ، حينها كَبُرَ المسلمون تكبيرة زلزلت جيوش الفرس .. ولا أَحكي لك عن صديقي "عماد" الذي تشاجر مع أربعة رجال فضربهم وأخذ يجري ورائهم في السوق وهم يهربون .. وإنما سأخبرك عن شيء بسيط ، وهو الرغبة لأبداء المساعدة ، مساعدة من يحتاج لها .. سأخبرك بحادثتين كل منهما يوضح لك ويبيّن أقل وأصغر موقف تحتاج فيه إلى القوة ، وهو مساعدة الناس ، والمفروض انه عمل تُشكر عليه وتفعله وأنت متفضل، لكن حتى هذه الخدمة إذا لم تكن قوياً لن تستطيع تقديمها ولن تستطيع حتى ان تذلل نفسك لأدائها ، لأنك سوف ترتبك ويتصلّب جسدك وتفكر في تبعات وتداعيات خطوتك القادمة ، ويصيبك البرود والخوف والخذلان في وقت أنت في أَمَسِّ الحاجة لأجزاء من الثانية لتتخذ الموقف ..

الحادثة الأولى .. في سوق الكاظمية الشعبي في بغداد وداخل أفرع محلات "باب الدروازة" المُسقّف ، تلك المحلات المتلاصقة بطيش واستهتار ، حيث خنقة الزحام ، وأصوات البائعين ، وضيق الممرات بين بسطة وأخرى .. انفجرت صرخة مريضة طويلة حادة جعلت قلوب المتبضعين في السوق تتوقف عن الخفقان ، صرخة من أعماق الألم والمعدة ، حتى لو صوبت بندقية إلى رأسها لم يكن هناك

داعي لإنهاك الحبال الصوتية بمثل هذه الصرخة ، ولا يوجد شيء في بغداد أو العراق كله طويلاً وعرضاً يدفعك لمثل هذه الصرخة الحزينة.. خليط من بكاء واستغاثة وغضب وخوف ، جعلت الناس يتصلّبون .. لا حركة ولا إنقاذ ولا تدارك للموقف ، رجاءً ليس الآن أيها الخلق ، لم يكن هذا الوقت المناسب لهذا الجمود والخذلان .. إلا رجلٌ واحد بوجه جاف صلب وشارب كث ، يلبس الزيّ العربي عقال وشماغ ودشداشة بيضاء ، والعباءة الرجالية السوداء ، رجلٌ متوسط الحجم والطول والشيب ، ربما كان في عقده الخامس .. اندفع نحوها مسرعاً حتى قبل أن يعرف السبب ، يُزيح الرجال من أمامه ليشق طريقه نحو المرأة العارية ، انتفض من هدوئه وسرحته ، أراد سترها وتغطيتها بأسرع ما يستطيع ، وكان أمرها يهمه ، فهذا ما تربى عليه في مدينته ، وهذه قيمة زيّه وهيئته .. لم يردعه شيء تداركاً لبشاعة المصيبة التي ستقع كما يراها من منظور عرفه وتقاليده ، تاركاً شيبته ووقاره وآلامه... لم ينطق بحرف أو يصرخ أو يثير انتباه أحد ، حدث كل هذا بلحظة ، حتى قبل أن يتمكن من رأى المرأة من التمعن ، أو تصديق ما رأى .. وبلمح البصر نزع عباءته ولقّها على جسد المرأة الكدرة ، لتغدو كشرنقة فراشة تتلوى ، وحملها ودلف بها داخل أحد المحلات .. كان هذا الرجل قد نسي للحظة كل ما حوله من بشر وعيون تنظر بتجاهل وعدم اكتراث .. لكن هذه اللحظة كانت كافية لإنقاذ البشرية من لحظات التردد في مواقف الحاجة للشجاعة ، كانت لحظة كافية لإنقاذ قلب فتاة من الانكماش حتى التوقف ، وإنقاذ سمعة عائلة من الضياع خجلاً ..

الحادثة الثانية .. كان زميلي موظف في دائرة حكومية وهو أيضاً سائق باص لنقل المسافرين بعد انتهاء العمل الوظيفي ، تحدّث مرةً عن موقف حصل معه في مستشفى "اليرموك" عندما كان مع ابنه في إحدى ردهات الطوارئ ، ينظر بصبر لكيس محلول التغذية الوريدي ، أملاً في انتهاء محتوياته وأخذ ابنه والخروج هرباً من أنين المرضى ، ورداءة الردهات ، ومكياج الطبيبات المُزوَّق ، المكياج المشتق من الأحمر ومشتقاته وفراخه ... صديقي هذا رجل في الأربعين من العمر ، أسمر ، مع تصبغات جلدية سوداء على بشرته من أثر قيادة السيارة تحت شمسنا الحارقة ، وبينما هو جالس يحاول الانشغال وتجاهل كل ما يوجد حوله ، دخل عدّة رجال يدفعون شاب ممدد على سرير ذو عجلات ، وبالكاد يتنفس ، ومن بينهم كان والد المريض يشهق ويبكي ويتوسل الربّ ان ينجي فلذة كبده ويعود به للمنزل سالمًا ، وبينما هم على هذا الحال من أصوات البكاء والصياح وبعض الأشخاص ممن حضر معه يحاول المساعدة ، ويجرب أي معلومة طبية يخبأها في ذاكرته علّها تنجح ..

حضر طبيب لّين ، يتحدث كأنه فتاة هندية تغني ، وهو يحرك يده برخو قريباً من عنقه ، حياة الشاب وساعاته في هذه الدنيا على وشك النفاد بينما الطبيب يولول ويدندن بكلمات كأنه قطّة تموء .. وفي الأخير وبعد مدة من الزمن ليست باليسيرة وخاصة على أقرباء المريض ، فهموا من الطبيب انه يخبرهم ان خزان الأوكسجين فارغ..

لم يتمالك صاحبي المنظر فقفز من كرسيه وركض إلى خزان
أوكسجين آخر وسحبه قرب السرير واستبدله بالخزان الفارغ ، وربط
قناع التنفس ووضعه على وجه المريض ، هذا بالطبع بعد ان وَبَّخَ
الطبيب المُدَلِّل ورفع صوته عليه ، والذي يبدو انه تألم بقسوة من
خشونة وفضاظة صاحبي .. تنفس الشاب المريض وفتح عينيه كسحلية
أفاقت بعد إغماءة ، مما زاد بكاء الأب أكثر وانكبَّ على الرجل يقبله
ويشكره على موقفه الشجاع ، وأنه كان سبباً ليحيا الابن مرة أخرى
ويعذب أباه ويتمرد عليه ، ويُتعب قلبه إلى ما شاء الله ..

ذهب الطبيب يولول شاكياً واستدعى حرس المستشفى ،
حضرُوا بعد مدة طويلة بالتأكيد ، فقد استغرقوا الكثير من الوقت لفهم
اللولولة والمواء .. لكن صاحبنا يحمل سلاحاً وهوية يُعتمد عليها ..

السؤال هنا .. كم واحد مثلاً رأى شخصاً يغرق أمامه ، أو يُظلم
أو يُسرق ، ثم تصلَّب خوفاً ولم يساعده ، كان حلمه أن يساعده ، كان
ينوي أن يمدَّ يد العون لكنه يخاف من التبعات ، رغبة بسيطة لكنه لا
يستطيع ان ينجزها ، لماذا ؟ لأنه لا يملك القوة الكافية لتحقيقها .. أما
الرغبات والأحلام الخاصة والتي تتعدى مساعدة الغير ، يمكنك ان
تقرّر بنفسك كم تحتاج من قوة لإنجازها ..

يا رفيقي صدقني ، إذا لم تكن قوياً ودّع كل أحلامك ، الأحلام المعنوية ، والأحلام المالية ، وأحلام اليقظة ، والمغامرات المفعمة بالأمال ، وأحلام النجاح .. كل هذه الأحلام تحتاج إلى القوة ، أو ، عليك نسيانها ، يجب ان تكون قوياً في كل شيء ، قلبٌ قوي لدخول عالم المال والاستثمار والقفز للفرص بلا خوف ، ومواجهة المنافسين الحاقدين والتخلص من ضررهم ، قوياً في دينك لتدافع عنه وتربي عائلتك ، قوياً لترفع رأس أبيك ، وتفتخر بك والدتك ، ويشمخ بك أولادك ، قوياً لتنصر فقيراً يتعرض للظلم ، وتنقذ ضعيفاً التفتّ حوله مجموعة من الشباب ليضربوه ، قوياً في بدنك لتحدد خطوطك الحمراء ، فلن يُعطيك أحد حقك وإنما عليك أخذه بقوة .. وتذكر يا صديقي الغالي ان هناك فرق ، فرقٌ كبير ، بين الشخص الطيب والشخص المُستباح ..

حتى عندما تُخطئ أثناء النقاش وتنفّوه بكلمة سيئة بلا قصد منك ، فلن ينتبه لها المستمع إذا لم تعتذر وتقول عفواً لم أقصد هذا ، أما إن واصلت الكلام وكأن شيئاً لم يحدث ، فلن يهتم أحد أو يعيب عليك ، الناس يحبون الوثائق من نفسه .. وأنا عن نفسي يُعجبني ذلك الشخص الذي حتى وإن كان مخطئاً سيقول: هذا أنا ، وهذه حالي ، والحياة فيها الفاجر والفاخر ، والشقي والتقي ، من أرادني فليأخذني وحالي ، ومن لم يُعجبه أمري فليتركني لنفسي . . . ومن يطلب بخجل يساعد على الرفض ..

إذا لم تكن قوياً لن تهناً حتى بالطعام الذي تطلبه في المطعم ،
إن كان طعمه مقرف أو كان قليل الملح ، إن كان بارد أو محترق ،
حتى أنك ستفكر قليلاً باحثاً عن كلمة مناسبة قبل أن تنطقها ، ثم تجد
الكلمة وتهمس ، لكن الأحرف تتعثر داخل فمك الجاف ، وكأن أحدهم
يضغط بسبابته على حنجرتك ، وكل هذا لتطلب من صاحب المطعم
أو النادل أن يستبدله ، أو تطلب منه اعطائك علبة البهارات . . .
فحتى لو كان جيبك فارغاً ، احرص على أن تبقى قبعتك منتصبة ..

إذا لم تكن قوياً لن تهناً حتى بدخولك دورة المياه ، فأنت تجلس
لتفرغ همومك ، ثم تخاف أن يخرج لك شيئاً من هذه الفتحة اللعينة ،
جرذ أو أفعى ، أو حيواناً من عالم الكوابيس والشيطان ..

منذ زمان بعيد وإلى اليوم ، وعبر كل هذه القرون والناس
تحب القوي وتُبجله ، وتُقَلِّده في لباسه وحكمته وقوانينه ، ويحاولون
التعرف عليه وعلى حضارته وآثاره ، وعندما تنظر لكل من حولك
من أصدقاء أو مجاميع أو قبائل أو حتى على مستوى الدول ، تراهم
دائماً يُحِبُّون القوي ويقدِّرونه ويحترمونه ، فهذه غريزة لدى الإنسان ،
يُطيع القوي ويستحق الضعيف . . . فترى الضعيف المغلوب مولع
دائماً بالاقتداء بالقوي الغالب ، يُقلِّده في شعاره وزِيَّه ، وكل أحواله
وعاداته ، والسبب في ذلك أن النفس البشرية تعتقد التمام والفضيلة في
من غلبها ، وتنتظر إليه بالكمال والتعظيم والخلو من العيب ، ولذلك
ترى الشعب المغلوب يتشبَّه دائماً بالدولة التي غلبته وانتصرت عليه ،
يُقلِّدها في الملبس والمركب والاسلحة ، ويتشبَّه بها في سائر أحواله ..

ويتشبه بها حتى في طريقة بناء المصانع وتأثيث البيوت ، وفي الرسم وكتابة الشعارات على الجدران ، وفي حلاقة شعر الرأس وشكل الذقن وملامح الوجه ، وفصال الملابس وألوانها ، وما كل هذا إلا لاعتقاد الكمال فيهم .. وأقرب مثال لهذا ، أنظر لحال الابناء كيف يقتدون بأبائهم ، والشعب يقلد الملك وعائلته ، ويتشبهون بهم في كل حال ..

سوف تُسأل عند المشيب ، ماذا تعلمت من حياتك ؟ وماذا توصي أحفادك ؟ .. ستقول لهم: إذا لم تكن قوياً ودّع كل أحلامك ، فالعمر مرة لا تتكرر ، وحياتك مفردة فريدة ، لماذا تضيعها بالذل والتنازل .. ستمر بك الأيام وأنت بين الخوف والقلق ، ولا فرق بين البارحة ، أو اليوم ، أو الغد ، تخاف العمل وتخاف الطلب وتخاف الدفاع .. حتى تصحو يوماً على خطى نعل المُشيّعين لجثمانك ، ثم تسمع دعائهم لك وهم يقولون فيه:

اللهم إنه كان رجلاً عزيزاً في قومه ، قوياً في عزمه ، فقدنا رماً في خاصرة المعتدين ، وحارساً لكل ما هو ثمين ، كنا ننام بوجوده مطمئنين ، مكانه بيننا ثلّة لا تلتحم ، وجرح لا يلتئم ، شهيد الزعامة ، وفقيد الكرامة .. وأنت أكثر من يعلم ان هذا كذبٌ لا بد منه في هذا المقام المليء بالمدح والتملق والغبار ..

فإذا لم تكن قوياً ودّع كل أحلامك ..

أما كيف تصبح قوي ؟ .. لا تسأل ، كل الدنيا تعرف الطريق
إلى اكتساب القوة ، فكيف تجهله أنت .. لو سألت طفل أو رجل أو
امرأة ، أو بحثت على الانترنت بكل مواقعه ، سيخبرونك كيف تصبح
قوي بكل بساطة ، لذا لا أعتقد أنك الوحيد في هذا العالم الذي لا يعرف
كيف يصبح قوياً . . .

نصيحة أخيرة ، كُن شخصاً طيباً ، لكن ،
لا تجعل أحد يعلم بذلك ..

لن يعذب المرأة أحد ، بقدر ما يفعل
الزوج الجبان ..

لن يعذب المرأة أحد ، بقدر ما يفعل
الزوج الجبان ..

الجنابة ..

هذه القصة مشهورة جداً ويعاد نشرها بكثرة على الإنترنت ،
ولا أعتقد انه بقيَ شخص لم يقرأها يوماً أو على الأقل مرَّ عليها مرور
الكرام .. والقصة تبدأ بجملة "شكراً سارة" لكن اريدكم أولاً ان تتعرفوا
معي على سارة .. منذ خمسة سنوات قابلت فتاة جميلة اسمها سارة
لغرض الزواج على الطريقة التقليدية .. كنت أعتقد ان رجل ميمون
السمعة يزاول مهنة طبيب كفيلة ان تربحني تلك الصفقة ، لكن سارة
لديها أولويات أخرى ، بدأت تسألني : هل لك هوايات ؟ ..

- لا
- هل تشاهد الأفلام ؟
- لا
- هل تسافر ؟
- لا
- هل تقرأ ؟
- لا
- هل صعدت جبل ؟
- لا
- ماذا تفعل في وقت الفراغ إذا ؟
- لا أملك وقت فراغ ! ..

سكنت سارة لبرهة ثم قالت: انت إنسان عادي ، سأكون مهتمة أكثر لو كنت غير عادي . . . دَوَّت تلك الكلمات المتعجرفة كالصاعقة على رأسي ، خمسة عشر عاماً قضيتها وسط أكوام من الكتب الطبية المتخمة بالطلاسم ، وفي النهاية حصل على لقب عادي !.. عُدت للمنزل وأذكر اني لم أنم ليلتها ..

بعدها بأيام حجزت طائرة إلى أوروبا وتنقلت بين عدة دول ، وبعد عودتي نويت الاتصال بها ، لكنني قلت في نفسي هذا لا يكفي لأصبح إنسان غير عادي ، لابد ان أقرأ .. اعتزلت البيت وقرأت العشرات من الروايات وكتب الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، بعد ان انتهيت من الكتب قلت مجدداً هذا لا يكفي ، أمضيت شهراً كاملاً في مشاهدة الأفلام الأكثر شهرة ، وعندما انتهيت قلت هذا لا يكفي .. تعلمت ركوب الخيل والرسم والسباحة وبعض التمارين عن فنون القتال ومارست العديد من الهوايات الخطرة ، وعندما انتهيت قلت هذا لا يكفي أيضاً ، بقي ان أصعد لقمة جبل ، وبعد رحلة شاقة لمدة أسبوعين وصلت للقمة..

مددت ذراعي ورفعت رأسي ، شعرت حينها ان هذا يكفي ، لكنني فجأة لم أعد أرغب بالعودة لسارة ، لقد أصبحت إنساناً غير عادي وأصبحت سارة عادية . . . النهاية ..

كثيراً ما نفع في مثل هذا الخطأ وخاصة في المرحلة بين العشرين والأربعين من العمر ، خليط من الطيش والرغبة والقوة ، ولأننا في هذه المرحلة لم نعد أطفال نحبو على سجيتنا ولا كبار نستفاد من خبرتنا ، فتجد الواحد منا إذا تمنى شيئاً يلتصق به ويحوم حوله ويتعب نفسه بلا جدوى ، ثم يفشل ويجرّ ذيل الهزيمة دامعاً ، يعتفّ حظه ..

بينما لو أتعب نفسه قليلاً وأضاف لروحه الطيبة بعض الأشياء التي تنجذب إليها الرغبات والأمنيات وتقرّب إليه الآمال والتطلعات وحشد جيشه من المغريات ، لو فعل هذا بترو وبصيرة لضمان راحة قلبه وروحه ثم حاز واقتنى مراده ومبتغاه ..

فعلى الواحد منا بدل ان يُتعب نفسه في التّصنّع لجذب الآخرين، عليه ان يُتعب لِيصنّع نفسه ومستقبله ، يصنع من نفسه شيئاً مضيئاً ثم يترك كل الأشياء الحلوة اللامعة تنجذب إليه سهواً بلا قصد ولا مشقّة ..

فلا ترهق نفسك و تضيع وقتك بمطاردة فراشة أعجبتك ، اجتهد في إصلاح حديقة بيتك وستتهال عليك أسراب الفراشات بمختلف التشكيلات و الألوان ..

هل تعرف كيف يتعاملون مع الشباب الحاصل على شهادة الدكتوراه في الوظيفة والعمل والجامعات ، هل تعلم كيف يعامل نفسه بينهم وما كل هذا إلا لأنه مهيمن ومتمكن ولا يبالي بهم وليذهبوا هم وعملهم إلى أسوء ما في الجحيم ، رجل سهر الليالي يزين نفسه ويرفعها والآن تلت المؤسسات وشركات بلده تُقَبَّل يده علَّه يرضى ويوافق للعمل معهم ..

وحتى لو كنت غير ذي شأن على الأقل تقمص دور الأفضل وتكَلِّف الازدهار والبراعة والتفوق .. إذا أردت ان يحبك الناس عليك ان تحب نفسك، الناس أسمى غايتها وجلّ أهدافها ينضوي تحت سقف الاتباع والتقليد ، فإذا ارتقيت بنفسك ورفعت قدرك سيبتعك الجميع ويقلدوك ، ويحبوك لما أحببت به نفسك ، قال رجل: التقيت بصاحبي وكنت قد اشتريت تمرّاً رديئاً ، فقال لي: أما علمت ان الله قد نزع من كلّ رديء بركته ..

لا تتصل بشخص أو ترسل له الرسائل وتسال عنه بلهفة ان لم يبادلك نفس الفعل ، ولا تحدّث شخص يجلس بجانبك أكثر من مرة أو مرتين على أكثر وجه ان لم يردّ عليك ، لأن من أراذك لن يتشاغل عنك .. ولا تطلب الاهتمام من شخصك المفضل ، المفروض منك بدل هذا الاستجداء والتضرع ان تصنع نفسك وثيابك ومستقبلك ..

وفي اللحظة التي تعرف فيها قيمة نفسك وتلمس مواطن الجمال داخلك ، وتدرك أنك شخص يستحق الكثير ، وأن فُتات المشاعر لا تليق بك ، وأن الأشخاص الذين يجهلون جوهرك لا يستحقون وجودك في حياتهم ، وتدرك أنك مكسبٌ عظيم لمن ظفر الدخول في حياتك ، وأنت صديقٌ رائع وحبيبٌ عظيم ، وأنه على الرغم من وجود الأفضل منك إلا أنك تمتلك البصمة الأكثر عمقاً ، والتي لا تُنسى ، والتي لن يجدوها عند غيرك . . . عندما تصل لهذا المستوى من تقدير الذات والثقة بالنفس ، ينهال عليك الاهتمام بدون طلب ..

لا تتسوّل الاهتمام أبداً ، اصنع نفسك ومستقبلك وثروتك وستجد الاهتمام يطرق بابك بكامل إرادته ومحتوياته ، ويحمل معه صاحبه ..

وحتى ان اخطأت عن عمد وإرادة ، لن يعاقبك أحد على هذه الذنوب غير نفسك ، وأنت الوحيد الذي تلوم نفسك وتقسو على روحك ويقتلك الخجل ، بينما انت كبير في عيون الناس ولا تدري ، الناس لا يعرفون مساوئك ونسَو عيوبك ولا يفكر بها أحد غيرك ، وكل مشغول بحاله ومحتار بها ، فلولا أنك فهمت هذا في وقت أبكر . . .

اما اذا رأيت نفسك دودة ، فلا تلم من يدوسك ..

كان لدى امرأة مُسِنَّة إناءين تنقل بهما الماء ، مربوطين بعمود خشبي على كتفيها ، وكان أحد الإناءين به شرخ والآخر بحالة حسنة لا ينقص منه شيء ، وفي كل مرة كان الإناء المشروخ يصل من النهر إلى المنزل وبه نصف كمية الماء ، ولمدة سنتين كاملتين كان هذا يحدث مع العجوز لكنها لم تتذمر يوماً ، حيث كانت تصل منزلها بإناء واحد مملوء والثاني للنصف . . . وبالطبع ، كان الإناء السليم مزهواً بعمله ، بينما الإناء المشروخ يحتقر نفسه لعجزه عن إتمام ما هو متوقع منه ..

وفي يوم من الأيام وبعد المرارة والإحساس بالفشل تكلم الإناء المشروخ مع المرأة وقال: أنا خجل جداً من نفسي لأنني عاجز ولدي شرخ يسرب الماء في الطريق للمنزل ..

فابتسمت المرأة وقالت: ألم تلاحظ الزهور التي على جانب الطريق من ناحيتك وليست موجودة على الجانب الآخر؟ .. أنا أعلم تماماً عن الماء الذي يتساقط منك بلا قصد ، ولهذا غرست البذور على طول الطريق من جهتك حتى ترويهما في طريق عودتك للمنزل ، ولمدة سنتين قطفت الكثير من هذه الزهور الجميلة لأزين بها منزلي ، ولو لم تكن انت بما انت فيه ، ما كان لمنزلي ان يصبح بهذا الجمال ..

لا تتكسر ، لا تنطفئ ، ولا تظن أنّ وجودك شيء زهيد في هذه الحياة ، أو أنك شيء بخس رخيص ، وعندما ترى غيرك يتميز بأشياء كثيرة فأعلم ان لكل شخص ما يميزه ، وأنت أيضاً لديك ما يميزك ، ويُعلي قدرك ويرفع منزلتك ، وغيرك ينظر إليك بنفس الطريقة التي تنتظر بها إليه ، ويحسدك كما تحسده انت . . . فكن واثق من نفسك ، وافخر بروحك ، وافرح بما عندك ..

ولابد لك ان تعرف قدر نفسك وترفعها وتضعها حيث تستحق وأكثر .. ارتدي أجمل ما لديك ، وتناول أطيب الطعام ، فأنت ما تأكله وأنت ما تلبسه .. ولا ترافق إلا من كان شهم نبيل ، وذو أصل كريم ..

توفي شاب بعمر ثمان وثلاثين سنة بحادث دهس مؤلم ، أب لطفلين .. كنت أعرف هذا الشاب الذي يسكن قريباً من مكان عملي ، رجل هادئ وشجاع ، وذو طول مهيب ، متواضع جداً ، يحب الناس والتقرب منهم ، دائماً تراه مازحاً يُلقي النكات ويدفع أصحابه للضحكات.. ويجمع الكثير من الأصدقاء حوله ، وكأنه فهم المثل القائل اصنع لك قرابة في كل خرابة . . . وبينما نحن ننظر بحزن وصمت إلى مراسم التشييع رأيت فتى يهرول ويجهش بالبكاء ، يُشيق الدمع المتدفق من عينه ويخالطه سائل ، وكأن أنفه يذوب ويقطر على شاربه الأزرق، صبي أسمر ذو بشرة دهنية مليئة بالبثور أو ما يسمى حب الشباب ، ولا أعرف ما هو الرابط بين هذه البثور والشباب وهي تزيد وجه الفتى قبحاً إضافة إلى شاربه الأزرق الداكن وأنفه السمين وشعره المنتفش ..

جاء يعوي ويلهث وقفز إلى السيارة من الخلف وتمسك بالدرج يريد ان يصعد إلى نعش الميت ، ربما ينوي عناق التابوت من الخارج أو فتحه وتقبيل الميت ، لا أحد يعرف ما تحمله مخيلة الأطفال وكيف يفكرون ، إنه يودّع أفضل صديق لديه في حياته كلها ، ويمكنني ان أقسم لك انه لن يجد صديقاً مثله أبداً ، ومهما حاول ، لأنه لا يوجد شاب يمثل هذا العمر والمفاخر يرضى لنفسه ان يجالس الصغار ، أو يتمشّى معهم في طرقات الحي ، ويبادلهم الأفكار، يحملهم للزقي ويحرمونه منه ..

ظَلَّ أقرباء الميت يَجْرُونَهُ بعطف وغضب ، لأنه طفل أزاح هيبة تشييع الجثمان ، وأصبح كل واحد من الحاضرين يأخذ دور الجد الحانق المُعْتَم ، وهو يداري حفيده الباكي حين تركته أمه وذهبت للتسوق .. وأقسم لكم أيضاً أنّ بعض الرجال ربما تمنى في سرّه لو استطاع ان ينفرد بهذا الصغير بحيث لا يراهم أحد ، ويرفضه رفساً بقوة وكُره ..

الرجال يسحبونه وينزلونه عن السيارة والولد يتلوى وينزلق من بين أيديهم ، ثم تملّص من بلوزته وخرج من بينهم على نصفين ، نصف يغطيه البنطال ، ونصف يلمع كأنه خرج من ورشة تبديل زيت المحرك ، وهو يدسّ جسده في محاولة حمقاء للوصول إلى الجنازة ..

وبين هذه الحركة وتلك ، يتناثر عليهم السائل المختلط بالدموع واللعب . . . ومن بين الرجال من مدَّ يده سهواً فلامست فتحة أنفه من بيع لتجاوز هذا المشهد . . . ثم يعود الولد للتأبوت الخشبي وهو يبكي ويصرخ بطريقة استفزازية أغضبت الجميع ، لقد أصبح هذا الصبي مصدر خجل لأقرباء الميت من المشيعين . . . طفلٌ يتلوى ، بوجه منكمش ، وجسد دهني ينزلق ، وبكاءً غير مبرر ، ولو كان المتوفي يستطيع النهوض لغضب أيضاً ، وصفعه ، وقال له: أيها الكائن المكور القصير ، أيها الطفل البريء البشع ، لقد أذهبت هيبتي وحظوتي ..

هناك ، وعلى مرأى عشرات الرجال والشيوخ ، بين قريب وغريب ، وجار وصديق ، وفي كل من المكان والحاضرين وأجلال الميت نفسه ، غطّت وأحاطت بهم هالة مشؤومة تبتُّ الخجل والتضاغر ، والانكسار من حالة فقيدهم ، والاستخفاف بحكمته ، فكيف لرجلٍ فارغ الطول والاحترام والتمجيد ، أن يصاحب فتىً صغير كهذا يتعثّر به في الحياة ، ثم يفضحه بعد الممات ..

على قدر ما ترتب فراشك ،
تهناً بنومك ..

تهناً بنومك ..
على قدر ما ترتب فراشك ،

حكمة على سكة ..

كثرة الفراغ والبطالة وضياح الاوقات بلا نفع أو نجع ، دائماً ما يأتي معها اكتئاب واستياء ، واضطراب وحزن ملازما لها ، وقلق.. وترى الشخص الذي لا يجد عملاً يُشغل به نفسه ولا فضيلة يقضي بها وقته ، يفكر كثيراً ويصعب تفكيره في حياته وذاكراته وكيواته وأيامه العصبية وسبب فشله ، ولماذا وقع في نفس الخطأ أكثر من مرة، وهذا بالتأكيد يفاقم حزنه ويضخم أبسط مشاكله، ولَبَّ تفكيره وتركيزه هو نفسه وطريقة عيشه ، ولماذا لا يحصل على ما يستحق من التقدير، وأن هذا ليس ما كان يخطط له ، وهو مغبون ومضطهد بطريقة العيش هذه ، وكأنه شخص نجيب لا يوجد من امثاله الا القليل بعدد اصابع اليد أو أقل ، يبحث ويحقق ويدقق في كل ذليل وجليل حوله ..

كثرة الفراغ والاسراف في التأمل ، والتدقيق في أنفه الأمور وضياح الاوقات ، كل هذه الأمور في الغالب تجر صاحبها للذنوب والمعاصي والاساءة والاذى ، سواء تسبب بها لنفسه أو لمن حوله ..

يصرح الاطباء ان جسم الإنسان خُلِقَ للحركة وليس للسكون والجلوس ، واقرب مثال لمساوئ الفراغ هو شخص تعدى الاربعة عقود عازباً بلا زواج ، تجد كل العيب في عقله وتصرفاته، دائماً وتجده كثير الغضب والزعل والخصام ، كل هذا من خواء أوقاته ، وخلو أيامه وساعاته من أشياء حقيقية مفيدة ينشغل بها ..

فعلى الإنسان ان يبقى مشغولاً للحد الذي يلهيه عن تعاسته..
ان كنت يوماً بلا عمل ولديك فائض في أوقاتك وخزين من الهموم
والحسابات ، تحرك وسوف تحصل على كل ما تحب ، عندما تمرض
تحرك ، تريد عمل تحرك ، غاضب أو منزعج أو مصاب بالإنفلونزا
وآلام الرأس تحرك .. ألم تسمع ما يقوله كبار السن بأن الحركة بركة..
انها حقيقة وواقع ، جرب ان تذهب لتتسوق ، ولو كيلو من الخضار
وسوف ترى البركة ترافقك ، لان الله أمرك بالسعي للخير والرزق ،
تحرك لتحصل على الصحة والرزق والسعادة وراحة البال ، وتتغير
حالتك المزاجية والجسدية والعصبية ، وتتغير حتى أموالك ومستقبلك
وتفكيرك..

لا تجلس في البيت تنبش محتويات المنزل وساكنيه بحثاً عن
المشاكل كما تنبش القروذ بعضها تبحث عن القمل ، تجلس في البيت
وتصنع نقاشاً غير متكافئ القوة والاستطاعة ، تتطفل وتحشر انك في
رسم وشكل كبة البرغل ، وأوراق السبانخ الملقاة على الأرض ، وبقايا
الصابون ، ونعل الحمام الرطب ..

ياصديقي الطيب إذا وجدت نفسك في هذا المقام ، اهرب من
البيت ، جد عملاً ثانٍ أو اذهب إلى المسجد في منطقتك فهناك قمة
الامان والاطمئنان ، اذهب وصل واتل آية واذكر ربك ساعة ، ثم
ارجع واشغل نفسك بتعليم أولادك سيرة النبي ﷺ وبعضاً من سيرة
عظماء الاسلام ، ساعد زوجتك في جبال تثقل كاهلها ، وأصلح

اغراض بيتك ، وساعد أولادك في واجبات المدرسة ، والعب وتسل معهم كطفل يلهو .. المهم لا تقبع على الاريكة تدقق وتتبصر ، لن تخرج شيئاً جديداً لهذا العالم ، أبداً.. عام ١٩٩٨ حصلت على فرصة عمل اثناء توسعة مدرسة وجامع الشيخ عبدالقادر الجيلاني، لم تكن فرصة العمل مهندس بناء أو وظيفة مرموقة ولا حتى قريب منها، انها عامل بناء مساعد بكل بساطة ورأفة ..

كان هناك توسعة جديدة لمدرسة الشيخ حيث يتم العمل لمبنى هائل على شكل مستطيل يحتوي العديد من القاعات الضخمة ، وعلى طابقين ، ربما مكتبة دينية أو متحف اسلامي أو قاعات دراسية ، يتوسطها فضاء كبير ، يغلف البناء من الداخل والخارج بالحجر الابيض والنقوش الحجرية من زخارف أو آيات من القرآن، أرضية الغرف من المرمر الطبيعي ، انحناءات واشكال هندسية مرتفعة من الحجر لتشبه واحدة من القلاع الملكية القديمة ، وسور خارجي مرتفع وقمم مدببة على طول السور على شكل اقواس ، وبين قوس وآخر يُثبت نقش من الحديد تزيد من قوة السور إضافة إلى لمستها الجمالية كزخرفة ، وبوابة كبيرة مبالغ بها ، بارتفاع أكثر من عشرون متراً، مدخل فاخر مهيب للمدرسة ، ويغلف مدخل المدرسة بقطع حجر ضخمة تأتي من مدينة الموصل ، ويتم بناء مخازن ومكاتب وسرداب وساحات لتحمل زخم الوافدين أيام العيد ، لم أمكث هناك فترة طويلة كي اشهد اكتمال التوسعة ، وأعرف المغزى من كل جزء لأتكلم عنه بإسهاب ..

الحضرة القادرية أو المدرسة القادرية هي التسمية التي تطلق على ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد .. يقع ضريح ومسجد الشيخ في منطقة باب الشيخ من جهة الرصافة ، حيث ان أصل هذا الجامع كان مدرسة انشأها أبو سعيد المخرمي ، ولما توفي الشيخ أبو سعيد جلس مكانه الشيخ عبد القادر للتدريس ، ولما توفي دفنوه فيها ، وكانت تسمى مدرسة باب الأزج في محلة باب الأزج ، وهي واحدة من محلات بغداد القديمة ، ولكن اسمها تغير إلى محلة باب الشيخ نسبةً إلى الشيخ عبد القادر .. أعيد بنائها بأمر من سليمان القانوني خلال فتح بغداد ١٥٣٤م بعد ان دمرها المغول وأضحت أطلالا ، وتعد المدرسة صرحاً معمارياً مهماً في بغداد ، وقد سميت الساحة القريبة منها ساحة الجيلاني .. وتضم المدرسة القادرية مسجداً وضريحاً ومكتبة تسمى المكتبة القادرية ، وتحتوي هذه المكتبة الآلاف من نفائس المخطوطات في مختلف العلوم الاسلامية ، فضلاً عن المطبوعات النادرة ..

الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله الهاشمي ، يُعرف ويلقب في التراث المغربي بالشيخ بوعلام الجيلاني ، وبالمشرق عبد القادر الجيلاني .. توفي الشيخ سنة ١١٦٦ وقبره في بغداد ، وذكر ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية" ان الشيخ دفن في مدرسته رحمه الله تعالى ، كان رجلاً صالحاً بشهادة أئمة الدين ، بريء مما يحدث اليوم بإسمه وداخل مدرسته من شعوذة وخبال ..

ومن مآثره وجميل أقواله رحمه الله: فتنشت الاعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من اطعام الطعام ، أود لو ان الدنيا بيدي فأطعمها الجياع ، كفي مثقوبة لا تضبط شيئاً ، لو جاءني الف دينار لم أبيتها ..

حين وجدت عملاً في المدرسة القادرية .. كنت أخرج من البيت الساعة الخامسة والنصف فجراً ، فطور لا بأس به ، ملابس تناسب الغبار والحجر ، وجه سقيم مكفهر يناسب التصاغر والتلوث ..

وها قد طلعت خيوط الشمس وها هو الفجر يغطي بعباءته البرتقالية اسطح البنايات وأعالي أشجار الكالبتوس ، وهوائه البارد ينسيك مرارة المكان الذي ستذهب إليه ، وها هي الشمس المحتالة ، انها تبتسم لي بحنان مشفقة لحالي ، اركب أول سيارة ، وبينما تسير بتأني اراقب بيتي البعيد وكلي حنان للعودة إليه قريباً ، أتذكر فراشي ، الدفء ، الطعام ، اللعب ، الراحة ، اراقب شجرة ربطنا عليها أنا وأخي سلك هاتف وصنعنا ارجوحة تهدل بنا حتى منتصف الشارع حيث تمر الشاحنات .. انظر إلى بيوت أصدقائي المدللين ، محل الحلويات ، مدرستي ، الحدائق تحيطها أشجار الدفلة كالسور ، اراقبها مودعاً لها كأنني انا الرصيف الساكن وهي تغادرني مبتعدة ، اراقبها وهي تمضي كما تمضي الغيوم بهدوء ..

انتظر في كراج حي الشرطة حيث تأخذني السيارة الثانية إلى منطقة الباب الشرقي ،

في الكراج وبينما تمتلئ السيارة بالركاب النعسانين كنت ادقق في كل شيء حولي بصمت وكسل ، اراقب الطيور على شجرة سدر قريبة عندما تخرج من اعشاشها وتمطّي اجسادها ، تمد ساق يمين وجناح يمين أبعد ما تستطيع عن رقبتها ، والغريب انها تفعل هذا مع جهة واحدة من اجسادها ولا تفعله مع الجهة الأخرى ، أعتقد انها كان تنام على جنبها ، كانت هناك رياح خفيفة تحرك الاوساخ وأوراق الشجر على الأرض بأمان ، تصبح هذه الاوساخ كأنها زوبعة طرية تجري وراء بعضها وهي لاهية خارج المنزل ..

كانت السماء تمطر بزهد فيتساقط ماء المطر على جميع الأشجار هناك ، ويتجمع الماء تحت أشجار الكالبتوس والسيسبان في برك صغيرة متفرقة ، وكانت هناك بقعتين صغيرتين صنعتهما ماء المطر ، بقعة أسفل الرصيف تعكس صورة تترنح لأي جسم يتحرك بجانبها ، والبقعة الثانية على طريق عتبة الباب حيث يصعد الركاب فيظهر نقش نعالهم على أرضية السيارة ، وعندما تسرع الباص كنت أسلّي نفسي بمشاهدة الاجسام وهي تخطف على عجل عندما اركز نظري في العامود الفاصل بين نوافذ السيارة لتذهب الاشياء إلى غياهب الخيال .. على طول الطريق انظر ببرود إلى المتسولين ، شرطي المرور، الاباء ، الجنود ، بائعي الخضار ، ادقق في ملابس من يجلس بجانبني .. ومرةً كل اسبوعين يحدث شجار داخل السيارة ، وتجد أحدهم يخنس كالقنفذ ، لم يدفع الاجرة ..

انظر من النافذة إلى اصحاب المحلات والدكاكين ، أحصي بعض الاشخاص للتأكد انهم موجودين كل يوم ، نفس المكان والهيئة والفعل ، وفي الشتاء تجد كل ثلاثة منهم أو أكثر يتجمعون حول نارٍ أوقدت من قطع الكارتون واخشاب من القمامة ، وكل منهم ينتظر بدء العمل والبيع وانتشار السوق ، اما في طريق العودة ، نفس الاشخاص لكن الحال والمنظر مختلف ، ذلك العجوز يقرأ القرآن خارج دكانه وهو يدفع عظامه وقريباً منه نجار يحاور امرأة لكن الابتسامة لا تفارقه ، يتحدث ويضحك لاهثاً حتى يصل طرف فمه إلى اذنيه ، انه فرح جداً ، يتكلم عن نوع الاخشاب التي يستخدمها وعن السرير ، خزانة الملابس ، منضدة الزينة ، طاولة ، مرآة ، أموراً عادية ، لكنه يضيف إليها ابتسامة بلهاء ، وقريب منهم بائع الخضار يصرخ عالياً معلناً عن اغراضه بطريقة قبيحة جداً وكأنه يعلن لجيرانه البقالين عن قوته وأخلاقه السيئة ، وانه مستعد للشجار بفخر ، أكثر مما ينادي المارة ليشتروا منه ..

أوصلني الباص صباحاً بعد نصف ساعة أو أكثر لمنطقة باب الشرقي حيث تجد الفقراء يفترشون الأرض لبيع الخردوات الرخيصة والجوارب وسكاكين الجيب ، وقطع ملابس بسعر لفة الفلافل ، وقريباً منهم لاعبي القمار ، يلعبون فيما بينهم ويربح أحدهم لجذب غشيم أو أبله جديد على هذه الشوارع المندسنة ، هناك يوجد كل سحت ومحظور ..

تُنْبش الجيوب على العلن ، جهاز موسيقى ثقيل محشو بطابوق بناء ، ولربما أعجبتك قطعة ملابس ، تجربها وتشترئها ثم تتفاجأ في البيت انها استبدلت بخرقة أو بجامة طفل ..

وهناك في كراج باب الشرقي تقف السيارة المارسيدس ذات الثمانية عشر راكباً لتمر من أمام موقع العمل ، وانزل هناك وإلى العمل والعمل والعمل . . . حين تأتي الساعة السابعة صباحاً يأتي معها العمل الحقير ويغزو العمال موقع العذاب ، بعيون غاضبة مليئة بأوردة حمراء ، ووجوه ذابلة من التعب ومشدودة من الحنق ، ملابس قديمة ، وفي يد كل واحد منهم كيس الغداء ، تتساوى عدد الخطوط في الوجه والجبين ، كلما زاد الفقر كلما زاد عدد هذه الخطوط ، وخط كبير وانتفاخ بسيط أسفل العيون الباهتة ، وعدد من الخطوط والشخايبط على الوجنتين لتبدل وجوههم إلى قطعة خيار ذابلة ..

في ذلك الوقت لم يكن هناك مرض منتشر اسمه انفلونزا الخنازير أو الطيور وفايروس ايبولا والفطر الاسود أو كورونا ، وإنما هناك مرض اشد فتكاً وخطراً وهو الفقر ..

في موقع العمل سيبدو المنظر مدهش وطريف لو كنت عينين في رأس صقر يغرز بصره من الأعلى ، أو عدسة في كامرة درون وتتأمل الموقع من الجو ..

كل من المهندسين والعمال والمسؤولين والحرس، ونحن والسواق وكثير من الناس ، كلهم مبعثرين في الساحة ، مبعثرين بطريقة غريبة ، تذكرني بذلك المخبول الذي امسك كيس الحمص ونثره على الأرض الترابية عندما كنت اعمل في "سوق الدورة" ابيع المواد الغذائية ، كان المخبول يمر من أمام بسطتي ويحمل بيده كومة ملابس قذرة وباليدي الأخرى يحمل كيس يحتوي مسحوق الغسيل ، وقف حزيناً غاضباً لأنه لم يستطع ان يدخل كيس مسحوق الغسيل في جيب الملابس التي يحملها في يده ، وفي كل مرة يحاول ادخاله يتزلق الكيس وينزلق خارج الجيب ، في الاخير غضب ككلب مسعور ونظر يميناً وشمالاً ، لمح كيس الحمص الاقرب اليه وأنا اراقبه بلا حول ولا قوة ، كنت طفلاً صغيراً ، فرفع الكيس ونثره في كل مكان ، أعلى واسفل وفي كل الاتجاهات بحيث من المتعسر على أي إنسان ان يجمعه ويعيده في الكيس من جديد ..

كان الناس مبعثرين في موقع العمل بهذه الطريقة ، عشرة اشخاص هناك واثنان هنا ، وعمال فوق وتحت وفي النفق والسرداب وفوق السيارات ، وعلى الرافعات وأعلى الاسكالات ، ومتجمعين حول مهندس وبين الاتربة وتحت الغبار ، مزيج من بشر وسيارات ثقيلة وعربات صغيرة ، وادوات العمل ، والحجر المقطّع واخشاب وقضبان الحديد، وقبعات الامان البيضاء للمهندسين والمسؤولين،

يتصاعد من كل هذا الخليط غبار غاضب ، كأننا طبخة
البرياني المحشو بقطع اللحم والمكسرات والبازلاء والبطاطا والجزر ،
طُبخت وسُكبت تَوّاً في اناء كبير مستدير ..

كنت ومجموعة من العمال نشبه كتيبة من عشرين ولداً لا
نجرأ القيام بأي خطوة دون أوامر من القائد جمال ، وعندما يأمرنا
نؤديها بنصف نجاح ، كان المسؤول جمال رجل معتدل الوجه لا
عابس ولا بشوش ، رجل ضخم عمره خمس وأربعون عاماً تقريباً ،
لديه اصابة في يده وفي عينه ، وربما في اماكن أخرى ، لم اسأله يوماً
ان كانت بسبب العمل في هذا الموقع أو بسبب الحروب التي لا تنفك
عن بلادنا . . . كان جمال شخصاً خلوفاً هادئاً مستقيماً ، ومحبوب بين
الجميع ، مخلصاً في العمل وكأنه يداري ولده الهائج ، أكثر شيء
يكرهه جمال ان يرى يدك تختبئ في جيبك ، نظف ، اعمل ، ارفع
حجراً ، تسلق السلالم ، سر بغضب وعجل ، احتضن مجرفة ، اركل
كيس اسمنت ، المهم لا تضع يدك في جيبك . . . وكنا دائماً ما نراه
يمشي مستعجلاً شارد البال يبحث عن العمال مع وجه غاضب كأنه
ذاهب إلى دورة المياه . . . معظم العمال في مجموعتنا طلاب من
المدارس الثانوية ، جننا للعمل اثناء العطلة الصيفية ، نقيضاً للمخيم
الصيفي لأولاد الاثرياء ..

وقت الراحة من الساعة الثانية عشر إلى الواحدة ، استراحة
للغداء والصلاة وعشرون دقيقة من النوم ، غفوة صغيرة منعشة . . .
حين يأتي وقت الغداء نفرش الطعام على الأرض ، كل أربعة أولاد أو
أقل ، وتبادل بعض الاصناف بيننا ثم نلتهمه بلا احترام أو نظام ،
وبلا رحمة حتى نؤتي عليه ، لا يمكن أبداً تخيل ما يفعله إنسان جائع ،
كل هذا العمل المرهق المضجر الذي يحتوي على مخاطر كبيرة وكل
هذه المشقة نعتبرها مغامرة وتحدي فيما بيننا ، عابثين نضحك أو
نتسابق . . . والاصابات جزء لا يتجزأ من حياتنا اليومية ، ذلك ان
الحجر طوله متر وعرضه نصف متر ووزن كل قطعة ما يقارب
خمسين إلى مئة كيلو ، نأرجحها وهي واقفة يمين شمال يمين شمال
حتى نصل إلى الرافعة . . . انحشرت ذراع زميلي يوماً بين حجرين
وطبقا عليها بقوة ، سألت دماؤه حتى كاد الحجر ان يقطع اصبعه ،
وأخر توفي بصعقة كهربائية محاولاً توصيل المثقب بمصدر الكهرباء ،
حيث كان المصدر عبارة عن خشبة تُثَبَّت عليها قطع حديد عارية
كمأخذ ، لتربط السلك وتثبتته بالبراغي . . . داخل المخازن وعلى
اسطح القاعات الداخلية يتجمع طائر السنونو على جميع الحبال
والاسلاك ..

هناك تملوا اصوات المحركات وضجيج المطارق ، والعمال
والتكسير واصوات السيارات والادوات ، وسباب المسؤولين للعمال ،
وسباب العمال للمسؤولين سرّاً ..

ورائحة العمال التي تغطي موقع العمل ، الوجوه القبيحة الكالهة المليئة بالفقر وثقل الاحجار ، كأنهم عبيد في سجن مع الاعمال الشاقة .. أشعة الشمس التي ترتفع ، تتحدى وتفهر الجميع لو استطاع أحدهم فلق عينيه أو النظر لأعلى ، الجو مليء بغبار قدر خانق ، غبار العمل وغبار الهواء ، وحر كريه وعرق قاتل ، يجعل ملابسك المطرزة بخطوط الاملاح تلتصق بجلدك . . . هدوء وحر وجو رطب كأننا داخل جدر حساء الفاصولياء قبل ان يضاف إليها معجون الطماطم ، وبين فترة وأخرى تجد أحد العمال أو المسؤولين ينفجر غاضباً من تراكمات الجو والارهاق والعمل ..

نداءات مختلطة بمختلف الاصوات والطبقات ، في البداية كنا نلتفت كلما سمعنا صياحاً أو عطاساً ، لكن بعد أيام لن يلتفت أحد حتى يسمع اسمه ، وأينما وُجد الظل تجد اشخاص قابعين تحته ، وخلف الجدران ، مبتعدين عن الحر المهلك الذي يجعل بشرتك تبدو كجلد دجاج محمص ، يقلب لونها إلى خليط من البني والرصاصي الداكن من غير حمرة ، وأينما ذهب الظل مضوا خلفه كالمسولين ، وركضوا تجاهه كأفراخ الدجاج . . . غبار واثربة وأجهزة النقاشين تنفث تراب خانق ، والطبشور المنبعث من آلة القص يضاهي وحشاً بشعاً بقم ضخم مكور يقذف الدخان ، وأشياء تنزلق من أيدي العمال للأسفل ، وأوامر المهندسين ..

السكلة التي كنا نتسلقها ترتفع إلى ثلاثون طابق ، وأعلى ما وصلت اليه يوماً هو سبعة عشر ، أتذكر اني في آخر يوم لي كدت أسقط عند الطابق الرابع عشر ، وحين تهطل الامطار شتاءً لك ان تتخيل غبار وعرق ومطر على قميصك ، وانت تخاف ان تنزلق فتسقط من فوق، أو يتزحلق الاستاذ جمال ويسقط فوقك من السماء ، قطرة مطر وزنها مئة كيلو ، وخطورة الكهرباء في المطر التي تبحث عن لمسة حب ..

كنت اتقاضى الف وخمسمائة دينار في اليوم ما يعادل دولار واحداً هذه الأيام ، كنت اذهب نعساناً حين يرفع الظلام طرف ثوبه ، وأعود نائماً حين يرخي الظلام سدوله ، كنت اعمل فوق السكلة يوماً تحت أشعة الشمس الحارقة ورأسي يلتهب كالمدفأة ، (والسكلة هي أعمدة تتركب مع بعضها وتوضع إلى جانب البنايات المشيدة حديثاً من أجل تنقل عمال البناء والعمل عليها) وكنا نثبت الحجر ونربطه بقضبان رفيعة إلى حصيرة من الحديد الثخين المثبتة بقوة إلى الجدار، ثم نملئ الفراغ بين الحجر والجدار بخلطة الاسمنت والرمل ..

وكان هناك شخصان يعملان قريباً مني ، سمعت أحدهم يوماً وهو رجل كبير في العمر يوصي الشاب الذي يعمل معه قائلاً: إذا تزوجت يوماً وكان لديك الكثير من أوقات الفراغ لا تجلس في البيت ، اذهب إلى مقهى ، اخرج إلى السوق ، اذهب لأي مكان ، المهم ،

لا تجلس في البيت حتى ان كنت بلا عمل ، لان هذا الجلوس في البيت يسبب لك مشاكل كبيرة ، وهذا الفراغ هو سبب لكل المشاكل والفقر والرذيلة ، بالفراغ تنغمس بالفقر ، وبالفقر انت حشرة لا أكثر..

كانت هذه واحدة من النصائح الماسية التي سمعتها عن طريق الصدفة ولا يزال صداها يخربش طبلة أذني لعشرات السنين . . . بعد ان تركت العمل بيومين أو ثلاثة أيام التقيت بأصدقائي وأخبرني أحدهم اني قد حصلت على علاوة ، وازداد مرتبي إلى ألف وسبعمئة وخمسين دينار ، جاءت متأخرة ، كالمشروب الغازي عند نفاذ قطع الدجاج ..

الكسلان تتعبه حتى الراحة ..

الكسلان يتعبه حتى الراحة ..

لغز الباص ..

اهلا صديقي اللطيف .. ها قد وصلت معي إلى هذا الجزء من الكتاب ، ما رأيك ان نأخذ استراحة بسيطة ، سوف احكي لك عن لغز يبدو للوهلة الأولى من أسهل ما يكون ، لكنني عندما أخبرك لاحقاً بالنتيجة سوف تستغرب اشد الاستغراب ، وتكرر محاولة الوصول للنتيجة مرات متتالية ، لذلك أرجو ان تعيرني انتباهك ..

ابتداءً من الساعة الخامسة فجراً في كل يوم يتوجه باص من بغداد إلى محافظة الموصل ، كما يتوجه كل يوم وفي نفس الوقت باص آخر من الموصل إلى بغداد ، ويستغرق كل باص ست ساعات من الوقت لقطع المسافة بين المدينتين على هذا الطريق ، ويستمر انطلاق باص جديد من كلا المدينتين ، في كل ساعة ، وعلى مدار اليوم ..

اللغز هو: ما هو عدد الباصات التي يقابلها المسافر أثناء سفره من بغداد إلى الموصل في أحد هذه الباصات ؟ . . . أعتقد ان إجابة كل قارئ سوف تكون على النحو التالي .. **كل مسافر سوف يقابل ست باصات فقط ..**

غير ان هذه الاجابات غير صحيحة مطلقاً . . . سوف اتركك قليلاً لتفكر ثم أخبرك بالنتيجة ..

الحصان ..

بما انني صنعت كتاباً وكتبت كلاماً ، فلا بد لهذا العمل ان يحتوي على جزء وركن خاص بالأنثى ، لكنه تحدي كبير لعجوز قاسي الملامح مثل حالي وعمرى ، والنساء تنفر منى على اختلاف اشكالهن وأعمارهن ، وهذا ليس ذنبى إلا انى قضيت حياتى أعمل فى مجتمع الذكور والبناء والسوق والمصانع ، ولا أجد التملق والملاطفة والتواصل مع النساء بأى حال من الاحوال ..

لهذا ، سيدتى ، أرجو ان تتمنى لى التوفيق فى دخولى لعالم مبهم ومعقد أكثر من حالتى النفسية ..

عندما كنت ادرس فى معهد "اعداد المدرسين التقنيين" فى منطقة "الزعرانية" كان معظم الطلبة هم خريجي الاعداديات الصناعية على اختلاف تخصصهم ، لذلك تجد الاغلبية العظمى هم الذكور ، بل يمكنك القول انه مجتمع ذكورى بحت ، لأنه فى المرحلتين الأولى والثانية وجميع أقسام المعهد ، كهرباء ، الكترون ، ميكانيك ، سيارات ، وغيرها ، ومن بين آلاف الطلاب ، كانت توجد هناك اربع بنات فقط ، ثلاثة فى قسم الالكترون وواحدة فى قسم الكهرباء ، وكان الطلاب حينها يلقبون انفسهم بالتماسيح أو معهد التماسيح . . . والغريب انه فى نفس البوابة الرئيسية هناك ، ولحسن حظ هؤلاء الطلبة المراهقين المعدمين يقع مدخل معهد الادارة ،

وهو نقيض معهدنا بالمعنى الحرفي ، لأن أغلب طلبته من البنات ، وقلة محظوظة محسودة من الشباب المتهلل المبتسم ، وكنت دائماً ما أرى بعض زملائي في القاعة الدراسية يقف عند المدخل الرئيسي وينظرون بكآبة وأسى إلى موجة الطالبات حين تنبع من معهد الإدارة ، وكانوا يحملون وروداً ويشمونها كثمالي نادمين ، قلت مرة لأحدهم: ماذا تشم ؟ انها ورود كاذبة . . . أحضرها قريباً من وجهي لأستنشقها ، لقد كانت زهوراً صناعية من القماش والبلاستيك نثروا عليها بعض العطر ، ولسان حالهم يقول:

متى يشتقي مِنْكَ الفؤادُ المعذبُ

وسهمُ المنايا من وصالِكَ أَقْرَبُ

فَبَعْدُ وَوَجْدُ ، وَاشْتِيَاقُ وَرَجْفَةٌ

فلا انت تُدْنِينِي وَلَا انا أَقْرَبُ

كعُصفورَةٍ في كَفِّ طِفْلِ يَرُمُّهَا

تذوقُ حِيَاضَ الموتِ وَالطِفْلُ يلعبُ

فلا الطِفْلُ ذو عَقْلٍ يَرِقُّ لِمَا بِهَا

ولا الطيرُ ذو ريشٍ ، يطيرُ فيذهبُ ..

فلا تستعربي افعال الرجل قبل الزواج ، يقف لأجلك منتعشاً تحت الشمس ، ولا يتبلل حين ينتظرك تحت المطر .. لا تستعربي ان اخرج جناحه وطار بك ، كل هذا وارد ، لكن هذه مرحلة منقطعة ولا تمتد إلى ما بعد الزواج ، فلا تتوقعي نفس الحب والتصرف والسلوك بعد الزواج ، هذا مستحيل واحد عجائب الدنيا السبعة . . . الحب بعد الزواج اما ان يزداد اضعافاً مضاعفة جراء العشرة والأمان ، أو يتناقص وينحسر حتى ينقلب كره وندم ، وأحياناً يخالطه التقرز ..

قبل الزواج وفي مرحلة المشاعر وقوانين القلوب ستجدين الرجل العال العات يجيد صنْع الشاي وجدل الضفائر ، ومعتاد على النكد ويحبك حد السماء ، أما بعد الزواج نفس العاشق المكروب يشعر انه أخطأ في الاختيار ، ولا يكتشف هذا الخطأ الا بعد ان ينبج بعض الأولاد ..

وأعلمي ان الرجل عندما ينغمس في تفاهة الحب والمشاعر فهذا من خلاء حياته وغياب طموحاته ، لا هدف ولا نجاح ولا مستقبل ولا كسبٌ يشغل به فراغه وأوقاته ، وفي الغالب تجدينه عاطل بلا عمل .. ويكذب كثيراً ، كثيراً جداً ..

مرّ النبي سليمان بن داود عليه السلام بعصفور يدور حول
عصفورة فقال لأصحابه: اندرون ما يقول..

قالوا: وما يقول يا نبي الله ..

قال: يخطبها إلى نفسه ويقول تزوجيني واسكنك أي غرف
دمشق شئت .. قال سليمان عليه السلام لأن غرف دمشق مبنية
بالصخر لا يقدر ان يسكنها أحد ، ولكن كل خاطب كذاب..

لكنك إذا لم تعتبري وتتعطي من أخطاء الفتيات من حولك
وتعرفي قدر نفسك وما وصلت إليه ، سوف تصبحين انت هو الرجل
الذي كنت تتمنينه .. كوني غالية فالإنسان لا يعتز بالرخيص ولا يقدره
ولا يباهي به .. لا يغرك الحب والمشاعر ، تقبلين به فقيراً أو مريضاً
لأن حالة الحب هذه تشبه وتحاكي فيلم شاهدهته أو رواية اعجبتك ،
تعلقت به وتزوجتما ثم ما ان يتحسن حاله حتى يستبدلك ، كرجل أعمى
أول ما فتح عينيه كسر العصا التي كانت تسنده ..

الحب الجلي الواضح المستقر يأتي بعد الزواج ، بعد العشرة
والصبر على الحياة بلحوا ومرها ، اما قبل الزواج فإنه هوى قلب
يرفرف وكذب مشاعر تعصف ، وإلا لما زاد عدد الطلاق في المحاكم
هذه الأيام مقروناً بازدياد حالات الحب والتعلق قبل الزواج ..

ثم بعد الزواج تظهر الحقيقة ، فإن كان طيب المعشر وحلو الطباع تنامي الحب وتجذر عميقاً ، وأما ان كان به عيب وسوء خلق انقلب الحب كرهاً وندماً ، وتضاعف الحزن لأنه فَقَدَ بعد وَجَد ..

ولا تصدقي من يقول ان الغضوب أطيب الناس قلباً واصدقهم مشاعراً .. أقول لك وأزيدك بأفضل من هذا ، انه اخبثهم طبعاً وأعقمهم حقداً وأصدقهم قولاً ، فأصدق الكلام يقال عند الغضب ، وعند الاستهزاء ، وفي النهايات . . . وإياك ان تظني ان الطبع قابل للتغيير ، أبداً ومحال ، وانظري من حولك إلى طباع اخوتك واقربائك وجيرانك وصديقاتك ، وكل من تعرفين ، بل وحتى طباع والديك ، لتتأكدي ان طبعهم لم يتغير منذ ولدوا وإلى اليوم ، سواء كان هذا الطبع حلو طيب ام حنظل زعاق ، لذا عليك ان تُريه حدوده ..

ارسمي حدودك وليعرف حدوده ، لكن بلا إساءة وتنقص ، ولا تخافي النتيجة ومآل الأمور ، لأنه سوف يلتزم ويتكيف على احترامك ، خير من ان يتكيف على اهانتك . . . سرعة التكيف من أهم وأجل ما يتميز به الإنسان ، ولا تنسي الكلمة التي يجب ان تنسج من الذهب ، كلمة لا تغفلي عنها أبداً " **ولا يُسيء الرجل الا لمن يضمن بقائها** " ..

من الأمور المهمة والشروط الأساسية التي يجب توفرها بمن تقدم للفوز بك ورجح هناء العيش بقربك هو نفس الواجب الذي تقوم به الحيوانات لجذب واغراء الأنثى للزواج ، ويتلخص في معرفة مقدار استعدادها لهذا الزواج والارتباط .. فالأنثى لا ترتبط بالذكر حتى يبني عشه ويهيئه ، ثم يثبت انه قوي يستطيع حمايتها من الحيوانات الأخرى وانه كفؤ لتوفير الطعام ، وكذلك يجب ان يكون مميز بين اقرانه ، بهيئة الطلة غريز الشكل واللون ، وغيرها من صفات لا نعرفها عن عالم الحيوان فهو من الغيبيات الخفية عنا ..

لكن حتى هذه الأمور البسيطة التي تعلمناها من الحيوانات نستطيع تطبيقها على الخاطب ، هل بنى بيتاً خاص به ؟ هل سيتمكن من توفير مستلزمات البيت لك وأولادك في المستقبل ؟ هل هو قوي أمام تقلبات الحياة ؟ هل هو وسيم الشكل صبيح الوجه انيق الملبس ، يخفف عنك حزنك وتباهين به صديقاتك وبنات الخالة ؟ مالذي يميزه عن غيره ليحصل عليك ؟ هل هو قادر على تحمل مسؤولية العائلة ومتاعب الحياة وهمومها ؟ ام انه يريد الزواج لأنه بحاجة لمن يعتني به فقط بلا مقابل ولا شكر وامتنان على هذه الخدمة المجانية ، ام ينوي الزواج لأنه يشعر بالملل وليس لديه ما يفعله ..

لابد من سؤال المتقدم عن هذه الواجبات ، ويلزمه تحضيرها والاستعداد لها ..

ثم لا تهملني الأمور المادية لأنها اهم من المشاعر ، بل ان الأمور المادية هي التي تتحكم بالمشاعر ، والحياة تعاش بالمحسوس وليس بالأمني والمشاعر ، لا يغرك ان كان مؤلف أو شاعر أو مشهور أو فائز بجوائز عديدة .. لا تغرك كلمات معسولة ، لا تغرك الالحان والاشعار ورسائل الغرام الناعسة ، كل هذه الأحلام لن تملأ بيتك بالأثاث ، ولن تملأ ثلاجتك بالطعام ، ولن تملأ مستقبلك بالأمان .. الحياة طويلة وصعبة تحتاج للمال تحتاج الصحة والقوة ، وأشياء تجلب السرور ..

ثم اختاري من كان بعمرك ، مرحلة اللعب لتلعبا معاً ، ومرحلة التفكير لتفكرا سوياً ، ومرحلة النكد لتتكدا على بعضكما بخبث ونصر ، ومرحلة الضعف للاسترخاء سوياً على أصوات ذكرياتكما .. أما إذا اختلف العمر ، سوف يعمل ويكدح وانت تمرحين فوق رأسه كرجل يصلح سيارته وأولاده يلعبون كرة القدم قريباً منه ويرمونه بها، وحين يفكر بالمستقبل ليدخر بعض المال تريدين شراء ألعاب البنات، وعندما تتعب روحه ويطلب الراحة بعد العناء سوف تنكدين عليه ، كما يفعل قط بمخالبه فوق سقف عجوز يستلقي في كوخه القديم ..

إذا كان هناك فارق كبير في العمر ستصبح الحياة فوضى غير مستقرة ، اجتهد يقابله لهو ، تحكم يقابله اسراف ، طمأنينة يقابلها شغب ..

قرأت مرة طرفة ذكية يقول كاتبها ، قبل ان تتزوج قم بتربية قطة ، فإذا تأقلمت معها ، وهذا يعني انك تعودت على وجود الشعر المتساقط في كل مكان ، وتعودت على صوت النواء والنق غير المفهوم ، والخرمشة دون مبرر ، وإسقاط الاشياء التي تعبت في شرائها .. كما انك ستعتاد على النظرة والبلقة في وجهك دون أي معنى لها ، وإذا عرفت ان هذه القطة جائعة أو تعاني من العطش أو حزينة ، وفهمت قصتها تماماً من غير أن تخبرك ، وكأنها تقول لك "لو كنت مهتم لكنت عرفت لحالك" ، فهذا يعني انك تصلح لمنظومة الزواج وتوكل على الله ..

وانت قبل ان تتزوجي قومي بتربية "ديك" ، إذا تعودت على الكركبة والاوزاخ التي سيخلفها في كل مكان ، فضلاً عن اعتيادك على الصوت العالي والصياح ، وبقائه على الشباك عندما يسمع صوت دجاجة ثانية ، والركض في البيت ، وهناك دائماً هرج وضوضاء بلا سبب ، يقلب اناء الطعام ، ينقر افراخه ويطاردهم بلا سبب ، يأكل ويلهو وينام ولا يدري عما يثقل كاهل دجاجته ، ولا يهتم، إذا ألفت هذا الديك وتعودت على تصرفاته ، فتزوجي وانت مطمئنة وستكون حياتك الزوجية ناجحة ..

اما إذا فكرتم بالإنجاب ، عليكم بتربية قرد صغير ..

أما بعد الزواج ، لن يبقى الحال بعد الزواج كما كان قبله ، سوف تفقد الكثير من الأحلام وتعلمين انها كانت ثلة من الاوهام ، وتتنازلين عن الامنيات وتدرकिन انها خاصة بالفتيات ، ستفاجئك الاطباق وبلاط الحمام وحفاظ الأطفال ، وبخل ، وخدمة بلا شكر ولا حبيب بشوش ، اظافر وشعر وعطن وكسل وكروش ، كل هذا سيظهر لك من العدم .. إلا ..

إلا إذا أتقنت بعض الاشياء ، إذا أردت الاحتفاظ بالرجل وعلاقته وحاله معك كما كان قبل الزواج وأكثر ، عليك بأشياء بسيطة لن تكلفك سوى أفكار لعبوبة وأقوال وإطراء تعود بالنفع والخير على كليكما ..

•• لا تكفّي أبداً عن اخباره بالقصص عن معاملة الأزواج الطيبين لزوجاتهم ، وعن صديقاتك وعن والدتك وقريباتك وكيف يعاملهن أزواجهن بحب واحترام وتعاون وخاصة كيف يعامل اباك امك .. الرجل يحب ان يكون حاله وهيئته وسمعته طيبة في أعين الناس ، ويحب ان يسمعهم يمدحونه ويحمدونه ويثنون على علاقته بزوجته ، وانه طيب ، ودود ، حنون ، ويُذكر دائماً بالخير والنفع والوفاء لك ..

•• عامله كالحصان ، ردي على مسمعه كثيراً ، انت حصان جامح ، قوي ، غاضب ، سريع ، لكن قلبك طيب ، انت فخم ، عالي ، رأسك مرفوع ، أننا لا نستطيع العيش من دونك لحظة واحدة ، صوتك جسور ، لك هيبه خاصة ، انت مخيف ، لكنك لنا الامان والحنان .. ثابري على ان تجعله يطمئن ان مكانته لن تذهب سدى وأنه رجل البيت والسيد المحترم ، حتى لو كان كذباً تصنعاً ، ويمكنك تجربة هذا مع طفلك وسترين الفخر والعز الذي يغلفه . . . أقولها لك وبكل بساطة لا فرق بين كبير أو صغير ، انها تولد معهم .. لكن احذري وإياك ان يعرف هذا السر ، لن يصدقك بعدها ولو حلفت بأغظ الأيمان انك صادقة في مدحه ..

انهم يسرعون للحرب والقتل والدماء بكلمة تلهب صدورهم وتهيج مشاعرهم ، وخاصة ان كان مصدر هذه الكلمة هو امرأة ، قامت تيريزا بتحريض زوجها ملك اسبانيا فذهب الاحمق وقتل شقيقه.. وكانت عبله تحفز عنتره على خوض المعارك والتضحية بدمه لإثبات شجاعته أمام أهلها . . . والبسوس بنت منقذ التي اشعلت بكلماتها واتهاماتها حرب طاحنة سميت بحرب البسوس واستمرت هذه الحرب أربعون عاماً بعد مقتل ناقتها على يد رجل اسمه كليب . . . ودوروثيا زوجة أحد النبلاء حيث اهانت زوجها لتقا عسه عن الدفاع عن أرضه وشرفه ، مما دفعه لإشعال حرب طويلة جداً لاستعادة كرامته أمام زوجته . . . فلا تظني ان الرجل جبل لا تهزه الكلمات ، جربي مدحه والثناء عليه ولن تخسري شيئاً ..

•• الزوج يتعب في جمع أمواله وبناء أسرته والحفاظ على كرامة عائلته ، لم يكن جمع هذه الاشياء سهلاً وإنما بالتعب والأنين والصاق الليل بالنهار . . . فلا تفضلي أي إنسان على أولاده ، ولا تفضلي أي مال على أمواله وممتلكاته ، وجرم عظيم ان تقارني بينه وبين رجل آخر مهما كان مقرباً ..

عزيزتي حبيسة العاطفة ، اعلمي ان كل شي يستخدم للحماية شكله قبيح أو فيه شيء من القبح ، الشوك لحماية الزهور ، البدلة المزعجة وحذاء الامان الثقيل في العمل ، الاسلاك الشائكة ، كل ما يستخدم للحماية شكله قبيح ، فلا تستغربي شكل زوجك وتقارنين ، فربما يكون الشكل مخالف للروح ، حاله كحال العلاقة العكسية بين جمال الفتاة وصوتها ..

هذا الزوج الذي ترينه أمامك على هذه الحال منتوف الريش والحظ ، مليء بالتجاعيد والهموم والاورام والطلبات ، هو الذي يضحي بجميع الاشياء التي بين يديه ليعطيها لزوجته وابناءه ، أو لأمه وحفيده ، ويهب شبابه وصحته من أجلهم ، يحاول بناء حياة عائلته ومستقبل أولاده من خلال عمله بشكل متواصل ، ولو على حساب صحته ، وهو الذي يحمل اكياس الطعام الثقيلة من البقال إلى البيت بسعادة ، ولو افترضنا انه يحمل طعاماً واغراض بوزن ستة كيلوات يومياً فهذا يعادل ألفين كيلو في السنة ، وخلال حياته يكون قد نقل لك ولأطفالك ما يعادل على أقل تقدير مئة طن وأكثر من احتياجاتكم ..

إضافة إلى بناء البيت والتصلّيات وصرف الأذى عنكم ، والمستشفى والدواء ، ومستلزمات الصيف وأشياء تدفنكم في الشتاء ، وجبال من المسؤولية ، ولو أدى به ذلك إلى إيجاد عمّلين أو أكثر وأحياناً لأوقات متأخرة ، ودون أيّ تدمير أو شكوى ، وفوق ذلك كله ، فاللوم كل اللوم يقع على رأسه ، إذا خرج للترفيه عن نفسه قالوا غير مسؤول ، وإذا بقي في المنزل فهو رجل كسول ..

لا تقارني ، إياك ، لا تفعلي ، لا تفعلي هذا فيظن أنك تهدمين وتحطمين كيانه العظيم . . . وهل يستطيع الرجل ان يواجه مصاعب الحياة والتعب ضارباً أكباد المشقة والعناء ويقابل أصناف البشر على اختلاف مساوئهم الا ان كان يدرك ان تعب وجهده يذهب لامرأة تبجله وتقدر تعبهُ وتضحيتهُ ، وترية من نفسها ان منزلته فوق كل الرجال وفوق الدنيا ، وأنه لها ملء الروح والسمع والبصر ..

•• احذري الكذب لأنه يجعل الرجل يشعر بالخوف على مستقبله والكذب يسرق الأمان من حياته. . . أراد أحد الأمراء ان يتزوج فقرر ان يجمع بنات المدينة ليختار منهن زوجته المستقبلية ، فسارعت الفتيات في التحضير لحضور هذا الحفل الراقى ، وكانت هناك فتاة فقيرة قد تعلّق قلبها بحب الأمير ، وكان يُخيّل لها انها ستكون زوجته المستقبلية .. حزنت الام لان قلب ابنتها تعلّق بالأمير كثيراً ، فأخبرتها عن قلقها وخوفها من تحطم قلبها ، فمن المؤكد ان الأمير سيختار فتاة من الطبقة الراقية ..

فقالت الابنة : لا تقلقي يا أمّاه وان يكن ، سأذهب ليس هناك ما أخسره ، وذهبت إلى الحفل . . . فجاء الامير وقال : سأوزع عليكِ بذوراً لتزرعوها ، والتي تأتييني بعد ستة شهور وببدها أجمل ورده سأتزوجها .. ذهبت الفتاة وزرعت البذرة .. ولكن دون جدوى .. مرّت ستة شهور ولم تنبت تلك البذرة ، فقالت الأم لابنتها : لا تذهبي للحفل أخاف ان ينفطر قلبك .. فقالت الفتاة : سأذهب يا أمي وأخذ معي البذرة ، بالله عليك دعيني أمتّع ناظريّ برؤية أميرى عن قرب و لو للمرة الأخيرة .. وفعلاً ذهبت الفتاة ..

وفي القصر اصطفت جميع الفتيات وببد كل واحدة منهن أجمل الورود ، الا هي كانت تحمل بين يديها بذرتها التي أثبت ان تنبت و لو برعم بسيط ، فقال لها الامير لما رآها تمسك بذرتها الجافة بيديها: أريد ان أتزوجك انت ، فقالت الفتيات : كيف وهي لم تأتي الا ببذرتها البائسة؟ .. فأجاب الامير : ان البذور التي أعطيتكن إياها بذور عقيمة لا تُنبت ، فجميعكن كاذبات الا هي ، وانا أريد أميرة صادقة ءأتمن عليها مملكتي .. فتزوجها الامير وأصبحت هذه الفتاة الفقيرة حاكمة فيما بعد . . . هذه قصة من الفلكلور الشعبي القديم لكن أعتقد ان العبرة وصلت لطفلتنا المدللة . . . احذري الكذب ، قولي الصدق حتى لو كنت مخطئة ، فإن الرجل سيغضب لحظة أو ساعة أو يوم على الأكثر ، لكنه سيثق بعدها ويطمئن ان حياته وعائلته وممتلكاته في أيدي أمينة ، لا تكذبي ولو كان الأمر تافه ذليل ، لأن بعد الكذبة الأولى ، كل الحقيقة شك ..

•• لا تغضبي عندما يتدخل في اشياء تظنين انها من حدودك وخصوصيتك ، مثل الملابس ، المكياج ، التكلم مع الغرباء ، نوع صديقاتك ، الخروج بنفسك للتسوق ، الضحك بصوت مرتفع خارج المنزل ، اختيار نوع العمل ، الاختلاط بالرجال . . . لا تغضبي لان السبب والدافع من وراء هذا هو الغيرة ، وحبك لك وخوفه عليك ، وهذا ما لا طاقة له عليه ولا صبر ، كل رجل حقيقي يفعل هذا ، والرجل لا يكون رجلاً بلا غيرة ، والغيرة هي مقياس الرجولة في هذه الأيام الحزينة المضنيّة . . . يُحكى ان أعرابياً في زمن الجاهلية رُفّت إليه عروسه على فرس ، فقام فقتل تلك الفرس التي ركبت عليها العروس ، فتعجب الجميع من حوله وسألوه عن سرّ عمله ! فقال لهم: خشيت ان يجلس رجل في المكان الذي جلست عليه زوجتي ولا يزال مكانها دافئاً ..!

انتبهي يا واقع الأحلام وبسمتها ، لان الرجل يتأذى أشد الاذى ويتألم أعظم الألم من نظرة رجل غريب إلى زوجته ..

خرجت سارة مهاجرة مع زوجها النبي إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين ، ولما اشتد الجفاف هناك هاجرت مع زوجها مرة أخرى إلى مصر ، وكانت سارة قد رُزقت حظاً كبيراً من الجمال وحسن الهيئة بحيث انه لا أجمل منها في التاريخ الا حواء عليها السلام التي هي أجمل نساء العالمين ، وفي ذلك الوقت كان ملك مصر يأمر حراسه وجنوده بأن يأتيوه بخبر أي امرأة جميلة تدخل البلاد ،

ولما كانت سارة على ذات قدر من الجمال ، انتشر الخبر بين الناس وعلم الملك بأمرها ، وأدرك إبراهيم عليه السلام معرفة الملك بقدمهما ، فقال لها لما يعرفه من شر هذا الرجل وخبثه: /انه لو علم هذا الجبار انك امرأتي لغالبنى عليك ، فإذا سألك فأخبريه انك أختي ..

طلب الملك من جنوده ان يحضروها إليه ، ولما وصلت القصر دعت الله الا يخذلها ، وان يحيطها بعنايته ويحفظها من شر الملك ، وأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم ان كنت تعلم اني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي الا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر ، فاستجاب الله دعائها..

وعندما أراد الملك ان يمدّ يده إليها بسوء شُلت يده ، فقال لها: ادعي ربك ان يطلق يدي ولا أضرك ، فدعت سارة ربها واستجيب دعاؤها ، وعادت يده سليمة .. لكنه أراد ان يمد يده إليها مرة ثانية فُشلت مرة أخرى ، فطلب منها ان تدعو له ان يطلق يده ولا يمسها بسوء ، ففعلت ، لكنه نكث بالعهد فُشلت يده مرة ثالثة .. فقال لها: ادعي ربك وعاهدها الا ينكث عهده ، فدعت الله فعادت يده سليمة، وطلب لمن جاء بها ان يخرجها من أرضه وقال: ما أدخلتم عليّ إنساناً أدخلتم عليّ شيطاناً ، أطلقوها ، وأمر لها بجارية وهي هاجر ، وتركها ترحل من أرضه بسلام ..

وان الله عز وجل كان قد كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبين زوجته سارة ، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى ان رجعت إليه ، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك اطيب لقلبه ، وأقر لعينه ، وأشد لطمأنينته ..

وكذلك كان نبي الله داوود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، وكان إذا خرج أغلقت الابواب خلفه فلا يدخل أحد على أهله حتى يرجع ..

وكذلك النبي أيوب عليه السلام ، حيث كان رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ، من الانعام والعبيد والمواشي والاراضي المتسعة ، وكان له أولاد وأهلون كثير ، فسلب من ذلك جميعه وابثلي في جسده بأنواع البلاء ، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله بهما ، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره ، وصباحه ومساءه ، وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها ، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته ، وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضي الله عنها ، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة ..

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام الا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً ، حتى ان المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من انواع البلايا ، حتى وصل به الحال انه أُلْقِيَ على مزبلة لبني اسرائيل تختلف الدواب في جسده ، ثم تساقط لحمه حتى لم يبقَ الا العظم والعصب ، فلما طالت المصيبة عليها قالت: يا أيوب لو دعوت ربك لُفِرَّجَ عنك . . . فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله ان اصبر له سبعين سنة . . . وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعمه عليه السلام ..

ثم ان الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم انها امرأة أيوب خوفاً ان ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها باعت لبنت من بنات الاشراف إحدى ضفيريها بطعام طيب كثير ، فأنتت به أيوب فقال: من أين لك هذا وأنكره .. فقالت: خدمت به أناساً . . . فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأنتته به ، فأنكره أيضاً وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام .. فكشفت خمارها عن رأسها ، فلما رأى رأسها مخلوقاً قال في دعائه: إني مسني الضر وأنت ارحم الراحمين ..

هل عرفتني الآن ، كل رجل غيور على امرأته ويمسسه عذاب معظم ، ويلتهب قلبه ضرراً وأذى ان تقرب إليك مخلوق .. فلا تعيبي غيرته عليك ، انها فطرة خلقها الله في الرجال والأمر ليس بيده ولا حيلة له ، يحبك ويراك جوهرته ، وينوي الاحتفاظ بك وحرصتك إلى آخر الدهر ..

•• حافظي على دين وأخلاق زوجك وأولادك وتربيتهم ، حتى يأمن الزوج ويطمئن ان تعبه لسنين وبناء العائلة والحفاظ عليها ، كل هذا العناء لن يذهب سدى . . . ولا تتكاسلي ان تخبريه وتكرري عليه دائماً انك تحافظين على ممتلكاته ، وان عائلته وأمواله بأيذ امينة ، كوني له الامان تفوزين . . . فالرجل مهما بلغ من القوة والمال احتاج إلى شخص يأتمنه على هذا المال ، وعلى حياته وعلى أولاده وتربيتهم..

إذا لم يكن هناك امان لن تكون هناك أسرة ، هل جربت ان تربى زوجاً من طيور الزينة في البيت ، هل لاحظت ان الأنثى لن تبيض حتى تشعر بالأمان ، وإذا اكتشفت انثى العصفور انك تفتحين عشها وتراقبين ببيضها فإنها تشعر بالخوف وتفقد الامان ، وتهجر البيض وتترك الفراخ حتى لو أدى ذلك الى موتها . . . حتى الحيوانات تعلم بالفطرة ان توفير الامان هو الاصل والاساس المتين لبناء اسرة...

•• لديك صفتان راسختان ومتأصلة فيك فاحذريها وابتعدي عنها.. أولها النكد .. النكد في بدايته وأول أيامه جميل ويحرض الزوج على الابتسامة ، ثم يمر العمر ويكون الرد بالشرح والتوضيح ، ثم مواجهة النكد بالنكد ، ثم التوبيخ ، ثم يحدث شيء غير متوقع وهو الرد على النكد بالصمت ، نعم ، الصمت واليأس من الإصلاح وتعزية الحب والعلاقة الزوجية بمصاب اليأس والندم وسوء الاختيار ، مع ان كل الخيارات والزواج من غيرك سوف يؤدي به لنفس النتيجة ، لكنه لم يجرب خياراً آخر ولهذا يظن ان غيره يعيش بسلام . . . قال رسول الله ﷺ : يا معشر النساء تصدقن فإنكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة: وما لنا أكثر أهل النار ، قال: لأنكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير . . .

عزيزتي الزوجة التي تغلي وتلتهب ، ان النكد الذي تداومين عليه بلا ملل أو كلل ، وسواء كنت محقة أو مخطئة ، هذا النكد ومعارضة كل ما يقوم به الزوج يشبه وكأنك تمسكين ملعقة شاي صغيرة جداً وتحفرين اسفل العامود الذي تستند عليه خيمة الزوجية . . . تستمرين بالنبيش والحفر بالنكد ونكران الجميل ومعارضة كل صغير وكبير في حياته بلا توقف ، وبما ان هذه الملعقة صغيرة جداً فلن يبدو الاثر الذي تتركه واضحاً ، وهذا يعني انك لن تشعري بمقدار الاذى الذي تتسببين به يومياً ، وانك سوف تستمرين تحفرين وتحفرين حتى يأتي يوم ويسقط هذا العمود الذي يمسك حياتكما وعلاقتكما ، ويتحطم ما تعبتن سنين في تشييده ، وعندها لن تستطيعي اعادة هذه العلاقة كما كانت أو بنائها من جديد..

ايتها الاميرة ، تذكرني انك رغم جمالك وطيبتك ونعومتك ، رغم كل هذا ، إلا انك نكدية بامتياز ، ومهما تظاهرت عكس هذا فأنت نكدية ، ومهما تمايلت وتأنقت وانتقيت من الكلمات فانت نكدية ، لا تنسي هذا ولا تخفيه ، ولا تغضبي عندما يخبرك زوجك بهذا لأنها حقيقة واضحة . . . كتبت امرأة في مواقع التواصل: "كلما زاد نكد الزوجة زاد معه استغفار الزوج لربه ، فيكون نكد الزوجة رزقاً للرجل ، استمري في نكدك ، انت عظيمة" . . . لذا لا يمكن ان يكون العالم كله مخطئ عندما يصفك الجميع بالنكد .. حاولي إصلاح هذا الأمر رجاء ، أو على الأقل انقاصه وتخفيفه ..

ثانيهما .. تصرخ اصرخ ، تسبني أسبّك ، تشتمني أشتمك ، تعضّني أعضّك . . . في مقابلة مع امرأة روسية متزوجة من رجل مصري ، سألتها الصحفية:

- ماذا تفعلين لو ضربك زوجك ؟
- كلا ، الروسية لا تُضرب ..
- حسناً لنفرض انه حدث هذا ماذا ستفعلين ؟
- كلا ، لا أعتقد انه سيحدث ، ولا يوجد شيء اسمه لنفرض، لأنني روسية ، وأعتقد اني لو لاحظت ان زوجي مشدود الاعصاب ، أو ان هناك بادرة لمشكلة أو عراك لن اهتم ، ولن ارفع صوتي على زوجي ولن ارد عليه ، وسوف اتركه إلى ان يهدأ ويصل أعلى حالات الهدوء ،

لذا لا أعتقد انه سوف يضربني ، لقد رأيت النساء هنا ترد وترد وتقابل الغضب بالغضب والصراخ بالصراخ ، إلى ان يصل الأمر بالزوج إلى ضربها بقوة ..

أنستي ، هل يمكنك مواجهة ثور هائج بالصراخ والنفخ في وجهه ؟ بالتأكيد لا ، بينما يمكنك تهدئته بالمسح على رقبته وظهره وبعض الكلمات الكاذبة المخادعة . . . ابحثي في الرجل عن زر السيطرة الخاص به ، ربما يكون كلمة طيبة أو دلع أو ينقصه الحنان ، أو كان من النوع الذي يُحب ان يُحترم ويُجَل ، أو لديه هواية، أو أفكار يدافع عنها وأشياء يقتنيها ، ابحثي عن هذا الزر في الرجل وسيطري عليه وتجنبي انفعالاته . . . ابتعدي عن النكد والعراك فإنها بداية لنفق مظلم نهايته ومخرجه هو الطلاق . . . وفقاً لدراسة بحثية أجرتها جمعية علم الاجتماع في إحدى الدول عام ٢٠١٥ والتي تشير إلى ان ثلثي حالات الطلاق تبدأ من طرف النساء ، ويقفز الرقم بنسبة تصل إلى ٩٠% إذا كانت النساء حاصلات على تعليم جامعي .. ثم ، ها انت ، عدت لوحدك مجدداً ، حرة ، طليقة ، مطلقة ..

للطلاق تبعات أكبر على الرجل وهذا مؤكد لكن فرصه أكبر للزواج مرة أخرى ، انها معركتك الخاسرة ، فلماذا تصلين بنفسك لهذا الحد من القلق والاكتئاب ، اضطرابات النوم ، الشعور بالفقد والألم والخسارة ، الاحساس بالذنب ، الخجل من الآخرين ، الفوضى الداخلية والافراط في التفكير ، الأمراض القلبية ، واخيراً الآثار الاقتصادية ..

أما الرجل ، حين يتعرض للنكد المستمر فكل ما يفعله هو انه سوف يشغل نفسه بتربية حيوان أو طائر ، أو يدفن رأسه داخل صفحات الكتب وفجأة تجدينه يهوى المطالعة ، أو يقضي وقته خارج المنزل بين المقاهي والاصدقاء ، سوف يفعل أي شيء المهم ان يهرب عنك بعيداً ..

نصحتي لك يا صبية حينا ، توقفي عن الشكوى والتذمر ، عندما تقومين بترتيب غرفة الصغار يعني انهم في صحة جيدة قلتي الحمد لله ، وهذا أفضل بكثير من مرض يمنعهم من صنع هذه الفوضى. . . وعندما يرهقك الوقوف في المطبخ يعني انه لديك ما تطبخينه قلتي الحمد لله . . . وعندما تنظفين غرفة الجلوس قلتي الحمد لله على اجتماع العائلة والأنس واللذة الحلوة وصفاء القلوب ..

ولكن ، لا تتجاوزي الحد في التضحية ولا تصبري على سوء المعاملة.. ضعي حدا لهذه الاساءة ، اصبري على فقر زوجك وظروفه ومرضه وضعفه ، لكن ، لا تصبري على سوء خلقه ولا تصبري على الاهانة ، لأن الإنسان يستطيع العيش بلا طعام ولا أموال ، ولكنه لن يستطيع العيش بلا كرامة . . . وكما قلت لك قبل قليل ارسمي حدودك وليعرف حدوده لكن بلا إساءة وتنقص ، ولا تخافي النتيجة ومآل الأمور ، لأنه سوف يلتزم ويتكيف على احترامك ، خير من ان يتكيف على اهانتك ..

ان سرعة التكيف من أهم وأجل ما يتميز به الإنسان .. ولا يهم ان كانت العاقبة شراً فإنها لم تأتي بديلاً لخير ، وليس العاقل من يعرف الخير من الشر ، ولكن العاقل من يعرف خير الشرين ..

وهذا لا يعني التسرع والمبادرة إلى الوقوف بوجهه أو طلب الطلاق منذ أول خطأ أو اثنين ، اصبري قليلاً وامهلي نفسك بعض الوقت ، فبعد أيام متقلبة سيعلم الرجل انه ليس له غيرك ، يتركه الاصدقاء وينشغل عنه الاخوة ، ويرفع عن مرافقته الابناء ، وتبقي انت الوحيدة التي تأنسين بمجالسته وتفرحين بصحبته ، وتريدين الخروج معه سواء ذهب للمستشفى أو للبقال ..

هذه حادثة قرأتها على الانترنت لا أعلم صحتها من عدمه المهم ان لها ربط مع موضوعنا .. بعد ست سنوات من الكفاح في المحاكم من أجل الطلاق ، أصبح التركي "سليمان جورشي" شخصاً أعزباً وحر ، ثم بعد عامين من الطلاق والتفكير بعناية والحسابات الدقيقة في الإيجابيات والسلبيات ، قرر الزواج مرة أخرى، ولكن هذه المرة ولتجنب فشل آخر ، وضع شروطاً صعبة للمرأة التي تناسبه ويريد الزواج منها ، وأرسلها إلى وكالة الزواج ، ومن بين أكثر من ألفي مرشحة توافق متطلباته ، اختارت الوكالة الإنسانية الوحيدة التي تتمتع بالشروط المثالية التي طلبها سليمان ،

والمفاجأة ان اسمها "نسرین كاجلاس" وهي زوجته السابقة ،
والتي كانت أيضاً تبحث عن زوج جديد عند نفس الوكالة ، بعدها
تزوجا مرة أخرى وعاشا في هناء يسعفه الحذر ..

لا تخافي من الافراط في الطيبة مع زوجك ، وتظنين انه
سوف يتكبر عليك ويقل مقدارك عنده ، على العكس تماماً ..

عشرة معلومات سريعة عن الرجل ..

•• انت ضعيف ، انت قصير ، خائف ، فقير ، فاشل ، ممل ،
تتصرف كالأطفال ، انا أطول منك ، فلان أقوى منك ، اقربائي أفضل
منك ، انت أسوء قرار اتخذته في حياتي . . . هذه الكلمات تهدم الجبال
إياك وإياك ان تنعتي بها زوجك أبداً ما حييت ، فهي أشد من السكاكين
على روحه ، وأقسى ألماً .. لذا ، احفظي له هيئته ولو كان طفلاً ..

•• ان كان من الطيبين يأكل طعامك ويحمد الله ، ويتغافل عن
عيوبك ، ويعتبرك أفضل وأجمل وأنقى امرأة في الكون فاحمدي الله
واستري بيتك الهادي ، وحافظي على زوجك فإنه أمانة عندك . . .
قال رسول الله ﷺ : لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا ، الا قالت زوجها
من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخیل يوشك ان
يفارقك إلينا . . . لذا ، احتفظي بالخير الذي عندك ، واكتمي السر عن
صديقاتك ..

•• اعلمي ان هذا الرجل هو استاذ ودكتور في فن العناد . . .
إذا قال انه سيفعل شيئاً ، فبالأكيد سيفعله ولن يتراجع ، فلا تتعبي
نفسك في المحاولة ، وكل ما عليك هو ان تمتصي غضبه بكلمة طيبة،
ومع ذلك ، فإنه سيقوم بفعلها بأي حال من الاحوال .. أما ما ستحققينه
انت ، فهو عدم حاجته لتكرار تلك الأمور ، فقد حصل على السيطرة
والقيادة ، واطمنن انه الحصان الجامح ، ولا داعي ليثبت ذلك مرة
أخرى .. تخيلي لو انك قلت له: كفاك نظراً لتلك الفتاة ، بالمقابل
سيثبت بصره نحوها ليثبت لك ان أوامرك لا تُطَبَّق عليه ، وانه سيد
الموقف والكلمة ، من باب العناد والقيادة لا أكثر . . . لذا ، لا تناطحي
الحائط ..

•• لن تستطيعي هزيمة الرجل، لن تستطيعي هزيمة مهما
فعلت وأعلمي ان كل ما يفعله الرجل انه يصبر ويصبر ويكتم في قلبه
حتى يأتي يوم ويصيبه اليأس وينتهي رصيد الصبر لديه، فإما ان
تكوني زوجة طيبة أو تنسحي من البداية، أما الحرب فلا مفر لك من
الهزيمة.. لذا، الرجل لا ينسى وإنما يخزن

•• الرجال يفتخرون بالسيارات وعدد التصليح ، وهم كثيرو
الاعتزاز بهواياتهم ويهتمون بنظافتها وصيانتها ، بشكل يفوق الاهتمام
بأجسادهم ومنازلهم . . . لذا ، لا تحرمي الطفل الكبير من أعباه ..

•• الرجال لديهم عاطفة قوية مثل النساء ، لكنهم يفضلون التحدث عن مشاعرهم بصورة غير مباشرة ، ويتجنبون إظهار ضعفهم... الدراسات العلمية وجدت أيضاً ان دموع الرجال عزيزة ، حيث يملك الرجال قنوات دمعية أقل من النساء ، ويملكون ستون بالمئة أقل من هرمون البرولاكتين المسؤول عن البكاء ، وفي الغالب يحتاج الرجال إلى قضاء بعض الوقت بمفردهم ، والانعزال في كهفهم الفكري للتعافي من جرح عاطفي ، أو هرباً من المشاكل والضغوطات النفسية ، وبعض الرجال يلتزم الصمت المطبق لعدة أيام بحثاً عن الشعور بالخصوصية ، والبعض الآخر يفضل الجلوس وحيداً متأملاً في الفراغ ، أو السفر لاستعادة الاتزان النفسي ، قبل العودة إلى الحياة الروتينية . . . لذا ، فإن الاعتراف صعب على الرجل ويعتبره تنازل ، فلا تظني انه لا يحبك ..

•• والرجل بطبعه لا يحب الكلام ، على عكس المرأة بالضبط.. حيث يمكن للمرأة ان تتصل بأقربائها أو صديقتها وتحدث لساعات وساعات من غير ان يخطر على بالها أية فكرة وسبب للاتصال ، اما الرجل فإنه يتصل لموضوع هام ثم يغلق الخط بعد دقيقة أو اثنتين . . . لذا ، فإن الرجل يحب الصمت ولديه الكثير من الفراغ ، فلا تظني انه يفكر بسوء ..

•• الرجال أقل حدسية من النساء ، وقد تكون المرأة أفضل في قراءة لغة الجسد ، لأن أجزاء أكبر من دماغها تنشط عند تقييم سلوك الآخرين . . . فعند القيام بتصوير دماغ النساء باستخدام الرنين المغناطيسي ، وُجدت ستة عشر منطقة دماغية نشيطة أثناء تقييم الآخرين ، في حين نشطت خمسة مناطق فقط عند الرجال .. وقد أكدت دراسة ان الرجال لا يعرفون ترجمة إشارات المرأة ، وأكثرهم لا يجيدون التواصل غير اللفظي معها . . . لذا ، تخلي عن مبدأ لو كنت تحبني لعرفت لحالك ..

•• لا تحدثني الرجل بما سمعت أو رأيت في السوق ، أو موقع أو على الشاشة ، أو في محل ومكتب ودائرة حكومية من فتاة جميلة أو لبس فاضح ، لأنه سوف يذهب ويبحث عنها ، لا تخبريه حتى ولو على سبيل الذم والاستهزاء بها ، سوف يركز في المرة القادمة ليرى ما رأيته . . . لذا ، لا ترشدي الزوج إلى كنوز مخبئة ..

•• تركت المعلومة العاشرة لك ، اكتبني شيئاً من عندك ..

-

وأخيراً وبعيداً عن صخب الرجال ، احذري مما يذاع في الكتب والمجلات والشاشات من اهمية حرية المرأة وان المرأة قوية وانه يجب ان يُسترد حقها وحريتها .. الحقيقة انهم لا يريدون حریتك وإنما يريدون حرية الوصول إليك . . . لا تغرك صديقات السوء ولا تنخدعي بما ترين في الشوارع وفي الشاشات ، فهذه الدنيا حلم جميل نصحو منه عما قريب . . . ولا يغرك الحصول على المال من عمل يغضب الرب جلّ وعلا حتى لو كنت مضطرة لذلك ، احصلي على ما يسندك وقت الشدة بطريقة سليمة ، أو اصبري على القليل من الاذى ويعوضك الله خيراً في الدنيا والآخرة ، وخذي من قصص الطيبات عبرة وتصبراً لك . . . هل سمعت يوماً بامرأة تدعى ماشطة بنت فرعون ، تقول الروايات انها امرأة صالحة عاشت في زمن فرعون ، وسُميت بذلك لأنها كانت تمشط شعر بناته ، ويعيش معها زوجها الذي كان مقرباً من فرعون ، حتى قتله بعدما عرف بإسلامه ، مما اضطر ماشطة إلى إخفاء إسلامها واستمرت في العمل في قصر فرعون لتتنفق على ابنائها الخمسة ..

الا انه في يوم من الأيام ، وقع المشط من يدها وهي تمشط ابنة فرعون ، فقالت وهي تتناولها من الأرض: بسم الله .. فردت عليها الابنة: أبي هو الله . . . لم تتمالك الماشطة غضبها فقالت: كلا .. بل الله ربي وربك ورب أببك . . . فذهبت الابنة إلى أبيها لتخبره . . . فغضب فرعون لوجود من يعبد غيره في قصره .. فنادى بإحضارها وسألها: من ربك ؟.. قالت: ربي وربك الله ..

ازداد غضب فرعون وطالبها بالرجوع عن دينها ، وهددها بحبسها وتعذيبها.. الا انها أبت ان تتردد ورفضت الكفر . . . أمر فرعون جنوده بإحضار قدرٍ من نحاس مليء بالزيت ، وأوقدت النار تحته حتى وصل إلى درجة الغليان ، ثم طلب إيقافها أمام القدر حتى ترى العذاب بعينيهما ، لكنها أقبلت على الموت طمعاً في الشهادة ، الا ان فرعون أراد قهرها على ابنائها ، لعلمه بأنهم أحب الناس إليها ، والتي كانت ترببهم بعد ان قتل أباهم ، فأمر بإحضار الابناء إلى غرفة التعذيب . . . احضر الجنود أكبرهم وهو يصيح ويستغيث بأمه ، ويتوسل إلى فرعون ، فألقي في الزيت المغلي والأم تبكي وتنتظر إلى طفلها وهو يحترق ، حتى ذاب لحمه وطففت عظامه البيضاء فوق الزيت ، وإخوته يغطون أعينهم خوفاً من المنظر .. ثم نظر إليها فرعون وأمرها بالكفر بدين الله ليعفو عن البقية ، إلا انها أبت وتمسكت بموقفها، فازداد غضب فرعون وأمر بالولد الثاني وألقي في الزيت حتى اختلطت عظامه بعظام أخيه . . . وذكرت الروايات انه حينما وصل الدور على الابن الرضيع نطق ، وقال لها: يا أمه ، اصبري فإنكِ على حق . . . ثم انقطع صوته بعد ان ألغوه في القدر ..

بعد ذلك، اندفع جنود فرعون نحوها ، وسحبوها تجاه القدر ، التفتت لحظتها إلى فرعون وقالت له: لي إليك حاجة .. فرد عليها: ما حاجتك ؟ قالت: ان تجمع عظامي وعظام ابنائي ، فتدفنها في قبر واحد.. فوافق فرعون على طلبها ، وألقي بها في الزيت ..

البيوت السعيدة لا صوت لها ..

البيوت المسكينة لا صوت لها ..

العقد المزيف ..

في برنامج يعرض اشياء غريبة وخطيرة يقوم بها الناس حول العالم ، حضرت امرأة في الخامسة والاربعين من العمر ، ترتدي بدلة مصنوعة من الجلد الاسود الحائل للماء ، امرأة ضخمة وقوية الا انها كانت تتحرك كالنساء ، كانت مسابقة تحدي ، وتم احضار حوض زجاجي بحجم حوض الاستحمام . . . استلقت المرأة داخل الحوض وقام المشرفون على البرنامج باحضار صندوق آخر ، وعند فتحه تبين انه كان ممتلئاً بالأفاعي كبيرة الحجم تتراوح اطوالها ما بين نصف متر إلى متر ونصف ، افاعي سوداء وبنية ومرقطة وذات حراشف مرعبة ، تجعلك تهتز وترتعد وانت خلف الشاشة ، تجمدت عيني المقدم وكل من الجمهور وعيني أنا بالطبع حين نرى كيف يحمل هؤلاء الرجال الافاعي ويضعونها داخل الحوض ، ومن بينها كانت هناك الكثير من الثعابين الكبيرة السوداء .. واحدة تلو الأخرى تم وضع الافاعي حول المرأة داخل الصندوق الزجاجي ، واحدة ، اثنان ، ثلاثة ، سبعة ، أحد عشر ، ستة عشر ، والمرأة ثابتة لا تتحرك ، استمر المشرفين على التحدي بإضافة الافاعي ، خمس وعشرون ، سبع وثلاثون ، خمسون ، ستون ، سبعون ، أفرغوا آخر ثعبانين من الصندوق واصبح المجموع اثنان وسبعون ثعباناً ، بدأت الافاعي تلهو افواجاً ..

وبدا الرجلان منهمكان بجدية كبيرة وحذران في عملهما وانتشرت الثعابين داخل الحوض ، تملأ كل خلاء وتسد كل فجوة بين جسد المرأة وزجاج الحوض ، وظهر على المدعوين علامات القلق والخوف والعيون الواسعة . . . عشرات الافاعي تتلوى داخل الصندوق كأنها خيوط متشابكة ، وكان قوام بعض الافاعي جذاباً ليناً زلقاً ، وكانت تنزلق فوق بعضها . . . لم يكتمل التحدي هنا وإنما عليها الصمود وعدم القيام بأي حركة مفاجئة لأكثر وقت ممكن وسط هذه الافاعي التي كانت تلتق بعضها وتلتق اصابع المرأة احياناً ، وكان اثنان من الرجال يقفون بجانب الحوض استعداداً لأي طارئ ..

وبين الحين والآخر كانت المرأة تصدر صوتاً يعبر عن الألم الشديد ، وكأن ثعباناً قد لدغها ، بينما في الحقيقة كان هذا هو صوت الخوف فقط عندما ينزلق الثعبان على ذراعها أو يمر فوق جسدها ، الا انها ورغم كل هذا كانت حريصة كل الحرص على ان لا يجفل أحد الافاعي ، لان ذلك يؤدي إلى عواقب وخيمة .. كان هناك رعب حقيقي لأن عضّة الافاعي لا يمكن الاستهانة بها ، وبين فترة وأخرى كانت إحدى هذه الثعابين تحاول لدغها ولكنها تنجو من ذلك بأعجوبة ، كانت عاقلة كفاية لدرجة انها لم تحاول الحراك . . . استمر الحال لما يقارب نصف ساعة ، وخلال هذا الوقت ربما حاولت الافاعي مهاجمتها لأكثر من عشر مرات ، ولكن لحسن حظها انها لم تصب بالأذى ولا مرة ، المكان داخل الحوض قذر ومرعب ومثير للاشمئزاز ..

عن نفسي لو كنت مكانها لتمنيت ان تنشق الأرض وتبتلعني هرباً من هذا الموقف ، ولسان حالي يقول يا إلهي انقذني ، ولكم تمنيت ان تبتعد كل هذه الأعين والألسن والجلود الزلقة عني ، ولكان اقصى ما اطمح إليه ان اغادر المكان . . . بعد ذلك وبمساعدة المشرفين تم اخراجها بصعوبة لأن حركة واحدة مفاجئة منها سوف تجعل الافاعي تعضها .. بعد اخراجها وتنفسها الصعداء جلست على الاريقة أمام المقدم واخذت تلعب بأطراف اظافرهما كنوع من المواساة ، وكأنها تهدئ من روعها ..

كانت هادئة من الخارج تماماً لكنك تستطيع من بعيد ان ترى ان هناك بعض الخوف داخلها ، كانت تعبت بأي شيء تمسه اصابعها، اضاف الخوف من الجمهور بعض الدراما إضافة إلى خوفها البسيط من الافاعي .. كانت مرهقة بالرغم من انها كانت تجلس ساكنة هامة في حوض الافاعي فقط ، الا انه ارهاق الادريين والقلق والخوف من الفشل ، وبعد ان اطمأنت وهدأت ، سألها مقدم البرنامج عن السبب الذي دفعها للقيام بهذا الأمر الخطير ، عندها قالت انها كانت تعاني من "أوفيديوفوبيا" ومعناه الخوف من الافاعي ، وانها كانت تقوم بهذا التحدي عشرات المرات في بيتها وأرادت بذلك ان تواجه خوفها من الافاعي والتخلص منه ، مع انها طلبت من الجميع عدم تجربة هذا في أي مكان لأنه خطر واقرب ما يكون إلى الموت . . . لقد كانت محقة تماماً فهي واجهت خوفها وتغلبت عليه ..

في داخل كل منا الكثير من الأشياء التي نخاف منها ولا سبيل للتخلص من هذا الخوف الا بمواجهته . . . إذا كنت صغيراً تخاف من قيادة سيارة أو دراجة ، لا سبيل لك للتخلص من هذا الخوف الا بشراء واحدة وقيادتها . . . لست قوياً وتخاف من الناس ، ادخل نادي القتال واضرب وتخط واضرب مجدداً ، ولا يهم ان ابرحوك ضرباً ، عندها تصبح قوياً أو الاقوى بين رفاقك . . . خجول ولست جيداً في الحوار ، اذهب واختلط مع الجميع وتحدث ، وتحدث وتفوه بكل ما يملأ جعبتك من خراب وأطلال ، واستمر بالتحدث حتى يستقر لسانك .. رُوي في كتاب ديوان المعاني: الصمت يورث حبسة اللسان والحصر ، فإن اللسان كلما قُلب بالكلام وتلوى بالقول كان أطلق له .. وقد أخبرني أحد أصحابنا قال: ناطقت فتى فوجدته ذَلِقَ اللسان.. فقلت له: من أين لك هذه الذلاقة ؟.. قال: كنت أعمد كل يوم إلى خمسين ورقة من كتب الجاحظ فأقرأها بصوت مرتفع ، فلم تمض مدة حتى صرت إلى ما ترى ..

هل تعلم كيف يربي المزارعين والصيادين وأهل الريف أولادهم ممن يخاف السباحة ، يقومون برميهِ وسط النهر أو وسط البحيرة وتكرار رميه عدة مرات ، يبكي الصغير ويشهق ويشرب الماء المخلوط بكل شيء ، ويغرق أحياناً ويتم إنقاذه ، ثم يُحمل ويُقذف مجدداً ومجدداً ومجدداً حتى يتعلم ، بل يصبح الأفضل . . . انه قانون مواجهة الخوف ، قانون له عائدة وثمره مع ضمان النجاح ..

هناك قصة من الادب الفرنسي ، اعتمدت على واقعة مأساوية حقيقية حدثت في باريس ، تبين لنا اننا عندما نخاف ونخشى مواجهة الناس وقول الحقيقة فإن الخسارة تكون كبيرة جداً . . . كانت هناك شابة تدعى صوفي ورسام يدعى باتريك ، نشأ كل منهما في إحدى البلدات الصغيرة ، وكان باتريك يملك موهبة كبيرة في الرسم بحيث توقع له الجميع مستقبلاً مشرقاً ونصحوه بالذهاب إلى باريس .. وحين بلغ العشرين تزوج من صوفي الجميلة وقررا الذهاب سوياً إلى عاصمة النور والهيكل المعدني ومحاكم التفتيش ، وكان طموحهما واضحاً منذ البداية حيث سيصبح هو رساماً عظيماً وهي كاتبة مشهورة ، وفي باريس سكنا في شقة صغيرة ، ومع مرور الأيام وخطوة تليها خطوة أخرى كانا يسيران نحو تحقيق اهدافهما ، وفي نفس الحي الذي سكنا فيه تعرفت صوفي على سيدة ثرية لطيفة المعشر ..

وذات يوم طلبت منها استعارة عقدها المصوغ من اللؤلؤ غالي الثمن لحضور حفل زفاف في بلدتها القديمة ، وافقت السيدة الثرية وأعطتها العقد وهي توصيها بالمحافظة عليه ، ولكن صوفي اكتشفت ضياع العقد بعد عودتهما للشقة فأخذت تجهش بالبكاء .. فيما انهار باتريك من أثر الصدمة ، وبعد مراجعة كافة الخيارات قررا شراء عقد جديد للسيدة مساوٍ له في الشكل والمواصفات ، ولتحقيق هذا الهدف باعا كل ما يملكان واستدانا مبلغاً كبيراً بفوائد كبيرة ، وبسرعة اشتريا عقداً مطابقاً وأعاداه للسيدة التي لم تشك مطلقاً في انه عقدها القديم ..

غير ان القرض كان كبيراً والفوائد تتضاعف باستمرار ، فتركنا شقتهم الجميلة وانتقلا إلى غرفة صغيرة في حي فقير . . . تدهورت احوالهما يوماً بعد يوم حتى الجئتهما الظروف إلى ان تخلت صوفي عن عملها القديم وبدأت تعمل خادمة في البيوت ، أما باتريك فترك الرسم وبدأ يشغل حمالاً في الميناء ، وظلا على هذه الحال اعواماً طويلة ، ماتت فيها الأحلام والشباب وتلاشى كل طموح ..

وذات يوم ذهبت صوفي لشراء بعض الحاجات لسيدتها وبالصدفة شاهدها جارتها القديمة في إحدى الطرقات فسألتها:

- عفواً هل انت صوفي ؟
- نعم ، انا صوفي ، من المدهش ان تعرفيني بعد كل هذه السنين !
- يا إلهي تبدين في حالة مزرية ، ماذا حدث لك ؟ ولماذا اختفيتما فجأة ؟
- أتذكرين ياسيديتي العقد الذي استعرتته منك ؟ لقد ضاع مني فاشترينا لك عقداً جديداً بقرض ربوي ، ومازلنا نسدد قيمته
- يا إلهي ، لماذا لم تخبريني ؟ لقد كان عقداً زائفاً لا يساوي خمسة فرنكات ..

الثقة كالحياة ،
لا تُمنَح لنفس الشخص مرتين ..

لا تُمنَح لنفس الشخص مرتين ..
الثقة كالحياة ،

المسبحة ..

يحكى ان ديكاً عاش في مزرعة ، فطلب منه صاحب المزرعة
الا يؤذن في الفجر والا سيعاقبه ، فوافق الديك خائفاً .. ثم عاد بعد يوم
وطلب منه ان يقلد صوت الدجاج والا سينتف ريشه ، فكر الديك قليلاً
ثم وافق مرغماً .. ثم أمره بعدها ان يحضن بيضات الدجاج حتى تفقس
فوافق وذهب إلى البيض يجر وراءه التصاغر والذل .. ثم عاد صاحب
المزرعة بعد أيام وتجبر وطلب منه ان يبيض كالدجاج والا سيتم
ذبحه، فكر الديك البائس واقتنع بنهايته المحتومة وهي ذبحه ، وكانت
نهايته المؤلمة هذه هي نتيجة حتمية لتنازلاته المتكررة فقال: ليتني
دُبحت وانا أُوذن..

لا تتنازل عن أخلاقك وفعالك الطيبة ، لأنك في البداية ستكره
الشر وتحذر منه ، ولكن بعد فترة تتعود عليه وتبدأ تنحدر وتهبط نحو
الاسفل بالتدرج شيئاً فشيئاً ، حتى ينفد كل ما تحتويه من الخير ..

ضرب أحد الصالحين مثلاً للشخص الطيب كيف يهوي نحو
المعاصي والذنوب خطوة خطوة ، ينحدر إليها كما ينزل سلم
السرداب.. فقال: كمثل رجل يرتدي الملابس البيضاء ويسير متهللاً
فيجد بركة من الوحل تعترض طريقه ، يرفع نهاية ملابسه لئلا تتسخ
ويمشي على أطراف اصابعه بحذر شديد ليحافظ على نظافة قدمه
وملبسه ، يخطو بعض الخطوات ،

ورغم حذره الشديد اصابته بعض قطرات الوحل وقد بدت واضحة على القماش الابيض ، غضب وحزن وحاول جاهداً ليكون حذراً أكثر في الخطوات التالية ، وما ان مشى أكثر في هذه البركة الموحلة حتى ازداد الطين المتناثر على ملابسه . . . نظر إلى حاله وندم لأنه لم يبحث عن طريق آخر من البداية لكنه مع ذلك لم يتراجع ، وإنما ازداد عناداً وحاول ان يعبر المكان ويزداد حذراً أكثر في الخطوات التالية ، وما هي الا بضعة خطوات حتى اكتشف ان البركة اصبحت أكثر عمقاً ، غاصت قدمه في الطين واتسخت ملابسه ، وبدل القطرات اصبحت هناك بقع كبيرة من الوحل على أطراف ثوبه ، وكلما مشى أكثر كلما ازدادت البركة عمقاً ، وكذلك زادت بقع الطين على ثوبه ، فلما رأى حاله واعتاد الأمر ، أفلت أطراف ثوبه من يده ومشى بخطوات واسعة ، حتى انه بدأ يخوض في الطين بجسده وملابسه غير مبالي بما سيصيبه من الوحل وعمق المستنقع ..

ويمكن تشبيه هذا المثل بالرجل الذي يكذب ويعتاد الكذب ويستمر على الكذب ثم لا يشعر انه يكذب ، ويعتبرها صدقاً أو يعتبرها مجرد كلام عابر . . . كان هناك رجل عجوز يعمل بجانبه عندما كنت صغيراً وفي أحد الأيام كنا نتناول وجبة الغداء معاً ، فنظر إلى قفل المحل القديم وهو من النوع الكبير ثقيل الوزن ، فقال لي وهو يندب أيام فتوته: عندما كنت شاباً كنت امسك هذا القفل بيد واحدة فاعصره وأكسره ..

وهناك رجل آخر في حَيِّنا اسمه طارق ، وكان يخبر الجميع عن بطولاته ومغامراته ، وأنه كان يوماً في الجيش اثناء الحرب الإيرانية العراقية ، وقد ضل طريقه مرةً وعُزل عن رفاقه بين الجبال، ثم تذكر ان سلاحه يحتوي على طلقات نارية مذبذبة ، فوجّه سلاحه الرشاش إلى الأعلى وكتب بالرصاص على السماء "طارق محاصر" فما هي الا لحظات حتى جاء رفاقه لنجده ..

وسرد لنا قصة في حادث وزمان آخر ، وأنه كان يقود سيارته العسكرية متجهاً لمدينة البصرة ، ولم ينتبه إلى العداد حتى نفذ وقود السيارة ، توقف على جانب الطريق ونظر يمناً ويسرة فلم يجد الا بقرة قريبة منه تنزع حشائش الأرض بشفاهاها ، فذهب وحلب ضرعها وملاً خزان السيارة وانطلق ، يُقسم طارق هذا ان السيارة كانت تمشي بسرعة مرتاحة ، وكانت تقذف الجبن المثلثات من فتحة العادم ..

وكذلك الزنا ، يتدرج إليه الإنسان خطوة بعد خطوة منذ أول نظرة ، ثم تتبعها ابتسامة خجولة ، ثم كلمة ، حتى ينزلق داخل مستنقع الزنا ويواجه تبعاته ، ومنها ان يكره الرجل زوجته وهي تكرهه لأنه جرب شيئاً آخر وبدأ يقارن ، لقد سقط منذ الخطوة الاولى ، وخطوة تتبعها اخرى حتى وصل الى هذا الحال ، كما قال الله سبحانه وتعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)) ..

وهذا ما حدث مع رجل كان يذهب باستمرار لبيت من بيوت البغي والرديلة ، فما كان من زوجته الا ان سبقتة يوماً إلى ذلك البيت واتفقت مع صاحبة البيت ان تطفئ المصباح وتدخل زوجها عليها ، فلما دخل عليها أخذ يلمسها ويتغزل بها ، ويثني على جمالها ونعومتها وعطرها، وبينما هو على تلك الحال اشعلت زوجته المصباح ، فنظر إليها وعرفها فقال بلا تردد: ما أجملك في الحرام . . . نعم ، خطوة تتبعها اخرى حتى اصبح لا يجد متعة ولا سروراً ، ولا يطمئن له قلب إلا عن طريق الحرام ، ولأن الحرام كماء البحر كلما شربت منه ازددت عطشاً ..

يُقال ان شاباً وقع في عشق ابنة كبير الشحاذين ، ولما علم أباه بذلك حاول صدّه عن تلك الزيجة المسمومة ، الا انه لم يبالى وأصر على الزواج منها ، وعندما توجه الشاب مع أهله لخطبة الفتاة قال جدها: ان مهر ابنتنا غالٍ وقدره عشر دنانير . . . تبسمت وجوه الحاضرين باستغراب ، فهو مبلغ زهيد ، ولكن العجوز أضاف شرطاً آخر ، وهو ان يحصل العريس على هذه الاموال من التسوّل .. فعرضت عليه مئات الدنانير حتى يرجع عن ذلك الشرط القاسي ، لكنه أخبرهم ان هذه الزيجة لن تتم الا بهذا الشرط ..

فلم يجد الشاب مهرباً من الرضوخ لطلب الجد ، فلبس رث الثياب ومرقوعها وأخذ يسوح في البلاد ، وظل هائماً حتى جمع المبلغ.. وعلى الفور اتجه للجد ووضع العشرة دنانير بيده ..

فسأله الجد: هل شعرت بشيء غريب يحدث لك في رحلة التسول التي قمت بها ؟ فقال الشاب: لم أشعر بشيء الا مع آخر درهم، فقد قادني حظي العاثر لرجل شحيح لم يستجب لتوسلاتي ، ولكن لشدة حرصي على الدرهم تبعته ولزقت به كالقراة ، فصدني بكل أشكال الصد وانواعه ، وحينها أحسست ان شيئاً بين عيني قد انقطع كإنقطاع وتر مشدود .. وهنا ابتسم العجوز وقال قولته التي صارت مثلاً: ما دام خيط الحياء انقطع من بين عينيك ، فلا خوف عليك ..

أيها الحبيب اللبيب ، تنبه لأمورك ومبادئك ، فعندما توافق وتذعن وترضخ ، ستصل لهذه المرحلة من التنازل والتذلل ، والخضوع والخنوع ، وفعل كل ما هو رديء وفاسد ، ثم يظهر ويتجلى أمامك طريقتين لا ثالث لهما ، فإما التباهي والتبجح بفعله رغم انه قبيح وسيء ، أو القيام به مكرهاً رغماً عن انفك ، وسينتهي عندها كل خير فيك ، هذه الحياة تشبه المسبحة ، ما ان ينقطع الحبل وتفلت أول خرزة فما بعدها ينزلق بسهولة ..

كن حذراً من البداية ، فها هنا في عالمنا ، لا شيء يعود كما كان ، والتنازل نزول .. لا شيء غير هذا ..

لا يُعيد الضحك ما أذهبه الغضب ..

لا يُعيد الضحك ما أذهبه الغضب ..

أفضل ما تعطي وتقدم للآخرين هو الأخلاق ، فإن كل ما تفعله في حياتك اليومية وتعاملك مع البشر فهو لك وخاص بك ، وربحه لك ومردوده عليك ، حتى في أمور العبادات ، انت تفعل ما تؤمر به لتفوز بالجنة وتنجو من النار .. إلا الأخلاق ، فإنها للناس من حولك على تنوعهم ، ان كانوا غرباء أو أقرباء أو من عائلتك فأخلاقك لهم ينتفعون بها . . . في هذا الزمان حيث انحسرت الأخلاق وبدأت بالتلاشي كأنها راتب الموظف بعد اسبوع ، ان كنت صاحب أخلاق فاضلة ومحباً للخير ستصبح كمن يوزع الماء البارد المثج على التائهين في الصحراء . . . أعتقد ، والجميع يوافقني في هذا الامر ، على ان أجمل شيء في هذه الحياة هي الأخلاق ..

أما بالنسبة لمن يسرف في فعل الخير .. أقول له .. انتبه ، لا تكن ليناً فتعصر ، لا تبالي ولا تسرف في التواضع ، كن على طبيعتك ليعرف الناس ان فيك جانب سيء وجانب صالح ، ولكن بحدود أخلاقك وتربية اهلك وتعاليم دينك ، لأنك إذا كنت طيباً فقط سيصيبهم الذهول والدهشة ان طالبت يوماً بحقك ، أو أعطيت رأيك أو اعترضت ، أو نبّهت من اساء إليك وبينت له حدوده ، عند ذلك يستغربون وتسجل نقطة سلبية عليك . . . كن على طبيعتك ليعرف الجميع انك إنسان لك مساوئ ومحاسن مثلك مثل أي شخص .. فالطيبة لا تعني ان تكون ساذجاً ، بل عليك ان تتحلّى بالقوة أيضاً ، حتى لا يفسرها الآخرون ضعفاً وجبناً ..

قرر ثعبان ان يتوب عن أذى الآخرين ، فسأل حكيماً ماذا عليه ان يفعل ؟ فأمره ان يذهب إلى مكان معزول لا أحد فيه ، وأن يكتفي بالطعام الذي يكفي قوت يومه دون ايداء ولا عض ولا تخويف ، ففعل الثعبان ذلك واتخذ بستاناً بعيداً جُحراً ومأوى له ، وبات لا يؤذي أحداً ، فقرر بضعة من الصبيان ان يضربوه بالحجارة كل يوم ، ولكن الثعبان التائب لم يرد عليهم فشجعهم ذلك على ضربه ورجمه أكثر ، حتى كادوا ان يقتلوه وهم يمرحون ، فعاد حزيناً إلى الحكيم يسأله عما يجب فعله ؟ فقال له: قف منتصباً واصدر صوت فحيح عالٍ وانفث القليل من السم في الهواء مرة واحدة حتى يراك الصبية فيبتعدوا عنك ، وبالفعل قام الثعبان بفعل ذلك فخاف منه الصبية وابتعدوا عنه نهائياً ، وتركوه تائباً في هدوء وسلام ..

احذر وتمهل قبل ان تخطو الخطوة
السيئة ، تمهل كثيراً ، فكل شيء إذا
ذهب لن يعود أبداً ، ثق بي يا صديقي ..

ذهب لن يعود أبداً ، ثق بي يا صديقي ..
السيئة ، تمهل كثيراً ، فكل شيء إذا
احذر وتمهل قبل ان تخطو الخطوة

اخطاء طويلة الأمد ..

هناك اخطاء تسمى اخطاء طويلة الأمد وهي طويلة الأمد لأن آثارها مؤلمة ومستمرة .. احذر ان تكون سبباً لهذا النوع من الاخطاء، كالغدر ، وخيانة من كان له فضل عليك ، أو خذلان من جاءك ملهوفاً واثقاً من مكانته في قلبك ومتأملاً انك لن ترده خائباً ..

فعندما يأتي الخذلان من شخص عزيز لن يفقد الإنسان الثقة بشخص واحد ، وإنما يفقدها بالجميع ، يعيش بعدها فراغاً لا يملئه شيء أبداً ، ولن يسمح لأحد بالاقتراب منه ، ويرى الجميع مشاريع خذلان مع وقف التنفيذ ، تتبدل مشاعره ، ويتغلب عليه الصمت ، ويهيمن عليه الفراغ ، ويصبح الشخص حذراً يترقب الاذى من الجميع.. كالذي نجا من الغرق ، صحيح انه نجا ولكنه سوف يخاف من الماء إلى الابد ، وسيبقى حبيس جراحه . . . قيل لرجل يوماً: هل يمكنك مسامحة من خانوك ؟ فأجاب: ان من يخونوك كأنهم قطعوا ذراعيك ، تستطيع مسامحتهم لكنك لا تستطيع عناقهم ..

هناك اكثر من الاخطاء طويلة الأمد عليك التحرز منها لأن خطوة صغيرة في الاتجاه الخطأ سوف تدفع ثمنها سنة أو عشر سنين من العذاب ، كشراء بيت بلا درأسة ولا تخطيط ، أو الدخول في مشروع خاسر ، ومن الممكن ان تدفع الثمن عمرك ، كله كرجل تزوج على عجل ثم ندم على مهل ..

ويزداد ألمك إذا كنت خائف وتخشى خطوة التغيير. . . أهون هذه الاخطاء هو الوشم ، وأشدها أذى هو التبذير المبكر ، كغني وفقير زرعاً شجرتين معاً في نفس الوقت ، لكن الفقير جزّ ثمار شجرته مبكراً ، والغني صبر وانتظر واعتنى بشجرته حتى امتلأت بالثمار ، ثم اخذ ما يكفيه واستثمر الباقي في بيعه وزراعته وحفظه لوقت آخر.. فهذا عقل الغني وهذا طبع الفقير ، والغني ما ان يحصل على مال سيفكر كم يدخر منه وكيف يتحكم بالباقي ، والفقير لو حصل على مال سوف يرتبك ويتحير كيف ينفقه . . . وكذلك من ظن ان العمر طويل فأغرق نفسه بالملذات والشهوات والاسراف في المحرمات ، ثم تلقفه الافلاس والفقر والديون بلا رحمة ، احذر من الاخطاء طويلة الأمد ..

أخذ راعي الاغنام يقود قطيعه يومياً إلى المراعي الفسيحة وهو يعزف بمزماره الخشبي ، ثم يستلقي عند انتصاف الظهيرة تحت اغصان شجرة وارفة الضلال ليستريح ، وفي أحد الأيام وبينما كان الراعي يستريح كعادته وإذا به يسمع صوت هسيس صادر من الاحراش القريبة منه ، فانتابه الفضول وتتبع الصوت حتى قاده إلى ثعبان كبير وقد علق ذنبه بين حجرين ، وهو يصدر صوت فحيح وهسيس ويتلوى محاولاً التحرر فلا يفلح .. تقدم الراعي بهدوء وقد أشفق على الثعبان وخضخض أحد الحجرين فتحرر الثعبان ، وزحف نحو الراعي مصوباً نظره ولسانه إليه ،

فجلس الراعي وأغمض عينيه وقال: لا بأس ، ان كنت ستلدغني فهذه طبيعتك ولست نادماً لأنني حررتك فهذه طبيعتي .. ثم فتح الراعي عينيه فشاهد الثعبان يزحف بين الاعشاب مبتعداً حتى اختفى ..

في اليوم التالي وبينما كان الراعي يجلس تحت ظل شجرته المعهودة ويعزف بمزماره وإذا به يرى الثعبان ذاته يقترب منه وهو يتهدى على انغام المزمارة ، فاستمر الراعي بعزفه إلى ان توقف الثعبان عن التمايل ، ثم وضع قطعة ذهبية كان يخبئها في فمه أمام الراعي وانصرف ، سر الراعي كثيراً بذلك وأخذ القطعة وشارك الفرحة مع عائلته لدى عودته للبيت . . . استمر ظهور الثعبان الراقص على انغام مزمارة الراعي يومياً في نفس الوقت من النهار ، وفي كل مرة كان يضع قطعة ذهبية وينصرف ، فكان الراعي يأخذها ويحمد الله ويترك الثعبان لشأنه ..

وبعد شهر قرر الراعي الذهاب إلى الحج بما جمعه من مال فأعطى المزمارة إلى ولده الشاب ، وأخبره بقصة الثعبان ، وأمره ان يعزف به في الظهيرة وقت الاستراحة حتى تستمر العائلة بالحصول على قطعة الذهب يومياً ، سافر الراعي فقاد ولده القطيع لنفس المكان وجلس مجلسه تحت ظل الشجرة وشرع بالعزف ، فشاهد الثعبان يأتي متمائلاً مع حركة المزمارة تماماً كما أخبره والده ، ثم ترك الثعبان قطعته وغادر ، وتكرر الحال في اليوم الثاني والثالث والرابع ..

بعد عدة أيام سأم الفتى من انتظار قطعة واحدة يومياً وقال في نفسه: لابد ان هذا الثعبان يعيش قرب كنز كبير . . . قرر الفتى ملاحقة الثعبان إلى وكره ، فنتبعه بعد نهاية المعزوفة حتى رآه ينسل داخل جحر فهجم عليه وضربه بفأس كانت معه فقطع ذيله ، فالتفت إليه الثعبان ولدغه في رقبته ، فعاد الفتى إلى بيته بعد جهدٍ جهيد حيث توفي هناك متأثراً بالسم ..

عاد الراعي الأب من الحج وعلم بمصرع ابنه ملدوغاً فأيقن ان ولده قد أساء التصرف مع الثعبان ، وبعد مضي فترة من الزمن استأنف الراعي عمله في رعي الاغنام ، وعند الظهيرة شرع بالعزف لكن الثعبان لم يحضر فاستمر الراعي بالعزف حتى شارفت الشمس على المغيب ، واخيراً ظهر الثعبان مبتور الذنب ، لكنه لم يكن يتراقص بل وقف يطالع الراعي عن كثب . . . فقال له الراعي شوقاً وحنيناً: هيا يا صديقي لنستمر كما كنا ولننسى ما حصل ..

وهنا نطق الثعبان بحزن قائلاً: انت مخطئ أيها الراعي ، لا يمكن أبداً ان ننسى ما حصل ، فكلما نظرتُ انا إليك تذكرتُ ذيلي المقطوع ، وكلما نظرتُ انت اليّ تذكرتَ ولدك المصروع ، فهذه الدنيا لا تبقى على حال واحدة ، والاقوات الجميلة من الصعب ان تدوم إلى الأبد ، وداعاً يا صديقي ..

قال الثعبان ذلك ثم اختفى إلى غير رجعة ..

من المستحيل جداً أن يستمر حديث
بين رجل وامرأة بدون كذب ..

من المستحيل جداً أن يستمر حديث
بين رجل وامرأة بدون كذب ..

أها ، لحظة من فضلك ، تذكرت شيئاً ، انها اثنا عشر ..

- ماذا ؟
- اثنا عشر باصاً ..
- ماذا تقصد ، لم أفهم ؟
- جواب اللغز ، لغز الباصات التي يقابلها المسافر اثناء الطريق ، عندما يغادر بغداد ، انها اثنا عشر باصاً .. لأن المسافر لا يقابل ست باصات فقط ، وهي الباصات التي خرجت من مدينة الموصل إلى بغداد ، والتي انطلقت مع بدء رحلته بنفس الوقت ، ولكنه سيقابل أيضاً تلك الباصات التي كانت في الطريق والتي انطلقت قبل بدء رحلته بست ساعات . . . أعتقد ان النتيجة مبهمة وأشد تعقيداً من اللغز نفسه . . . لكنها سوف تبدو أقرب للفهم والحقيقة في حال قمت بتجربتها يوماً ..

عامل ولباخ وبائع خضار وأرنب ..

هل تذكر قصة الأرنب الذي أراد ان يصبح شجاعاً في كتابي الثاني "لديك قلب أرنب" هذه القصص الثلاث التالية يكمن فحواها ومقصدها في قصة الأرنب نفسها . . . الأرنب الذي أراد ان يصبح قوياً ..

ذهب أرنب صغير خائف إلى جذع شجرة ناطق، جذعٌ ساحر، أراد الأرنب ان يصبح قوياً ، وطلب منه ان يحوله إلى ثعلب مكار ، لبي الساحر طلبه وبلمح البصر تحول إلى ثعلب شرير .. بدأ يمشي بغرور في الغابة ويقفز أمام الارانب ويُحدث صخباً وضجيجاً ليخيفها، ثم سمع نباح كلب فارتعد وهرب ، رجع إلى الساحر وطلب ان يحوله إلى كلب لأن الكلب أقوى من الثعلب ، استجاب لطلبه وبلمح البصر تحول إلى كلب مخيف يلهث ، وخرج يلهو في الغابة وطارد بعض الثعالب انتقاماً منهم . . . وبعد ان تعب وجلس يريح بدنه سمع عواء ذئب من على بعد أميال ، كاد يتلفظ قلبه من حلقه من شدة الخوف ، رجع مرة أخرى إلى الجذع وطلب هذه المرة ان يحوله إلى ذئب بعيون مخيفة ورأس ضخمة مستدير ، لم يرفض الجذع ونطق بكلمات غريبة فتحول الكلب إلى ذئب شرس ، طارد الذئب كل من الارانب والثعالب والكلاب وكثير من حيوانات الغابة ، واصطاد بعضها وتناول حتى الشبع .. وفجأة أحس بالأرض ارتجت من تحته ..

انه زئير ملك الغابة ، هرب مسرعاً ولم يلتفت ، مباشرة إلى الجذع الساحر وطلب ان يحوله هذه المرة إلى أسد قوي تخاف منه جميع حيوانات الغابة ، نظر إليه الجذع بتهكم واشفاق وقال له: مهما حاولت ، ومهما تحولت ، لن تصبح قوياً أبداً ، لأن لديك قلب أرنب ..

العامل .. يمر عامل تنظيف وتسليك المجاري وهو يركب دراجته الهوائية ، رجل طيب مؤدب قصير القامة ، وهادئ ، يعمل كل الاوقات ، ومتى ما احتيج إليه .. يتصل به أي شخص بحاجة لتسليك انابيب الصرف الصحي ، فيهرع صاحبنا ويمتطي دراجته ويتجه إليه.. لا يخرج من عمل ولا يتأفف من اتصال ، ينفق القليل ويدخر الكثير ، يبدو انه يبحث عن الراحة التي تأتي في النهاية ، الراحة التي يقال عنها من يضحك اخيراً يضحك كثيراً . . . استمر لسنين يُحشد كل فلس ودرهم ودينار يحصل عليه حتى اشترى قطعة أرض على شارع تجاري ، بعد عدة سنين من الحرمان القارص الموجه ، ثم بنى قطعة الأرض هذه ، وظل يرفع بنيانها ..

خليط من طابوق وبلوك ، واستعمل للسقف الأخير قطع من "الساندويتش بنل" وهي الصفائح المعدنية المعزولة بنوع من الاسفنج العازلة للحرارة ، وكذلك استعمل بعضاً من قضبان الحديد المرمية الزائدة عن حاجة جاره أو صديقه ..

وكان يدفع اجرة العمل بالأجل والتفسيط ، وربما باع أسورة الذهب الخاصة بزوجته ، وغيرها الكثير من الادوات المساعدة حتى انتهى الصرح المتواضع بعد عدة سنين أخرى . . . اكتملت عمارة بأربع طوابق ، وفي كل طابق شقتين للسكن ، ودكانين في الطابق الأرضي ، عمارة متماسكة نوعاً ما ، أعتقد انها واحدة من أسوء البنايات التي تمر عليها في حياتك كلها ، المتكئة على جارتها ، حصيلة خردة من الحديد ، وخليط من البلاط الملون ، وكل طابق بلون مغاير ، وكل جزء من الطابق يحتوي على بلاط للأرضية بعدة ألوان متناقضة ..

أصبح سعرها بعد عشرة سنين قريباً من نصف مليار دينار ، بعد سنين طويلة من خزن الأموال وبدل الايجار وعمل التسليك ، سمعت انه يمتلك الآن خمس أو ست عقارات مختلفة ، وكلها مؤجرة ويستلم هذه الأموال ويردّها ويكدسها فوق بعضها للخزن والاستثمار.. وصل صاحبنا للهدف شكلاً وقالباً ولكن ليس قلباً وهامةً ..

استمر صاحب هذه العمارة في مزاوله عمله السابق وهو تنظيف المجاري .. نفس الدراجة الخائرة المتعبة ، ونفس أسياخ الحديد ونفس الوجه المجهد ، ويمكنك ان تحكم عليه من على بعد ميل وبكل سهولة انه عامل تسليك المجاري مصنوع من الزمن القديم ..

كان إنساناً ناجحاً يحسده الجميع على أمواله ، ولكن لم يحسده أحد على بقاءه في نفس المهنة . . . منعه قلبه ، قلب عامل تنظيف المجاري ، قلب لا يستطيع ان يسمو به إلى مستوى مالك عمارة على شارع تجاري وعدة بيوت وعقارات متفرقة ، يجمع بدل الايجار ويهنأ بهذه الاموال لما بقي من عمره الاحدب ..

اللَّبَّاحُ .. أحد البيوت التي سكنتها في حياتي ، حياتي المستمرة بصعوبة إلى الآن ، كان في منطقة الدورة حي الميكانيك قريب من المركز الصحي ، بعد ان تتجاوز المركز بمئتي متر وعلى جهة يدك اليسرى ترى اسواق "البركة" وبجانبتها أفران صمون "الزيتون" .. عندما تصل هناك إذا نظرت إلى الجهة المقابلة للأسواق سوف تشاهد اربع محلات لتصليح وتجارة قطع غيار السيارات ، خلف هذه المحلات شارع ضيق يميل بزاوية حادة للخلف ..

اشتريت هذا البيت ، في الحقيقة هو ثلث بيت تقريباً ، اشتريته مناصفة انا وشاب آخر ، وكلّ منا حصل على قدر ما دفعه من أموال، أخذت انا مئة متر وحصل صاحبي على مئة وستون متر المتبقية ، قطعت المئة متر خاصتي ببناء حائط على طول البيت ، ليتبقى نصيبي من البيت هو صالة الاستقبال وغرفة نوم في الطابق الأرضي وغرفة اخرى في الطابق الأول ، بلا درج أو مطبخ أو حمام ، ولا حتى دورة مياه ، لذا وجب ان اعيد تصميم الخريطة واستحداث ما ينقصه ..

المهم ، موضوع البناء والخريطة ومتطلبات العمل ليست غايتي هنا ، وإنما أحد العمال ، هو الهدف من المقال ومحور هذا السرد ، اللُّبَّاخ ، كما يسمى في لهجة بلدنا ، وهو عامل طلس الجدران بالجبس والاسمنت . . . طلب مني مليونين ونصف المليون دينار اجرة عمله لترميم جدران البيت ، حاولت تخفيض المبلغ لما يقارب المليونين ولكنه رفض العمل ، فرك يديه كما تفعل الذبابة وغغم بصوت منخفض ثم انصرف ..

أحضرت عاملاً آخر واتفقنا على مبلغ مليون وستمئة ألف دينار ، والحمد لله اكتمل البيت وسكنت فيه مع زوجتي وأولادي لفترة من الزمن . . . كنت يوماً أسير في الشارع فرأيت اللبّاخ الذي رفض العمل وأصرَّ على مبلغ باهض ولم يتنازل ويخفض من تكلفة العمل ، رأيته يقف قرب كوم من النفايات يفتش بعناية فائقة عن أي أداة بها روح ، يفحص بعينه الواسعتين عن أي شيء قابل للاستعمال يمكن الاستفادة منه .. حاورت نفسي سراً ، متعجباً:

ايها الرجل ، ماذا هناك ؟ لا يوجد شيء بالتأكيد، لو انك رضيت بالمبلغ الذي قايضتك عليه لاشرتيت ما تحب ، ولكان غيرك الآن يبحث في القمامة التي رميتها بنفسك . . . الا انه في الحقيقة لديه قلب يُزَيِّن له البحث عن أشياء يسهل الحصول عليها ، وان كانت لا تساوي فلساً ، قلب عامل فقير قليل الحكمة والفتنة ، ينظر للأرض ، للأسفل ، للرخيص المرمي ..

وموظف آخر يعمل في دائرة المجاري العامة ، كان يقول
بزهو: اسأل عني في الدائرة ، انا يلقبوني بالصرصار . . . وآخر كان
يتحدث إلى الزبائن في صالون الحلاقة انه انتحل وصاحبه دور
ضابطا أمن وسرقا بالحيلة أموال السائحين . . . الأول يفخر كونه
عامل محترف في فتح المجاري والثاني يفخر كونه سارق . . . لديهم
قلب رديء ، قلب اعتاد الامتهان والتذلل والتدني ..

على الإنسان ان ينسى ويتخلى عمداً عن سيء طبعه وعاداته
التي نشأ بها ويتبدل للأزكى ، كما تغير حاله عليه ان يغير من افكاره،
وإلا سيبقى حبيساً لأفكار الفقر والدنو ، أفكار المشقة والجهد ، أفكار
استحقار النفس وبقائها تتردى في الذل . . . إذا وفقك الله وتغير حالك،
إذا انتقلت يوماً إلى حي الطف وانظف ، أو دخلت مرحلة دراسية
جديدة ، أو زاد عمرك وكبرت وانتقلت لمرحلة أخرى ، أو نمت راتبك
وأصبحت غني مترف ، انت أيضاً تغيّر ، وغيّر شكلك وحياتك وقلبك
وقالبك ، وكن غني النفس ، غني الافكار .. بَدَل طباعك وتصرفاتك
وافكارك القديمة المُخجلة ، تبرأ منها ، انها تشبه لحاء شجرة عتيقة ،
إذا تخلصت منها أصبحت أجمل وانظف .. قال رسول الله ﷺ : ان الله
يحب إذا أنعم على عبدٍ نعمة ان يرى أثر نعمته عليه ..

بائع الخضار ..

قلما كنت انسى هذه الحادثة ، ولكني كلما تذكرتها تذكرت حُبث القلب المريض المعدم ، ورغم انها كانت تشبه غمامة ألم في داخلي ، الا انها كانت جذابة جداً عندما أخبر بها أولادي ويصغون إليها باشتياق ، يتفرسون وجهي دون ان تطرف لهم عين خشية ان تفوتهم كلمة . . . كان عمري ثلاثة عشر عاماً وكنت في الصف الثاني متوسط ، تركت الدراسة سنة كاملة لمساعدة أبي في العمل ، اخرج من السادسة صباحاً حتى الثامنة ليلاً ، يوقظنا والدي فجراً ، نغسل وجوهنا ونتناول الطعام ، في بيوت الفقراء نجلس على الأرض ونأكل أي شيء تطبخه لنا أمي ، وبينما نحن نأكل كانت أمي تسابق ملاعقنا الجائعة وتضع فتات الخبز لنا في العصيدة الساخنة ، كفراخ البط ..

ثم تخرج جدتي رحمها الله من حجرة نومها وعلى رأسها فوطة سوداء ثخينة تلبسها فوق قطعة قماش ، سوداء أيضاً ، ولا يهم ان كنا في الصيف أو الشتاء ، تحدثنا بكلمات ريفية لطيفة حيث مسقط رأسها .. ثم نغير ملابسنا ونذهب للسوق والعمل في بيع المواد الغذائية.. الكبار يمشون في المقدمة ثم نتبعهم ، نحن الصغار بوجوه مرحة راضية ، وعلى طول الطريق يركل أحداً الآخر ، أو يصدم كتفه ، أو يمد يده ليقع أغراضه عمداً ، ثم التظلم للأب المشغول البال وادعاء البراءة والعفوية ..

ندفع عربية محملة بالمواد الغذائية ونرتب الاغراض معاً
وننتظر رزقنا بفارغ الصبر والثقة ، اتناول طعام الغداء الذي احضرته
معي في نفس مكان العمل ، أو اطلبه من المطعم ، من الرائع ان يُسمح
للرجل الصغير تناول الطعام خارج المنزل ..

تعب ونعاس وجوع وحر ، أو صقيع .. بعد المغرب يصبح
الجو رطباً من كثرة الزحام والسوق المكتظ بالبشر ، ونشعر بصعوبة
التنفس . . . في يوم من الأيام وبعد مرور ساعتين بعد شمس الظهيرة
ونحن جالسون في الحر والصمت ، لم نكن قد بعنا الكثير هذا اليوم
وقد مر الوقت بلا عمل ولا حراك ولا ربح ، ولا ادري ما نفع جلوسنا
هنا ، على هذا الحال ، فحتى الكلب لم يكن يحتاج لخدماتنا . . . كانت
تعمل قريباً مني بنت سمراء صغيرة لكن ملامحها جميلة ولها وجه
صغير وعيناوان سوداوان تشع ذكاءً ..

وجد أخي علامة صغيرة من القماش التي تخاط على ياقة
الملابس من الخلف ، مكتوب عليها شركة البتول ، فقال لها أخي وهو
يناولها قطعة القماش: بتول ، هذه لك . . . ظنت الفتاة انه يريد التحرش
بها ، أو انه أراد اعطائها ورقة تحتوي رسالة غرامية سخيفة ،
فأخبرت البنت أمها ، وأرسلت الأم في طلب اخوتها الكبار ..

وبعد فترة ليست بالبعيدة جاء اخوتها ، اثنان من الشباب الغاضبين وكانت ملامح الشر تظهر على وجوههم ، وبدأ العواء والتهديد بتلقين أخي درساً قاسياً بعد المساء ، بعد ان يغلق السوق ، جاء المساء ، وجاء الشبان أيضاً ، وكان أخي يصلي ، انتظراه حتى انتهاء الصلاة ثم تحدثا معه وذهبا ، أخبرني أخي انه كرر دعاء خاص بالنجاة من المصائب مئة مرة . . . لقد حُلَّت المشكلة التي صُنعت سهواً وغباءً .. ولست ألوم اخوتها على غيرتهم ، فهذا ما وصل لهم من المعلومات ، وهذا هو رد الفعل لكل شريف غيور على بناته ، ولست أعجب من أمرهم ، ولكن عجبي عن قصة سمعتها يوماً عن رجل أتى شيخاً يسأله فقال: هجم رجال على بيتي وعدّو على عتبة داري ، وضربوا زوجتي ، يا شيخ هل أرد عليهم بالمثل ام اعفو واصبر واحتسب اجري على الله ؟

قال له الشيخ: اعفو واصبر . . . بعد ان ذهب الرجل تعجب الحاضرين وقالوا للشيخ: كيف يا شيخ والرسول ﷺ يقول: ومن قاتل دون أهله فهو شهيدٌ ؟ . . . رد الشيخ بوقار ، وقال كلمة بين الحزن والاحتقار: وهل شرف الإنسان يحتاج إلى فتوى..

لست ألوم اخوتها ، ولكني ألوم أخي على تصرفه ، لأن بتول هذه فتاة ، والفتاة عليك تجنبها والحذر منها ، وكأنها قطعة من الحديد ، سواء سقطت عليك أو سقطت عليها ، ألحقت بك ضرراً ..

وكان يعمل قريباً مني رجل عجوز ، وكان كل يوم عند الصلاة وبعد الوضوء يمسك الجورب بيديه على هيئة فتيل ويشرع بتجفيف ما بين اصابع قدمه ، يبدأ من الاصبع الصغير ثم صنوه ، واحداً تلو الآخر ، يسحب من هنا وهنا ، جيئةً وذهاباً .. يا لهم من عمال رائعين ويا لها من صحبة جميلة ، هذا ما كنت أشعر به يومياً في بداية ترك الدراسة ، ثم يختفي هذا الحماس ويتلاشى مع التكرار والعناء ..

في الشتاء ينهمر المطر بغزارة على النايلون الشفاف الذي نغطي به اكياس الحبوب ، وفي ثوان يتبدل لون الأرض والافق والملابس ، وواجهات المباني الاسمنتية ، نقف تحت مظلة كبيرة ونزن الحبوب للناس ، في حال جاء شخص مبلل غاضب يريد شراء بعض البقوليات . . . وقد كانت أُمي تجبرني على ارتداء الكثير من الثياب تحت الجاكيت حتى اني احس بثقلها على رقبتني ، اعترض احياناً ، ولكني لطالما حدثت نفسي وقلت لها معاتباً: في مثل هذا الزمهرير حتى المدفأة بحاجة لارتداء بلوز من الصوف الخشن ، وتجبرني أُمي على ارتداء سروال قطني أو أكثر تحت البنطلون ، ومع هذا ارتجف من البرد وانا أشاهد الرجال يحكّون احذيتهم على حافة الرصيف ..

وكنت ايضاً ، اراقب تأرجح أحد المتسولين يكسوه العرق الدهني المختلط بالماء ، وحبّات المطر تنحدر من على رأسه ومن سترته العسكرية التخينة ، لا يهتم بالمطر ولا يبحث عن مأوى ، لأنه جرّب مسبقاً نظرة الانقباض والكراهية في وجوه الرجال ان حاول واقترب من تجمع للناس يحتمون من المطر تحت بناية ..

أعود ليلاً واقفز داخل البيت مسرعاً ، الصق جسدي بالمدفأة ، انه اللهب العالي يتبختر مرحباً بي ، وجدتي الحبيبة تفتش الأرض أمام التلفاز ، واقرب ما يكون من اللهب ، تسحب طرف ملابسي لأنحني وأقبل خدها ، وهي بدورها تقبلني برقة وعطف لا يشبهها شيء على وجه الأرض ، وعطرها الدافئ يحملك للنعاس ..

أمي في المطبخ ، واخوتي الأصغر مني يمسكان اختي بفرح وتهنئة وهي تُخفق في أولى خطواتها ، أحضرت أمي العشاء ، ارغفة خبز تصنع في تنور المنزل ، تخبزه أمي وأختي الكبيرة يومياً بلا ضجر أو ملل ، وافخاذ الدجاج ، وحشائش خضراء تصلح للطعام البشري ، ما بدا لي انه أشهى طعام في العالم . . . افرغت لتر من الحساء الدافئ في معدتي ، ثم الدجاج والخبز والرز ، وشيء من كل شيء . . . خلال هذا السنة المجهدة شاهدت الغرائب وأبصرت العجائب ، وتعلمت بعض المسؤولية ، وقيمة المال ، وأصبحت أكثر قوة ..

وكننت قد نضجت تماماً ، وكننت أدرك ان هناك فجوة كبيرة بين طبعي وافكاري ، فأنا صبي في الثالث عشر من عمره وكذلك رجل يعمل ليل نهار ليعين والده ، بحيث يتعذر ربط افكار أحدنا بالآخر . . . انتهى عام من العمل وعدت بعدها لإكمال الدراسة .. بعد هذه السنة التي قضيتها في السوق ، عدت هائماً ملهوفاً ومحباً للدفاتر والصفوف والكتب والاصدقاء والمعلمين ، والدراسة ، انه شغف العودة بعد الانقطاع ، وهذا الشغف جعلني اتميز عن الجميع ، وكننت الأول في الصف ، ودائماً ما احصل على أفضل الدرجات والعلامات الدراسية ..

جاء لمدرستنا استاذ رياضيات جديد ، متوسط الطول ، كثيف الشعر ، اسمر قليلاً ، لديه كرش كبير ، وقد بدا متواضعاً وكان يحدثنا دائماً عن الأمور الحياتية العامة ..

عندما كننت صغيراً ، كانت هناك ، سابقاً ، مناسبة سنوية وهي يوم انتخاب قدوة الصف ، ويعتبر هذا النشاط تشجيع وتكريم لأكثر طالب مجتهد ومحبوب في الصف من قبل زملائه ، يتم ترشيح ثلاثة طلاب بناءً على العلامات الدراسية ، والأخلاق ، وعلاقة الطالب بزملائه .. وعندما يحين وقت الترشيح توزع قصاصات ورقية على الطلاب لكتابة اسم مرشح واحد من بين الثلاثة ، يُكتب عليها اسم المرشح فقط حفاظاً على السرية والحرية الشخصية للطلاب الذي يقوم بالاختيار ،

ثم بعد الفرز يُعلن الاستاذ عن الفائز ، ويتم تكريمه والتصفيق له بحرارة ، والاعلان عن اسمه عندما يُرفع العلم يوم الخميس ، وكذلك منحه وسام الطالب القدوة ليعلق على صدره طول العام الدراسي ، واطافة الكثير من المهام إليه باعتباره ممثل عن هذه القاعة الدراسية ، ويحظى باحترام المدرسين له لسنة كاملة ..

واخيراً جاء يوم الانتخابات ، الدقائق تسير بطيئة ومملة ، وقد أحسست وقتها بحرارة ، وجو خائق ، وابتسامة بلهاء ، وعرق بارد على جبيني ، وحين كنت اتنفس عميقاً ويخفق قلبي بشدة كانت بلوزتي بلونها الحريري تتحدب مبتعدة عن جسدي وتتقعر للداخل بسرعة .. استدرت إلى رفاقي وأنا ارمقهم بنظرات الشك والتوسل ، وكأنني اخاف ان يغيروا رأيهم ويختاروا الطالب الذي يجلس بجانبني ، صبي لا يأكل إلا اشياء لونها ابيض أو زهري ، هذا ماكنت أخبره به دوماً ..

وها قد تم تم اختياري ، بعد العد والفرز كنت الفائز الأول ، العبد الفقير ، بملابسي ووجهي الذي كوته الشمس ، واصابع يدي الطويلة الخشنة التي حملت الاطنان من اكياس الغذاء لعام كامل بقيظه وصقيعه ، نهضت بخطوات ثابتة مسرورة منتظراً تصفيق أصدقائي بحماس . . . وها قد جاء المدير للنظر في قوائم الفرز وأخذ النتائج ، وهنا حدث ما لم يكن في الحساب ، لقد قفز المدرس وحشر نفسه بظلم وتعسف معترضاً فرحتي ومسرتي ،

وأخبر المدير ان هذه هي السنة الثانية لهذا الطالب في نفس المرحلة الدراسية ، وهناك طلاب آخرون ليسوا ندأً له في الذكاء والمواظبة ، ولكن علاماتهم الدراسية لا بأس بها ، أجابه المدير بأنه لا بأس بالطالب الذي بقي سنة أخرى في المرحلة الدراسية نفسها إذا كانت هذه هي رغبة زملائه . . . أصر المدرس على رأيه ، وسحبوا مني هذا الوسام والمفخرة ، وتم اختيار طالب آخر ، وجهه ابيض ، مائل للبياض ، وأكثر بياضاً ، ملابسه مترفة ، ومنطقته التي يسكنها حيث المسؤولين واقرباء رئيس الدولة بينما كان بيتنا في منطقة تسمى "دور العمال" ..

تكدّرت لغرابة كلمات الاستاذ وتدخله ، تلبّد وجهي بالهموم بطريقة حزينة وكئيبة وغريبة ، تمنيت لو اني استطعت حمل نفسي على البكاء ، أدركت حينها سوءات ومعائب العراك داخل روعي بين الطفولة والرجولة ، جلست مكاني اخضخض ساقى وأفرك يدي ، توتر ، اضطراب ، خوف ، كنت احرك حتى لساني ، كمن ينظف فمه واسنانه من بقايا الطعام ، بطريقة حزينة وغريبة . . . تحدث المدير معه بكلمات مقتضبة لم ادري ماهيتها ، كأنها لغز بينهم ، وهز رأسه ثم انصرف ..

لم تكن لدي فكرة واضحة عما كان ينتظرني من الخبث ، وأن شيئاً غير كريم وغير عادل سيحدث ، لا أتذكر يومها كيف سلكت طريقي إلى المنزل ، لقد كنت مغتاضاً تعيساً مهيناً من غير تصنع ..

بعدها تغير حالي ، كطفل جمع المال لعام كامل واشترى دراجة جميلة ملونة ، ثم سُرقت . . . كنت قبل هذه الحادثة احصل في الامتحان على علامة كاملة ، ثم أصبحت أدخل للامتحان فأمسك الورقة واكتب بها اسمي وبعض كلمات السؤال وارجعها له ، وتأتي العلامة صفر . . . كنت صبيّاً عنيداً قضى معظم طفولته يعمل في السوق . . . قال لي مرة بعد ان سلمت له الورقة فارغة:

- هكذا أصبحت ؟
- نعم ..
- بارك الله فيك ..
- وفيك أيضاً ، استاذ .. وخرجت ..

وكانني تذكرت مقولة "عندما يموت الشغف ، لن تغريك الفرص ولو جاءت على مقاس أمنياتك" . . . اشتهيت حينها لو بكيت مثل الأطفال ، لكن الرجل المغرور داخلي لم يطاوعني . . . استمر حالي ونديمي هو درجة الصفر .. الدرس الذي تعلمته بعد كومة من السنين هو ان الناس يؤذوك بكل حال ، وحتى ولو كانت نيّتهم طيبة ، المهم ان لا اهلع أو انطفئ . . . كان هذا المدرس يبيع الخضار والبطيخ الأحمر في السابق .. اكره ذكر هذا المدرس كما يكره المريض قدوم الليل ، وكما اكره الماعز الذي أكل نصفة علبه من سجاجري يوماً ، عندما كنت اعمل أمام كراج سيارات النقل الجماعي في سوق "الدورة" ويصعد الناس منه إلى مختلف مناطق بغداد ، ابيع السجاجر هناك ،

في السابق كانت علبة السجائر باهظة الثمن لذلك تُعرض علبة واحدة مفتوحة من كل نوع ، ليشتري الناس سيجارة واحدة أو أكثر ، وربما اشعلها الرجل وسمع نداء صاحبه من خلفه وهو يقول: نَفَس نَفَس .. ليستنشق من سيجارة صاحبه بعض الدخان ، يُثلج به صدره ويُصبر بها فؤاده ..

وبينما انا جالس هناك اداعب اصابع قدمي ، مرّ راعي الغنم ومعه ما يقارب من ثلاثين ماعز ، مرت المجموعة من أمامي وأنا اراقب الوانهم وقرونهم ، ثم برز رأس أحدها وسحب بفمه واسنانه المتراسة علبة سجائر مفتوحة ، وبدأ يلتهم التبغ المغلف بالورق والفلتر ، وبينما أحس الراعي بفعل معزته وزجرها ، وأبعدتها عن أغراضه ، كانت البلهاء قد تناولت ما يقارب سبع سجائر ..

لم يدفع لي مقابل الضرر ، وإنما اشترى مني سيجارة واحدة واشعلها وذهب مع حيواناته الشريرة . . . لقد ظلمني الماعز وظلمني المدرس رغم الفرق في الهيئة والملبس ..

بائع بطيخ . . . مدرس . . . قلب . . . ماعز . . .

انه القلب يسير وتتبعه الاعضاء والحواس بلا تفكير ، فكيف لقلب مريض ان يُحيي جسداً ، وكيف لقلب اسود ان يشع نوراً وخيراً..

دائماً ما يخيّل لي هذا المدرس ، ويتراءى أمامي طيفه ، وكيف كان يوماً يبيع البطيخ الأحمر ، ويرتدي الثوب الفضفاض ، ويرفع أحد طرفيه ليسهل عليه حركة سيقانه الممتلئة باللحم والشعر وكتل دبقة ، ويحمل سكيناً ، وينادي بكلمات غريبة مضحكة ساذجة ، كان هذا قبل حصوله على وظيفة مدرس رياضيات ، مدرس يؤتمن على مئات الصغار الطموحين ، مدرس يرتدي قطع ملابس تم الاعتناء بها جيداً ، وبنطال وحذاء لامع يخشى عليه من الغبار ..

لكنه رغم كل هذه المهارة والاتقان ، ورغم كل التقلب وتبدل الحال ، إلا ان لُبّه بقي لُبّ بائع بطيخ ، مقتص ، مغتاز .. لديه قلبٌ رديء ، لا يسمو به ليصبح قلب مدرس حنون ، ولا يستطيع ان يتعامل مع الطلاب بمهنية وحيادية ..

منعه قلبه ، قلب بائع البطيخ الأحمر ، ينظر للأغنياء وجميلي الخلقة على انهم الأفضل ، وخاصة أولئك الذين يرتدون قمصاناً فاخرة ، بالغة النظافة ..

الشجرة التي تولد معوجة ،
لا تنمو باستقامة أبداً ..

لا تنمو نستقامة أبداً ..
الشجرة التي تولد معوجة ،

الضحية ..

وقع طائر في حب وردة بيضاء رقيقة ، وذات يوم ذهب إليها مصرحاً عن حبه ، لكنها رفضت قائلة: انا لا أحبك . . . أما الطائر فكان يحبها حد الهيام ، وكرر الذهاب إليها يوم بعد يوم ، وفي كل مرة كانت الوردة البيضاء ترفضه .. وفي النهاية قالت له وهي تدفعه للإحباط: عندما يتحول لوني الابيض إلى الأحمر سأبادلك نفس المشاعر وأحبك . . . وذات يوم جاء الطائر وقد جرح جناحيه وطار فوقها ونثر دماؤه على بتلاتها ، وعندما تحول لون الوردة البيضاء إلى اللون الأحمر أيقنت مدى حب الطائر لها ، لكنها أدركت هذا بعد فوات الاوان . . . وذاك الشاب الذي أحب فتاة عمياء ، ولما تقدم لخطبتها رفضت ، فكيف تقبل الزواج بشخص لم تراه ، ولا تدري عن ملامحه وهيئته ، ثم حصلت يوماً على متبرع وأجرت العملية ، وأبصرت ، ثم التقت بحبيبها فرفضته مرة أخرى لأنه أعمى ..

وجارتي التي أحرقت نفسها وخرجت تصرخ ليلاً ، تصدّع هدوء الليل وتبتر أحلام النائمين ، لأن حبيبها هجرها ، كنت أعرف حبيبها هذا ، أعرفه جيداً ، عاطل عن العمل ، سائق دراجة نارية ، يشرب الخمر ، ولا يمتلك مؤهل دراسي ، ويسكن وأمّه بالإيجار ، لكن الفتاة أحبته ، ولا علاج لهذا الغباء إلا بإحراقه ، ثم انها لم تمت ، ولم تسلم ، تشوهت وازدادت حزنها حزناً جديداً ، وانقضت فرصها في هذه الحياة ، لو انها عازمت ان تنسى ما مضى وتبدأ من جديد ..

وكم من فتى انتحر وهجر أهله ، وضرب والديه ، وكثير ممن أدمن المخدرات ، وما كل هذا إلا لأنهم تعرضوا للخداع والغدر والفقد.. وتلك الفتاة من البرتغال التي يتناقل الاجيال خبرها منذ مئات السنين ، عندما وعدھا أحد البحّارة بالعودة والزواج منها ، انتظرتھ لأربع واربعين عاماً وهي تقضي أيامها في الميناء تلوح لكل سفينة عابرة ، وتسأل البحّارة عنه ، ثم ماتت خائبة ، فصنع لها اهل القرية تمثالاً يخلد ذكرها . . . أعتقد ان كل من رأى هذا التمثال سوف يسأل نفسه سراً: هل هذا وفاء أم غياب ؟ ..

كل توضحية خارج حدود منزلک هي في الاصل خسارة ، سواء كانت توضحية لصديق ، لقريب ، لحبيب ، لوطن . . . اما التوضحية داخل حدود البيت سواء كانت للشريك أو الأولاد فيجب ان تكون بحدود المستطاع ..

تحدثت مواقع التواصل الاجتماعي عن تلك المرأة وزيارتها المستمرة لزميلاتها الموظفة المصابة بالسرطان ، وانها كانت دائماً ما تجد البيت واغراضه فوضى ، والأطفال بهندامهم القديم المتسخ ، وعلامات الدراسة المتدنية ، والرجل مكفوش الشعر بئس الحال ، يأكل من طبخ يديه المقرف ، لأن الزوجة المسكينة في مراحل يائسة مع المرض ولا تقوى على تحريك أي عضو من جسدها المهزوم ، ان حال البيت كمدينة منكوبة ،

ثم ماتت هذه المرأة . . . وبعد مدة ذهبت صديقتها للاطمئنان على الأولاد فوجدتهم بأفضل حال ، من نظافة وطعام وتعليم وتسليّة ، وبعد ان أعطتهم الحلوى والهدايا التي احضرتها معها ، سألتهم عن أحوالهم وعن كيفية تدبير أمورهم ، فتبين ان الأب قد احضر مدبرة منزل تقوم بخدمتهم والقيام بأمور البيت والطبخ . . . اكملت المرأة حديثها بحزن قائلة: كان من باب أولى لو ان الزوج احضر خادمة لزوجته المسكينة قبل وفاتها ، ليخفف عنها وطأة المرض ، ويزيح عنها مشقة البيت والأطفال ..

لا أعتقد ان فكرة الحب من طرف واحد ، والخدمة والتضحية ستصل بنا للانتحار ، لكننا قد نسقط في فخ التضحية بالكرامة ، والتضحية بالصحة ، أو نتنازل ونعطي أكثر مما يُطلب منا ، ونُزهق كل جميل فينا لكي نرضي الآخرين ، ثم نصبح منبوذين لأننا فقدنا الفضائل والمحاسن والمفاخر التي كنا نمتلكها ، وفقدنا الادوات التي كانت تغري الآخرين ليتمسكوا بنا ..

لا تكن طيباً أكثر من الحد المقرر للطيبة ، ولا تتجاوز الحد في اللطف والتضحية ، لأنه سينقلب ضدك على كل حال ، ولا أعتقد ان هناك حل أفضل من ان تصبح كالمرأة ، تعطي بمقدار ما قدموا لك ، وتحرمهم بمقدار ما منعوك ..

وفي الكثير من الاوقات والأماكن تحتاج إلى التظاهر بالغباء ، وعدم الكلام ، وتكلف السكوت ، والركن إلى زاوية وعدم ابداء أي مساعدة ، وعدم تحريك أي عضو في جسدك ، وربما لو اصطنعت النوم لكان أفضل ، فكل تضحية هي تمهيد لصناعة ضحية..

كان هناك رجل متزوج بامرأة كسولة ، وكانت عندما تعجن وتصنع أقراص الخبز وتتركه ليتخمّر ، تأتي الدجاجات وتمشي فوقه فتترك آثار أقدامها عليه ، ثم تأتي الزوجة وتضعه على النار كما هو ، ثم قدر الله ان ماتت هذه الزوجة ، فتزوج الرجل من امرأة أخرى في غاية النشاط والنظافة ، وكانت حين تعجن وتصنع أقراص الخبز ، تغطيه وتتركه يتخمّر بعيداً عن الدجاج ، بينما ظن الرجل ان زوجته الأولى كانت تحبه وتقوم بنقش الخبز وتزينه ارضاءً له ، فكان يأكل الخبز ويقول: من يوم ماتت المرحومة ما أكلنا خبزة مرقومة ..

الأم النشيطة تجعل ابنتها كسولة ..

الرجل النشط ينجب ابنته كسولة ..

من يستحقها ..

في الدراسة الاعدادية حيث المرافقة وحب الشباب والملابس الضيقة والألوان الصارخة ، وتسريحة الشعر الصلبة ، وبخات العطر الخانقة .. تشاجر طالب مع مدرس اللغة الإنكليزية ، في الحقيقة هو لم يبدأ الشجار ، ولم يتشاجر ، ولم يدخل في شجار من الاساس ، القصة وما فيها ان المدرس أراد ضربه فأمسك الطالب قميص المدرس من اكمامه وسحبها للأسفل ، ولم يترك له مجال ليضربه ، وكلما حاول المدرس رفع يده سحب الطالب اكمامه بقوة وانزلها للأسفل ، حاول وحاول وبلا جدوى ..

الغريب في الأمر ان المدرسين ومنهم ست ابتسام ومعاون المدير استاذ احمد قالوا للطالب: هدى اعصابك ولا تتفعل ، وأوصوا اصدقائي ان يخذلوا غضبه ، لماذا ؟ لأن والد هذا الطالب قد توفي قبل فترة .. لقد حكموا عليه من باب المشاعر والعاطفة ، وانه قد مرّ بمصيبة ، وأن والده متوفي وحالته النفسية منهارة ، لذلك وجب عليهم ان لا يعاقبوه .. وغلب على ظنهم ان المدرس ربما يكون سبب هذه المشكلة . . . إلى اليوم عندما أتذكر ذلك الموقف أتمنى لو ان أحدهم صفعه بقوة ليعلمه تبجيل المدرس واحترام الكبير ، وحدث هذا أيضاً عندما مات جيراننا الرجل الطيب "ابو صالح" وترك بعده فتى شرير يؤذي الأولاد ، وبالمقابل هم لا يؤذونه لأن والده متوفي . . . وهل هذا سبب مقنع لكي يؤذي اصدقائه وجيرانه ؟

والأشد غرابية من هذا كله ، انه كان معنا في المدرسة ولد صغير لا أتذكر اسمه ، لقد كان أعمى ، لكنه ، وتقريباً في كل اسبوع يتشاجر مرة أو مرتين ، ويضرب بقوة ، وربما يصيب من يعاركه بأذى وجروح ، لقد رأيته أكثر من مرة يفتعل شجاراً ، ثم يلوح بيده في الهواء يبحث عن شيء من أعضاء جسد غريمه ، أو ملابسه أو شعره أو قميصه ، وما ان تتعلق يده بشيء حتى يشده إليه كأنه أخطبوط خبيث ، وبهذا لن يستطيع الفتى الآخر الهرب أبداً ، فيبدأ هذا الأعمى بضربه وضربه ، بقوة وخبث ، ويضيف للموقف انه يصرخ ويكي ، وعندما يتم احضاره إلى إدارة المدرسة فإن الذنب دائماً ما كان يقع على الطالب الثاني ، على اعتبار ان هذا الولد أعمى ومسكين ، وهو بدوره يقول: لقد استهزأ بي وضربني ، لم أكن أراه فكيف اضربه ..

تمنيت لو اني كنت مديراً في ذلك الوقت لأمسكت الأعمى واشبعته ضرباً وابكيته ، لأنني حقاً كنت اكرهه .. كان يمسك الطلاب دائماً ويتشبث بملابسهم بيد ويضرب باليد الأخرى بكل خبث ، يضرب على الوجه والبطن والرأس ، انه ظالم حقاً ، هناك حكمة تقول: كلام مظلوم ووجه ظالم .. أعتقد انه في حالة هذا المشاغب أصبحت الحكمة بالعكس تماماً ، وجه مظلوم وفعل ظالم ..

هل لاحظت ان كل هؤلاء ، من المدير والكادر التدريسي والجيران ، والكثير من البشر ، يُحَكِّمون المشاعر في اصدار القرارات والحكم على الآخرين .. كل شيء يحدث نتيجة المشاعر محصوله فاسد ورديء ..

مثال آخر أشد بشاعة وسفهاً وغباءً وهو ما يسمى بالحب الاعمى ، الذي يُجبر صاحبه ويُلجأه للقبول بالإعاقات وسوء الخلق وسوء الأخلاق ، وكثير من النقص تحت ذريعة الحب ، يقفز الشاب داخل هذه الحفرة الرديئة بكل قوته وحماسه ، وبكل مآثره ومفآخره ، حتى قبل ان يدرس قراره جيداً وقبل ان يعرف خيره وشره ..

ارجوك يا صديقي ، لا تهرع نحو الجحيم ، سيطر على مشاعرك .. ترى فتاة يعجبك رمشها أو صوتها أو ابتسامتها ، فتذهب كالأحمق وتتزوجها كلها . . . المشاعر مرتبطة مع الغباء بعلاقة طردية ، تزداد بزيادته وتنقص بنقصانه . . . تأكد يا صديقي ان كل قرار يأتي بعد نفحة مشاعر هو قرار خاطئ ..

واحذر كلّ الحذر من استخدام المشاعر والعاطفة في مكان عملك وتجارتك ، وخاصة عند ابرام العقود .. العاطفة للبيت والعائلة فقط ، اما العمل ، يجب ان يمر بلا عاطفة . . . إذا كنت تعمل ضمن مجموعة فاجتهد وثابر واخلص في عملك لتؤدي واجبك على أكمل وجه ، ولتنجح وترفع من قيمتك ومكانتك ، فقط لا أكثر ..

لا تنتظر المحبة ولا تنتظر الحنان ، لا تنتظر الشكر والثناء ،
لا تغضب ، ولا تشعر بالخذلان والشفقة لحالك ان لم تحصل على
والابتسامة وكلمة شكراً ، لا تحشر عاطفتك في ساعات العمل ،
فالعمل ، للعمل فقط ..

وهناك أمر آخر ، المشاعر لا تُنسى ، فاحذر من وضعها في
المكان الخطأ ثم تتعرض للغدر والخذلان ، وتنطفئ وتلوم نفسك ،
وتعتزل العلاقات والاصدقاء .. العاطفة ثمينة والمشاعر عزيزة ،
اختر لها مكاناً جديراً بها ولا تفرط بأمرها ، لا تنثرها وتبعثرها على
كل من تتعرف عليه ، ولا تمنحها لكل من يجلس بجانبك ، ولا تغدق
بها كل من هب ودب .. المشاعر جوهر نادر لا يستهان بها ، لأنها
مرتبطة بالقلب مباشرة ، امنحها قيمتها وابدلها في من يستحقها ..

أيها الصديق الطيب ، انتبه لأمر المشاعر والعاطفة ،
فمن خلالها تُصنع مواقف كثيرة ، ولها تبعات تستمر مع الحياة ،
وتتنبت في النفوس ، سواء كانت طيبة ام سيئة ، فاختر أين تغرسها ،
وكيف تصوغها وتداريها ..

وأعتقد انه من الأفضل لك ان تصنع منها الكثير من الذكريات
الحلوة والمواقف الجميلة ، لأنها تستقر وتتجذر عميقاً في النفوس ،
ومع الوقت سوف تصبح من أجمل وأحلى الذكريات في حياتك ..

فقد أحد الأدباء ذاكرته في آخر حياته ، فقال لصديقه الذي جاء
لزيارته: انا لا أعرفك ، ولكني أعرف اني أحبك ..

الطيب يؤذي نفسه ،
والخبيث يؤذي الآخرين ..

والجنتي تؤذي الآخرين ..
والطيب يؤذي نفسه ،

خمر ، شاي ، ماء ..

خمر ..

انه محل الابتسامة والقهقهة والمزاح ، على عدد ساعات النهار ، انه صالون الحلاقة .. اما في الليل ، يختلف الأمر ، فانت اما ان تكون هادئاً بسبب التعب ، أو يأتيك السكرى وعطلات الليل وينقلب الحال إلى مقهى بشبابه ودخان سجائرهم ..

في إحدى الليالي حضر شخص غاضب هائج ، وكان فمه متورم واسنانه حمراء من الدماء التي تغطيها ، ولا ادري ان كان قد تشاجر مع اهله أو الجيران .. امسك مقبض الباب ودلف للداخل وقال لي بالحرف الواحد: احلق كل شيء ولا تُبقي إلا شعر الحاجب .. انه طلب غريب ، لأن شعره طويل ويغطي عظمة كتفه ، لحيته ثخينة وشاربه خشن ، كررت السؤال أكثر من مرة وكان يردد بغضب: احلق كل شيء إلا الحاجب .. الليل وما ادراك ما يحدث في الليل ، عراك الشباب ، ومناقشات الوضع الأمني ، والجدل السياسي والطائفي ، وكل مشكلة تحدث في البلد تُناقش في صالون الحلاقة ، وكل شاب تعرف على فتاة أو خطبها ، أو وعدّها بنزهة ، أو هجرها ، فلا بد ان اسمع بقصتهما ..

الحلاق هو الشخص المدلل والمحبوب ، وكل المعاملات في الدوائر الحكومية يمر عليها وتُنجز بلا طابور ولا انتظار ، لكن الأجمل والأروع من هذا كله ان الجيب يغص بالمال على الدوام .. الساعة الثانية عشر ليلاً دخل جاري ابو مصطفى لأحلق له شعره الابيض ، ابو مصطفى هو إنسان بريء وطيب إلى حد لا يوصف ، تخيل انه مهما كان عمرك عندما تحدثه ستجده صديقك المقرب ، وأجمل طباعه انه لا يكلمك إلا وهو مبتسم ، وقد اختار اجمل المفردات ليمطرك بها ، انه رجل معطاء هادئ كالنهر .. شذبت شاربه بمشط صغير وما اجمل ابو مصطفى وما اجمل شاربه اللطيف ..

ثم دخل بعده شاب سكران يترنح ، انه عامر ابن المنطقة وأحد اولاد الجيران ، وجلس على أحد المقاعد ينتظر دوره ، ينظر للحائط والتلفاز وينظر تجاهي ، يشاهد عملية قص الشعر بلا عقل ولا مقصد انما مجرد عيون تتحرك عبثاً ، احيانا تنكشف لك لحظات غريبة مثل ان يجتمع هذا الرجل الطيب ابو مصطفى في نفس المكان مع هذا الشخص المترنح قليل الادب ، وهذه هي قطع الاحجية والمكان والدراما لنصنع قصتنا .. كان المخمور يجلس ويصوب نظره إلى طبلبة أمامه عليها منفضة سجائر ومجلات وجرائد ، أعتقد انه يراها شيئاً آخر ، وإلا لماذا هذه النظرة وكأنها تكلمه وتناقش معه خطوته التالية .. وبعد ان انتهيت من قص شعر ابو مصطفى نهض وشكرني ومد يده في جيب دسداشته ليدفع لي أجرة الحلاقة ،

لكن الشاب السكران والذي كان يجلس كالخروف الوديع ، قفز
فجأة تجاهه وحلف وبالع في القَسَم ان يدفع الاجرة بدلاً عنه ، وبعد
مفاوضات ظريفة بينهما ،

- انا ادفع ، انا أكبر منك
- والله ما تدفع انت مثل أبي
- ما يصير ، أخجلتني
- على العكس انت تأمر ، يمعو خليه تر ، أبداً ما مم ماكو
فر بيبي
- غممم ووومو هوو أبداً ، كللل رجاءً قفرتتت ..

وهلم جراً ، حتى حُسم الأمر ، وأن الشاب السكران سوف
يدفع أجرة شخصين ..

عدل ابو مصطفى هيئته وملابسه ، ونظر في المرأة وذهب
لحال سبيله ، وابتسامته الطيبة تزين وجهه ، بعد ان شكرني وشكر
الاستاذ المتراقص على لطافته وكرمه حين تكفل بدفع الاجرة لكليهما..

اعدت ترتيب ادوات الحلاقة وكنسيت الأرض ، ونفضت
الشعر عن الكرسي ، ثم ناديته ان تفضل عزيزي ، وقف أمامي بطوله
الفارع ، لكنني تظاهرت بأني لا آبه به ولا بقوته . . . انه الليل ، وأنا
وحيد ، لقد اخافني حقاً ، لكنني لن أدعه يشعر بهذا ، وخاصة في مكان
عملي ،

وكنت قد تذكرت مقولة "تظاهر بالقوة حتى ان كنت ضعيفاً ، فلا أحد يعرف الفرق" .. المشكلة العويصة ان الرجل حين يأخذ الخمر عقله يصبح حنوناً ويخبرك بمشاكله العاطفية ، وربما تدمع عينيه لشيء تافه .. لكنه ، وفي نفس الوقت ، قنبلة موقوتة وقد ينفجر غضباً لأتفه الاسباب . . . امسكت المقص والمشط وبدأت أعبت برأسه بأطراف اناملي ، ثم شفرة الحلاقة والمعجون والكحول ، وصنعت جواً للعمل لا بأس به ، لتنظيف هذا الرأس الأشعث المتسخ .. كانت طلباته واضحة ودقيقة ، الأمر غريب ، لم أسمع عن مخمور حالته متذبذبة بين جسد يترنح وعقل صاح ..

كان يموء كجرو صغير ويتكلم معي بلطافة ، الاحمق ، كيف علم نقطة ضعفي ، وأن هذه الطريقة تجعلني اتنازل حتى عن عقلي وحذري ، واتنازل عن جواربي أيضاً . . . تخيل معي رجل مخمور يأتي منتصف الليل ليخلق شعره وذقنه ، من المؤكد انه مثير للتقرز ، انه أشبه بعلكة على الأرض يملأها الشعر والاتربة والاوساخ ..

خطوة تتبعها أخرى حتى تحول تحولاً لا بأس به ، لم يتبدل شكله كثيراً لكنه تغير نحو الأفضل ، وقد أبدى مدحاً لا بأس به عن مهارتي ، انها عملية مرهقة ومملة اقتضت ساعة من الجهد والعذاب ، واشمنزاز من رائحة البول الذي شربه ، ثم انتهت بهذه النتيجة ..

فتحت قطعة القماش عن رقبتة ، ووضعت له عطر الكلونيا ،
قلت له: نعيماً . . . ثم نهض ، كنت أتوقع ان يفعل أي شيء ، يبخس
حقي ، أو يزيديني بقشيشاً على اعتبار انه بلا عقل ، أو يعانقني من
فرط حنين المخمورين ، وهذا يحدث دائماً .. ثم نظرت تجاهه انتظر
ان يخرج المال ويدفع حساب شخصين ، هو وأبو مصطفى ، كنت
انظر تجاهه كطفل ينتظر هدية العيد ، تخيلت كل هذا وأكثر ..

لكني لم اتوقع أبداً ان يقف على قدميه ، ومن ثم يميل للسيار ،
يمين ويسار ، ترنح داخل المحل ثم امسك مقبض الباب ، وخرج من
غير لا كلمة ولا نقود ولا ضمير ، وتركني وحيداً اطالع ظهره ،
واراقب خطواته ، تركني وحيداً انظر إليه ، بنفس الطريقة التي كان
ينظر بها لمحتويات المحل قبل قليل ..

انتابني شعور غريب ، انه ربما ، الآن ، وفي سره ، كان
يضحك بخبث ويغمز لنفسه فرحاً بنجاح حيلته .. لم اناديه ولم احاول ،
هذه هي مشكلة السكرارى ، انهم في عالم آخر .. لِمْتُ نفسي مراراً
وتكراراً ، لماذا انا خائف ؟ لماذا انا خجل من المطالبة بحقي ؟ لماذا
انا ضعيف ؟ هل سيحدث يوماً واقنع نفسي اني اسامح من يكرهني
ويتكبر علي ويؤذيني ، بحجة ان أخلاقي طيبة ولا داعي لحياة يشوبها
الكره والحق ؟ .. لكني أعلم علم اليقين ان خوفي يملني علي أوامر
التنازل ، ويملي علي فكرة الاصل الطيب ، انه التكيّف ..

كان يأتي بعدها نهراً إلى صالون الحلاقة بكامل عقله وصلابته ، ومع ذلك لم أذكره بالحادثة ، لأنني خجول ، لكني لم أكن أسامحه في داخلي أبداً ، وكنت اتعمد ان أسيء إلى تسريحة شعره وتصفيفها ، وأسيء إليه في طريقة الحلاقة والاحترام ..

بعد فترة من الزمن رأيت شاباً آخر من أبناء منطقتنا ، وهو سكران أيضاً ، يفعل هذا مع بائع الفلافل في المطعم المجاور ، لقد طلب منه لفة فلافل وعلبة مشروب غازي ، ثم ترنح وتخط في خطواته ولم يدفع المال ، وذهب يهذي فتركه صاحب المطعم لحال سبيله ، وعندما مرّ من أمامي غمز لي موضحاً بأنه احتال على صاحب المطعم ، فتذكرت صاحبي وأظنه مارس الحيلة نفسها معي ..

ذكرت لكم هذه الحادثة بتفاصيلها كي أرفه عن نفسي ، ولا اترك آثارها تضغط على احشائي من الداخل ، ولتزيل عني بعض الغم ذكرتها لأسلي نفسي ، ولتنقي هذه الكلمات روحي ،

كما تُنقي الدموع قلب المفجوع ..

شاي ..

ربما لن تصدقني ان أخبرتك اني كنت أذهب يومياً للعمل في الساعة السادسة إلا ربع صباحاً ، مرتدياً ملابس العمل الثقيلة القاسية ، وكنت احمل في يدي كيس الغداء ، أشبه "كالميرو" فرخ الدجاج الاسود في أفلام الكارتون ، وكنت ابتدىء نهاري برفع أكياس المواد الغذائية ، طحين ، رز ، سكر ، والبقوليات بأنواعها وأضعها في عربة ذات ثلاث عجلات ، وأدفعها لمسافة كيلومتر ونصف ، ثم ارتبها على قطع خشب منضّدة ومرتفعة عن الأرض على علب زيت الطعام ، ثم افرغ العربة وأعود مرة أخرى للمخزن لإحضار وجبة ثانية من أكياس الطعام . . . وبعد إكمال نقلها وترتيبها وفرشها ، اخلع ملابس العمل وارتي القميص الابيض والبنطال الاسود ، ثم اترك اخي الأصغر يبيع الاغراض هناك واذهب مباشرة إلى المدرسة ، حتى اني لا أتذكر ان كنت وقتها اغسل وجهي ام لا ..

وبعد ان ينتهي الدوام المدرسي اعود مباشرة إلى سوق الدورة، استبدل ملابسني ، غداء ، عمل ، بيع ، كيل ، إحضار الاغراض من المخزن . . . نعمل هناك مع مئات الباعة الذين نصبوا الاسرّة ورفعوها عن الأرض ، وصقّوا العربات جنباً إلى جنب على طول سكة الحديد ، ووضعوا عليها الاغراض والطعام والملابس ، وكثير من الحاجيات التي تباع وتُبتلع ..

وكل منهم يحضر ولده معه ، وهكذا يُهيئ ولده ليسير على هذا الطريق المقفر . . . الآن ، وبعد ما يقارب من ثلاثة عقود أذهب إلى ذات السوق لأجد نفس الباعة ونفس الاغراض ، نفس الشخص ونفس الشكل لم يتغير ، إلا لون شعره والتعرجات على جبهته ، لم يحاول الارتقاء لمرحلة أفضل ، وأسهل ، وأكثر ربحاً . . . على عكس الاغنياء ، تجد أحدهم كل خمس سنين في مشروع جديد ، يواكب التطور ويغرف المال كمجرفة .. وكل إنسان يسير على خطى والده إلى نهايته ، ليثبت مقولة: " الاغنياء يزدادون أموالاً ، والفقراء يزدادون أطفالاً " ..

المفروض ان هذا العمر خاص لاختيار القطع التي يتكون منها الفتى ، وتُبنى شخصيته بحسب نوع هذه القطع ، ويتم اختيار كل لفظ وفعل وفكر بعناية ، لأنها تدوم معه لآخر العمر ، وكل شخص نراه أمامنا اليوم سواء كان رجل أو امرأة ، هو حصيلة ونتاج مجموعة القطع التي وُضعت ورصت فوق بعضها منذ أيام الطفولة ..

كنت اعمل هناك حتى يحل الظلام ثم أعود للبيت ، ويتكرر الموقف يومياً ، هذا وقد كان عمري حينها أربعة عشر عاماً . . . تذهب للعمل خجلاً نشطاً في أول أيامك ، ثم تمل وتتعب ، ومع مرور الأيام تكره العمل ، ثم تعتاده ويصبح عادة ضجرة ، لن تهتم بعدها برائحتك وملابسك وشعرك ووجهك الكالح ، ثم تصبح كحشرة قوية قاسية ، تحتل الظروف من قيظ وبرد ..

وتزداد حيلة ومكرأ ، أيضاً ، فلم يكن يسلم منا جرد ولا قط ،
ولا رجل مخبول يمر لحاله ، ولا يسلم منا حتى الكلب النائم ، لا بد ان
ننغزه . . . كنت فتىً بسيطاً اعمل في السوق ، وزحام السوق ، وقذارة
السوق التي لا بد ان تلطخ روحك ، وكانت حرب الخليج قد انتهت منذ
فترة قريبة ، والحصار يمر ببطء على بلدي والاسعار ترتفع سريعاً ،
كان الأولاد من اقراني في بيوتهم ينامون ، يأكلون ، ويتدفنون ، بينما
كنت احمل مع أبي رحمه الله هم عائلتي وعبء المعيشة ..

عندما كنت اعمل هناك ، كان ينقصني كل شيء الا صخب
العمل وكثرة النقاشات ، اما الانزواء جانباً والجلوس وحيداً طريداً ،
فلم اكن أعرف عنه ، ولا وجود له ، لأنني بين نقاش مع زبون ،
وقصص جار العمل ، ونصائح الكبار ، وذلك انهم لا يجدون في
بيوتهم ولا اولادهم مستمتع جيد ، ولا حل لتفريغ شحنة العظمة
والحكمة إلا في هذا الولد الخجول الذي لا يملّ سماعهم ..

ويا ليت الشحاذين يختفون من الحياة ، أو على الأقل لا
يزدادون يومياً . . . كنت اشترى بمصروفي اليومي قصص أطفال
وكتيبات رخيصة في كل المجالات ، وروايات ، واقتروش سكة القطار
بقطعة من الكارتون وأجلس لأقراها ..

هناك ، يصبح العمل والتعب واللعب والمزاح كل هذا يصبح عندك سواء ، لان الخوض في هذه الحياة والتشعب في السوق ، والعمل الشاق ، يجعلك تتيقن ان السعادة فكرة في رأس أحدهم يستحضرها لنفسه أو يطردها ، بغض النظر عن امكانياته وثروته ..

كنت أعمل واخي الصغير في هذا السوق الغاضب والمضطرب ، وفي أحد الأيام ونحن على وشك الذهاب للبيت مساءً جاء ولد بنفس عمري وضرب اخي الصغير مما أثار غضبي فهجمت عليه ، وبدأ الشجار ، وصراخ يشبه عراك القطط في آخر الليل ، كان هناك الكثير من الضرب والصراخ ، والثرثرة والشتيمة ، والاشخاص.. سألني الناس عما اصابني ؟ ولماذا كل هذه الغضب والصراخ ؟ .. لكنه اخي الصغير ، ان يُضرب اخوك الصغير أمامك انه اسوء شعور ، ولا أعتقد ان أحداً يستطيع امساك نفسه في هذه اللحظة ..

وبينما انا أضرب وأضرب ، تلقيت صفة قوية ثقيلة ، مؤلمة، أكبر من ان يفعلها هذا الولد .. نظرت تجاه مصدرها فإذا بالرجل الذي يعمل بجانبني هو من صفعني ، بكره واستهزاء ، وابتسامة خبيثة تزين وجهه .. "خضير ابو عباس" ، الرجل الذي نساعدته كثيراً ونراقب اغراضه إذا غاب ، ضربني غدرًا ، وحين التفئتُ إليه نجح وبسرعة في استعادة مظهره البريء ، وانه كان يحاول فكّ الشجار والمساعدة...

خاصة ، وأن الوقت هو الليل ، حيث لن تميز بين الطيب والخبيث .. والظلام حالك ، ويمكن للخبيث ان يخرج ما يحتويه . . . في تلك الليلة لم أستطع النوم ، الهموم تأكلني ، واسفل رقبتني من الخلف يزداد ثقلاً من الكدر ..

صباح اليوم التالي جلست صامتاً لم اتفوه بحرف ، احتجت إلى شجاعة هائلة لمواجهة الرجل ، هل اصارحه ؟ هل اذهب وانتشاجر معه ؟ هل اكلمه ؟ اسأله فقط ؟ .. ان أي شخص مثلي ، كفتى صغير سوف يخشى مواجهة شرير كهذا .. لا مناص لهذه الروح التي تقلق بشأن كل شيء ، وترسم آلاف النتائج من لا شيء ، كنت خائفاً ان اعاتبه فيوبخني أو يضربني . . . انني افكر كثيراً ، وارسم تبعات كثيرة .. لا مناص لهذه الروح الجبانة الا المواجهة وكشف الحقيقة ..

ذهبت إليه ، وكان سارحاً ينظر إلى كومة اغراضه ، وينظر إلى الزحمة وكل هؤلاء الناس ، يفتح عينيه كتمساح تحت أشعة الشمس، بلحيته السوداء الخشنة كأنها فرشة صبغ الاحذية ..

- لماذا ضربتني البارحة ؟ ..

ضحك وظهرت أسنانه العوجاء المتخاصمة فيما بينها ، كأنها مجموعة أحجار متنافرة . . . ضحك عالياً ، وكثيراً ، ومن يضحك كثيراً لابد ان ينقصه شيء ما . . . ثم غضب مباشرة وفتح عينيه أوسع ما يستطيع ، كانت عيون قبيحة كأنها عيون كلب أجرب وسخ . . . مرّ على هذه الحادثة ما يقارب الثلاثة عقود ، ولا ادري ان كان هذا هو شكله حقاً ، ام ان هذا ما تصوره لي ذكرياتي من باب كرهه وخذلانه لي ، كما في قانون " الاتجاهات تحدد الآراء " بما معناه انه لو تعثر أمامك شخص تحبه ستقول: مسكين ، اتعبه التفكير والانشغال بتطوير حياته ، قم أيها الحبيب ، قم حفظك الله . . . أما ان تعثر أمامك شخص تكرهه ستقول: احمق ، لا يعرف كيف يمشي ، زادك الله عمي فوق عماك ..

عندما واجهته بالحقيقة لبث قليلاً ينظر في وجهي ، يبحث عن رد يخرسني به .. قرأت في عينيه انه يتمنى الآن لو يصفعني مرة ثانية ، لكن ، يبدو انه اكتفى من انتصاره عليّ البارحة ..

- وما الحاجة لأضربك ؟

كنت ارى الفرحة في عينيه ، أعتقد ان روحه الآن تقفز كحمار صغير .. ثم بدأ يناقشني والغضب يلمع في وجنتيه ، انه ممثل بارع ، عندما تبين له انني كشفت خُبثه أخذ يرفع نبرة صوته ، ثم ضحك في سخرية كأنه بريء ..

اقسمت له اني رأيتة ، بالغت في القسم عليه ، وانه هو من ضربني لا غيره ، فأنكر وأخذ يُقسم بدوره بأنه لم يضربني .. متأكد انه ضربني ولم أكن غيباً ليخفى علي هذا ، لكني صغير ، وبغياض والدي كل ما فعلته هو انني أكدت له انه هو من ضربني . . . للحظة وقفت أمامه صامتاً وشرعت أتأمله بلا نية لفعل شيء ، الا انها نظرة من تعرض للغدر والخذلان . . . بالنسبة لي ، لقد انقضى اليوم ، لكنني لن انسى في كل لحظة وكل يوم أمر من أمامه أو التفت إليه ، انه الشخص الذي ساعدته وخذلني ، الشخص الذي احترمته واهانني..

ربما في المستقبل سوف اساعده مرة أخرى وأخرى ، وراقب أغراضه أيضاً ، وربما افعل أكثر من هذا ، ان الإنسان وقلبه الطيب الذي تعود العطاء ومساعدة الغير ، فإنه مهما تأذى ومهما تألم سوف تتغلب عليه طبيئته ، ويتحكم به عطائه . . . لقد غيرت هذه الصفة حياتي حرفياً ، وإلا ، فما السبب الذي يدفعني لتذكرها اليوم وبعد أكثر من ثلاثة عقود ، أتذكرها لأزداد همأً وتوجساً من غدر البشر . . . حتى اني أردد مع الناس مقولة ، الحيوان أرحم من البشر وأقل جشعاً ، لان الحيوان لا يؤذي إلا عندما يكون جائعاً ، وعندما يشبع فإنه يمسك شره عن الآخرين .. على عكس الانسان الذي كلما شبع زاد شره . . . الثقة بالآخرين مثل قدح شاي ساخن في ذروة الشتاء ، رغم رائحته الزكية ، ودفئه ، وطعمه وحلاوته ، ومنظره الذي يجرك إليه ، إلا ان ذبابة واحدة ، قد تفسد هذا كله ..

ان السوق وما فيه يشبه زريبة البقر . . . رأيته وقد ضربني ،
ومتأكد من هذا ، لكن السوق هو السوق .. وأولاد السوق هم أولاد
السوق .. وأصدقاء العمل أغنياء عن التعريف ..

ماء ..

كل منا تعرض في حياته للكثير والكثير جداً من الألم
والخيبات والغدر ، والخذلان والحوادث ، لن تمر هذه المواقف مرور
الكرام وتُنسى ، على العكس ، سوف تصبح ذكريات تزيح شطراً من
الثقة بالنفس والثقة بالآخرين ، وحتى ان كان الخذلان من غير البشر ،
فإن الألم يبقى هو الألم نفسه ..

حضرت حفلة زفاف ابن خالتي في مدينة كركوك ، وبعد
انتهاء الحفل ذهبت مع بعض اقربائي إلى نهر صغير بعرض خمسة
عشر متر تقريباً ، نزلنا تحت الجسر واخترنا بقعة نضع عليها ملابسنا
لبدء السباحة في هذا النهر ، الرمال تدغدغ قدميك وتسحبك للأسفل ،
والقصب على ضفاف النهر يتحداك ان تنزل ويخبرك انه سوف
يتشبث بك ويُغرقك ، والجسر يقف فوق رؤوسنا وكأنه ينصحننا بعدم
الخوض في هذه المغامرة ، والامواج تمر سريعة أمامنا ، وهي
الوحيدة التي تشجعنا للحاق بها ..

جاء دوري للقفز في الماء فأخبرتهم اني أستطيع السباحة بخط مستقيم فقط ، اما محاولة الاستدارة وسط الماء الجاري والعودة إلى رصيف النهر فهذا صعب على امثالي ، ولم أكن حينها قد ارتقيت إلى هذا المستوى في السباحة ، أشار إليّ أحد الاصدقاء ان اسبح حتى أصل إلى أحد الاعمدة الخرسانية التي ترفع الجسر وأمسك به ، ليقوم صاحبي بالسباحة ويعيدني معه إلى الضفة . . . مشيت بعض الخطوات ، وكطفل يلهو رميت نفسي في الماء ، وبدأت اجذف يمين يسار ، يمين يسار ، اصفع الماء واتخبط فيه ، اشبه كنغراً يضرب عدوّه بيديه ..

اندفعت بضعة أمتار باتجاه عمود الجسر ، وكنت اقترب منه رويداً رويداً ، وكان رفاقي ينظرون لي ويشجعونني بإعجاب ، وأنا أسبح غاضباً مظهراً التواضع ، لأبين لهم اني لست ذلك السباح الماهر ولا أملك تقنياته في الحركة ، لكنني ابذل قصارى جهدي ..

صرت قريباً من العمود ، وأسرعت إليه ملهوفاً ، خائفاً ، فتحت ذراعي كطير ينوي الهبوط لأحتضن العمود بقوة ، انه تذكرة العودة ، ومحطة الانتظار ريثما يصل رفاقي ويعيدونني إلى الضفة النهر ، لقد وصلت فرحاً وامسكت به ، واحتضنته كأجمل حضن ، وشددت عليه يدي أكثر ، وأكثر ، ثم انتبهت ان الماء يرتفع مسرعاً ويقترب من صدري ، ثم رقبتني ، وحنكي ، حتى غطى فمي ، اني أغرق ، لقد خانني العمود ، انا ممسك به بقوة ولا زلت اتزحلق إلى الاسفل ،

ثم ادركت ان العמוד الذي وثقت به زلق بفعل الطحالب التي نَمَت عليه مع الوقت ، لقد كنت أغرق ولا أعرف ما أفعل ، أعتقد اني ذلك الرجل الذي تطارده المصائب كل الوقت ، بلا شك ..

صرخت عالياً ، صرخت وشربت بعض الماء ، ثم ها انا ورأسي داخل النهر ، تركت العמוד وحركت يدي عشوائياً لأخرج رأسي للهواء ، ثم عدت لأغط في الماء وأحاول مرة أخرى ، وأخرى ، وأخرى ، واصرخ .. ان لحظة الغرق خطيرة جداً ، لكنها في نفس الوقت جميلة وفي قمة المغامرة ، ومن اروع الذكريات التي لن تنسى أبداً .. أعتقد اني لبثت داخل الماء بعض الوقت ، كقطعة طعام رميت في الماء ، ثم تداركت الأمر وبدأت ألملم الاشياء من حولي ، بين منظر وذاكرة وموقع وحالة ، واحسبها سريعاً لأحاول إنقاذ نفسي ، حاولت الاستدارة والعودة لكني فشلت ..

السعال يتفجر داخل حلقي وينثر الماء خارجه ، انه غرق بسيط اعتدت عليه ، يشبه كل مرة مضت ولكن ، لماذا هذا الخوف الفظيع الذي انتابني ، لقد كنت متيقن انه سوف يتم إنقاذي ، وسأعود للبيت سالماً ، وهذه ليست المرة التي الأولى التي اغرق فيها ويتم إنقاذي ، لكني لست متأكداً هذه المرة ككل مرة ، لأن الخطوات مختلفة ولا شيء يتكرر في هذه الحياة ..

داخل الماء وانت تغرق لا يمكنك ان تلاحظ أو ترى أي شيء، سواء كانت قطعة من الذهب ، جثة غارقة ، سمكة تسخر من حالك التي وصلت لها ، من المستحيل ان تلاحظ أي شيء حتى لو كان الماء نقياً صافياً ، لكن ، بعد ان يتم إنقاذك يصبح الأمر كأنك جفلت من الحلم واستيقظت ، فتبدأ بتذكر ما رأيته ..

ثم قفز أحد اقربائي في الماء ، وما ان وصل قريباً مني حتى مددت ذراعي لأتعلق به واحضنه ، يبدو ان ما ينقصني هو الحنان ، وانا محتاج للحضن هذا اليوم أكثر من أي وقت مضى ، قبل قليل ذهبت للعمود لأحضنه ، والآن أحد اقربائي ، لذا بدأت امسك أي شيء يمر قريباً مني واحضنه بقوة ، لكن الصبيان في تلك المناطق تربو في الماء والسباحة والانهار ، لذلك ، وبلا تفكير منه استمر بالسباحة واندفع اسفل مني ، وما ان اصبح خلفي دفعتني بقوة من ظهري باتجاه الضفة ، ثم قفز الآخر وسحبني ، وحملني كسمكة سلور فقدت وعيها وطرحني على الأرض الطينية ..

لا ادري كيف يجتمع الاصدقاء في زمن الطفولة بكل هذه السهولة ، بينما في وقتنا هذا واعمارنا ، نجد من الصعب ان تجتمع برفيق واحد فقط وتآلف قلوبكما ، لكن الطفولة ومرح الطفولة هي نفسها في كل مكان ، فلان يعرف فلان ، وفلان يعرف فلان ، وصديق ابن خالتي وجاره وابن عمه ، واثنان لا نعرفهم التقينا بهم صدفة اثناء الطريق ، وآخر كان يسبح قبل وصولنا ، وهكذا اكتملت الجوقة ..

أعتقد انما يجمعهم هو السذاجة ، وعدم التدقيق في كل الأمور ،
نوع الملابس ، شكل الوجه ، لون الشعر ، كم يملك من المال وماذا
يعمل والده ، كل هذه لا تهم ، لذلك تراهم يجتمعون بسهولة ، انها
مفردات التفرة منذ القدم ، وإلى الابد ..

لولا ان الله يسر هؤلاء الاصدقاء لكان من المتعذر ان اعود
إلى بيتي سالماً ..

كلما تذكرت الموقف ، تدفقت إلى مخيلتي صورة القط توم من
افلام الكارتون ، وهو يتزلق على عمود الكهرباء ، لأن الكلب
سبايكي دهنه بالزيت ..

اصعب التحديات ، هو الثبات ..

اصعب التحديات ، هو الثبات ..

قِطٌّ في طريقه للأسفل ..

قبل ما يقارب من عشرين سنة قرأت في إحدى المجلات المحلية خبر شقيق وغير مألوف ، عن قط سقط من الطابق السابع عشر إلى الأرض فمات على الفور .. هل استغربت ؟ أعتقد أنك الآن تسأل، وأين العجب والتشويق في هذا الخبر ؟ ..

يدّعي كاتب المقال في المجلة ان القط لما استمر لفترة طويلة في السقوط وقد طالّت المدة الزمنية له وهو في فراغ ، هواء ، أمان ، ولحد الآن لم يصطدم بالأرض ، ظن القط الابله انه لا يسقط ، أرحى جسده وسرح يتأمل النوافذ وهو ينزل للأسفل ، حتى ارتطم بالأرض الصلبة ومات . . . حسناً يا صديقي لنقرأ بعض المعلومات ثم نعود لهذه القطّة المسكينة التي تعثرت قدمها وهوت للأسفل . . .

أولاً؛ السقوط الحر أو انعدام الوزن ، هو فقدان الاحساس بالوزن بسبب مرور الجسم في حالة سقوط مستمر نحو الأرض ..

ثانياً؛ السرعة الحديّة هي أقصى سرعة يصل إليها الجسم أثناء السقوط الحر ..

احفظ هذه الكلمتين لأننا سوف نحتاجها بعد دقائق ..

نادرًا ما ينجو البشر من السقوط من ارتفاعات عالية ، ولكن يبدو ان للقطط حظاً أوفر في النجاة . . . أجريت دراسة منشورة عام ١٩٨٧ على أكثر من مئة قطة وقعت عن طريق الخطأ من ارتفاع يتراوح بين طابقين و ثلاثون طابقاً معظمها هبطت على سطح خرساني . . . نجت حوالي ٩٠% من القطط من الموت ..

المثير للاستغراب ان درجة الاصابة مثل كسور العظام وعدد الوفيات المؤكدة تقل مع زيادة الارتفاع ، وذلك ان القطط التي سقطت من ارتفاعات شاهقة لم تُصب إلا بإصابات طفيفة في منطقة القفص الصدري ، وأُطلق سراحها بعد البقاء ثمانية وأربعون ساعة تحت المراقبة . . . إذا سقطت قطة شاردة الذهن عن طريق الخطأ من حافة النافذة ، فإنها تعيد توجيه جسدها بسرعة وبفطرتها الخلقية حتى تكون سيقانها أسفل منها .. وتستعين القطط بمرونة سيقانها لتمتص قوة الهبوط على الأرض ومن ثم تُقلل قوة الصدمة على جسدها أثناء الارتطام بالأرض .. وهذا يحدث في حال لم تصل القطة إلى السرعة الحدية ، فإنها ستخاف من تسارعها وتحافظ على وضعية سيقانها ممتدة أسفل جسدها يشبه جهاز ماص للصدمات ، استعداداً للنزول على الأرض ..

ولكن، اعرني انتباهك هنا ، إذا وصلت القطة إلى السرعة الحدية (أقصى سرعة يصل إليها الجسم أثناء السقوط الحر) فإن التسارع يختفي وتسترخي القطة نوعاً ما ، وتبسط سيقانها إلى

الجوانب على نحو غريزي من أجل زيادة مقاومة الهواء الواقعة عليها وتخفيف سرعة السقوط بطريقة تشبه السنجاب الطائر ، ثم وقبل ان تصل للأرض تعود للوضع الأول ومد السيقان للأسفل وامتصاص الصدمة ..

نعود الآن للقط المذكور في المجلة ، مع ان القطط لا تموت من السقوط من مرتفع شاهق ولكن هذه القطعة اغفلت واهملت فترة الاستعداد للسقوط ومد السيقان للأسفل ، وظنت انها بأمان لذلك استمرت على وضع تخفيف السرعة وبسط السيقان للجانب وهو وضع الامان والاسترخاء ، أو انها أرخت جسدها بسبب البله المعروف عنها، أو للتمتع بالمشاهد المبالغتة من خلال النوافذ ، طفل ، امرأة ، زوجان يتشاجران ، عجوز تراقب الحائط ، قطة حلوة الفراء ، كلب كرية .. انشغلت تتأمل وتراقب وأغفلت عن العودة لوضع ما قبل الارتطام بالأرض ، وضع الاستعداد ، فتردت قتيلة بسوء القرار والتدبير ..

الأمر عينه ينطبق علينا نحن البشر ، بل أننا ننافس ونبارز القطط في هذه الاستراتيجية . . . البقاء في وضع الامان لفترة طويلة يجعلك تنسى ان هناك بلايا وقوارع حولك في مكان آخر ، وأن هناك متاعب ومصاعب تنتظرك عليك الاستعداد لها ، وتنسى قيمة ما انت فيه من النعيم ، فتبدأ بتغيير حالك وتبديل وضعك ، حتى لو كان هذا التغيير للأسوء ..

لم تكن الكتابة بأقلام الحبر شيئاً يسيراً قبل عقود ، فالأمر كان مكلفاً من الناحية المادية ، مع احتمالات الفوضى الشديدة بسبب تناثر الحبر ، والوقت الطويل الذي يحتاج إليه حتى يجف .. حتى جاء اختراع أقلام "بيك" الذي غير تاريخ الكتابة .. قلم الحبر الجاف المعروف ، أداة الكتابة الرخيصة التي يمكن التخلص منها أو فقدها من دون أسف ، كما تميز هذا القلم في زمن اختراعه بسهولة الكتابة بانسيابية من دون ان يتسبب في تمزيق الورق ، ويمكن الكتابة به على الواح مواد متنوعة إضافة إلى الورق ..

يبلغ عمر القلم أكثر من سبعون عاماً ، احتل فيها مرتبة القلم الأكثر مبيعاً في العالم ، بيع منه مئة مليار قطعة حتى عام ٢٠٠٦ واصبح أيقونة شهيرة لأقلام الحبر الجاف في العالم ، قد تبدو كل هذه المميزات غير مهمة في وقتنا الحالي ، لكن في الحقيقة هذا القلم الذي لم يتغير تصميمه البسيط على مدى سبعون عاماً كان ثورة في عالم أقلام الحبر الجاف ..

قريباً من نهاية الحرب العالمية الثانية ، اشترى رجل أعمال مصنعاً في إحدى ضواحي باريس .. ثم بدأ العمل على أقلام "بيك" واستثمرت شركته في التكنولوجيا السويسرية القادرة على تشكيل المعدن وتمكنت ان تنتج كرة من الصلب الغير القابل للصدأ يبلغ قطرها مليمتراً واحداً ، كرة تسمح للحبر بالتدفق بحرية ..

كما طور لزوجته الحبر بحيث لا تتسرب ولا تتكتل ، ساعد رأس الكتابة السلس ، والتصميم المريح الخاص لأقلام بيك في تحويل السوق العالمية للأقلام من أقلام حبر إلى أقلام حبر جاف .. وفي عام ١٩٥٩ أحضر بيتش القلم إلى السوق الاميركية مع شعار " يكتب كأول مرة ، في كل مرة " .. وسرعان ما بيع قلم بيك بسعر ثلاثون سنتاً وهو ما يعادل ثلاث دولارات في هذا الوقت .. يشبه قلم بيك في شكله السداسي القلم الخشبي التقليدي ، ويظهر الانبوب الشفاف الخاص بالقلم مستوى الحبر ، وهو اختراع مذهل في خمسينيات القرن الماضي ..

وفي عام ١٩٩١ فتحت فتحة صغيرة في تصميم غطاء القلم لتقليل خطر الاختناق عند استنشاق الغطاء ، أو في حالة ابتلعه طفل ، وقد صُمم هذا الثقب خصيصاً لهؤلاء الذين يفضلون عض غطاء القلم من دون وعي ، إذ يجنبك هذا الثقب الاختناق إذا ابتلعتته بطريق الخطأ حتى تصل إلى قسم الطوارئ أو حتى وصول سيارة الاسعاف . . . ورغم ذلك لا تحاول تجربة هذا الأمر أبداً.. يعدّ قلم بيك التقليدي هو الأعلى مبيعاً في العالم والمنتج الرئيس للشركة وأحد مصادر دخلها الاساسية حتى الآن .. قامت الشركة مؤخراً بإصدار مجموعة من الأقلام النسائية ذات اللون الوردي والارجواني ، والتي أثارت موجة سخرية لدى المستخدمين الذين تساءلوا: أنستي ، هل كنتِ تستخدمين أقلاماً رجالية طوال العقود الماضية ؟ ..

وأخيراً ، وهذه زبدة المقال وما يهمننا من هذا الشرح المطول كله .. قبل فترة ليست بالبعيدة نشرت الشركة صورة للقلم الاسطوري بشكله الثابت وكتبت أسفلها: لا تحاول تغيير شيء طالما لا زال يعمل..

الآن ، لنفكر معاً ، كم من شخص غير وظيفته للأسوء ثم ندم لأنه نسي انه كان في الموقع الأفضل .. وكم من شخص طلق زوجته أو تزوج عليها ثم ندم لأنه غفل ان أفضل زوجة وأفضل أم كانت بالقرب منه .. وغيرهم الكثير ممن سافر ، أو ترك عمله ، أو غير مسكنه ، صديقه ، طريقة تربية ابناءه ، ثقافته ، طباعه وأخلاقه ، عادات مجتمعه .. ثم .. تلهف .. نادماً . . . وكم من أب في عالمنا العربي المتفرد بقوانينه ، استيقظ يوم الجمعة ، تأمل حوله ، وثب ناحية جهاز يعمل وعزم على تطويره ، حتى أفسده ثم ندم وتمنى العودة بالزمن ، رماه في القمامة وخرج للسوق يبحث ، أملاً ان يجد جهازاً يشبهه..

صديقي الصدوق ، إذا كان عيشك ورزقك رغد لك وأمان ، يكفيك وعائلتك ، هذا خير والحمد لله ، لكن ، لا تمد ساقك وتتمطى ثم تغفو مبتسماً وتظن انك بمأمن من الحوادث المباغتة ، لا تعتقد ان رزقك سوف يستمر على هذا المنوال لوقت طويل ، وأن المنافسين والحاسدين بعيدين عنك ،

عليك الاستعداد للشرور والمصائب ، وادخار بعض المال ، والتهياً لتفادي الخسارة وتدهور المشاريع وانهيار الارباح ، لا تكن كالقط الذي غفل انه يسقط ، تخلى عن الاستعداد ومات .. ولا تحاول تغيير شيء طالما الأمور تمام التمام وانت مستعد لها كل الاستعداد ، وسلسلة حياتك لا تزال تعمل بجد ، واطب واستمر في وضع الاستعداد ولا تتخلى عنه إلى وضع الاسترخاء والبحث عن الراحة والتسلية ثم تسقط ولا تشعر ، حتى تجد وضعك المالي ملتصقا، بالأرض ..

نعود للقط المذكور في الجريدة والذي كتبت عنه في بداية هذا المقال ، وبعيداً عن الجانب العلمي وبعيداً عن قوانين السقوط وثرثرة الفيزياء ، لا أعتقد انه سقط سهواً فقد تبين ان هذا القط من نوع فريد وقام العلماء بإشراكه في الكثير من التجارب العلمية ، والكثير من صوره موجودة في الجرائد والاعلانات وهو يرتدي ازياء مختلفة ،

وقبل سقوطه من حافة الشباك بثلاثة أيام اشترى له مالكة قلادة من الذهب الخالص ، وتم نقش اسم القط بحروف كبيرة على قرص من الذهب أسفل القلادة ، وفوق الاسم وُضعت حبة صغيرة من الماس تجهيزاً لجلسة التصوير الخاصة به ، حيث كان المصور يبذل جهداً كبيراً ليغيّر من هيئة القط ، ثم يلتقط الصورة المناسبة . . . وبعدها بيوم وعندما كان القط يسقط من الأعلى بعد ان حاول التثبيت بمخالبه ، والتي تظهر وقت الحاجة ، وبدأ يخمش حافة البلاط الخشنة ، واصبح الموقف خليط من الصراخ بغضب والمواء والتوسل لكن بلا

أي فائدة لقد هوى القط المسكين خائف ومذعور من الأعلى .. لم يستغرق الأمر سوى جزء من الثانية لكل هذه الاحداث ، ميلان ، ترحلق ، سبعة أو عشرة أو ستة عشر خمشة ، وبين صرخة وتوسل ، وأخيراً سقط للأسفل ، وحدث كل هذا في أقل من ثانية ، ولسوء حظه صادف وجود ثلاثة شبان يقفون اسفل البناية

.....

.. ؟ ..

أعلم ان هناك تضارب كبير في كتابة المقال ، وكذلك في طريقة شرحه ، أعلم انه مُربك ويجعل القارئ في حيرة من أمره ، إلا انني في الحقيقة تعبت ، ونفدت طاقتي ، ولم يعد لي مزاج لكتابة تنمة القصة ، ولا استطع حذف المقال ، ولا إعادة ترتيبه من جديد . . .

وكذلك .. اعتذر

دعنا نقالب الصفحة وننسى هذا الهرج والتشويش ونشرع بقراءة مقال آخر جديد ،

لا داعي لقطب جبينك وازدراء مقالي وكلماتي ، لا داعي للغضب ، إلى اللقاء ..

لن يسبقك أحد ، إذا كنت تجري وحدك ..

لن تسبقك أحد ، إذا كنت تجري وحدك ..

المخلوق ..

سجن قارا .. في المغرب .. هل سمعت عنه ؟ أعتقد ان الجواب هو : لا .. انه اخطر و اغرب سجن عبر التاريخ .. وهو عبارة عن معلمة تاريخية مهمة ومن أشد السجون غموضاً ورعباً في العالم . . . ويوجد هذا السجن المريب تحت الأرض في مدينة مكناس المغربية ، يقال ان مساحته مجهولة ، وهو السجن الوحيد في العالم بلا ابواب أو نوافذ ، ومن يدخله لا يخرج منه أبداً . . . اتخذ المولى اسماعيل في القرن الثامن عشر مدينة مكناس عاصمة للمغرب أثناء فترة حكمه ، وقام بتشييد سجن يمتد تحت باطن الأرض إلى مدى غير معروف .. حيث أمر السلطان بإنشائه لكي يُلقى فيه الأسرى من الجيوش والاجانب الذين يدخلون البلاد معتدين ، أو للتخلص من اعداء السلطان المعارضين للحكم ..

تُرجح أغلب المصادر ان أصل تسمية سجن قارا بهذا الاسم إلى رواية تصف المعماري البرتغالي وبأنه كان سجيناً لدى حكومة السلطان المولى إسماعيل ، وأنه اقترح تصميم هذا السجن السري تحت الأرض مقابل حريته ..

ويقال ان مساحة السجن غير معروفة لان أغلب أقسامه غير مفتوحة للعامة الآن ، فهناك من يقول ان مساحته تقدر بعشرات الكيلومترات تحت الأرض وعلى عمق غير محدد ،

وأن أقسامه السرية تمتد على مساحة مكناس بأكملها .. وأن ممراته متشابكة إلى درجة تجعل السجين يموت قبل ان يصل إلى نقطة الخروج .. والشكل الهندسي للسجن مصمم على شكل شبه مستطيل ، مقسم إلى ثلاث قاعات واسعة ، وفي كل قاعة مجموعة من الاقواس والدعامات الضخمة ، وعلى هيئة دهاليز ومتاهات معقدة جداً ، وفي كل قاعة يوجد عدة ممرات ، وكل ممر يقود إلى قاعة أخرى ، ثم ممرات أخرى وقاعات جديدة غيرها ، ثم أخرى وأخرى بحيث انك إذا توغلت فيها ولو قليلاً اصبح من شبه المستحيل ان تجد طريق الخروج مرة ثانية ، ومن الصعب جداً ان تعود من حيث أتيت ..

ويحتوي على عدة ثقوب في السقف ، حيث يتم رمي السجناء من تلك الثقوب وكذلك الأمر بالنسبة للطعام ، ولهذا يعتبر بمثابة سجن مؤبد لمن يدخله .. هناك رواية تقول ان المولى إسماعيل جعل للسجن مخرج واحد في مكان ما ، والذي يجده فهو حر ، ولكن مع الاسف لا أحد عثر عليه . . . هناك من يتساءل ، لماذا لم يتم استكشاف هذا السجن لتتجلى كل أسرارهِ ؟ .. السبب ببساطة هو انه لا يوجد من لديه الشجاعة لدخوله ، وهناك من يقول ان السجن مسكون بالجن والعفاريت وقرناء الذين ماتوا فيه بأبشع الطرق ، وانه ملعون بشكل من الاشكال ، لأنه كان مهجوراً في فترات طويلة وهو ما جعل جن الصحراء يسكنه ، بجوار ارواح الموتى الذين كان معتقلين بباطنه ..

حاول الكثير من المغامرين استكشافه وكانت النتيجة ان من دخله لم يرجع أبداً . . . وكانت واحدة من هذه المحاولات هي لفريق من المستكشفين الفرنسيين في التسعينات ، عندما قام هذا الفريق بتحضير كل الادوات اللازمة والتجهيزات والتقنيات الحديثة لسبر أغوار السجن ، فكانت النتيجة مأساوية ، اذ اختفى الفريق ولا يزال مصيرهم مجهول إلى يومنا هذا . . . وبسبب انتشار اخبار هذه الواقعة قامت الحكومة المغربية بغلق سراديبه وممراته بحائط اسمنتي ، وتركت قاعة الدخول الرئيسية فقط متاحة للزيارة كأحد المقاصد السياحية ، ويجذب هذا السجن العديد من السياح الذين يأتون خصيصاً إلى مدينة مكناس لزيارة سجن " قارا " الاسطوري . . . وعلى مدار تاريخه ألقى فيه أكثر من مليونين سجين .. عندما تسمع عن مثل هذه الاماكن الغامضة والسجون تفهم لماذا يُعتبر الإنسان أخطر مخلوق على وجه الأرض ..

هل تعرفت يوماً إلى حيوان اسمه "ابو الحسل" هذا الحيوان هو صغير الضب وولده البكر ، العزيز على قلبه الخشن .. يتغذى على الاوراق والحشائش في الربيع ، اما في فصل الشتاء فإنه يعتمد على الروث الخاص به .. يكبر ليعيش وحيداً ، ويأكل بعض النباتات الشوكية والحشرات ، ولا يشرب الماء إلا نادراً ، حتى انه لا يحتاج إلى ذلك لأنه يستفيد من العصارات داخل النباتات والحشرات ، ويمتص محتواها المائي الموجود داخل خلاياها ..

ترك الكرة الأرضية كلها ليعيش لوحده في حُفرة وسط الصحراء ، ويتحمل كل التضاريس صيفاً وشتاءً .. ومع ذلك يذهب الناس إليه لاصطياده بعدة طرق . . . أما بإطلاق النار عليه . . . أو ينتظر الناس موسم الامطار حيث تكون الأرض لينة ، فيتم إدخال عود مرن لتحديد موقع الضب في الجحر ، ثم الحفر واستخراجه . . . أو عمل عقدة خيط وتربط إلى صخرة ، فيخرج الضب للغذاء أو أخذ حمام شمسي ، حمام هو الاخير في حياته ، فيُشنق بهذا الخيط . . . أو يتم اغراق الجحر بالماء لإجبار الضب على الخروج واصطياده . . . وهناك خدعة أخرى حيث يضع الصياد حزمة من العشب أمام فتحة الجحر ، ليصدر العشب خشخشة تحاكي صوت حركة الافعى ، عندئذ يمد الضب ذيله ليدافع عن نفسه فيمسكه الصياد من ذيله ويسحبه للخارج . . . أو استخدام الحيلة الأشد خبثاً وهي مد خرطوم من انبوب عادم السيارة وادخاله في جحر الضب ، فيخرج الضب مختنق يترنح يمكن الامساك به بسهولة ..

يعيش وحيداً في جحر له فتحة واحدة ، ومخرج واحد ، ومع ذلك يذهب الناس إليه لإخراجه من حفرة و قتلته وأكله . . . لا أعتقد ان هناك مجاعة في العالم ونقص في الطعام ، وخاصة في هذه الدول التي يُشتهر وجوده فيها تبرر هذا الفعل الاجرامي ، إلا ان هذا الزاحف المدقع ، الشحاذ الذليل ، يُقتل ويؤكل للوناسة . . . ان البشر وغير البشر يفعلون الشر بفضيلة ولطف ، ويُكتب لهم مأثرة ..

يقال ان أكثر شخص يخاف ان يزعج الفريسة هو الصياد ،
فلا يغرك الاهتمام الزائف ، حتى ان ابليس لما أراد اخراج ابونا آدم
عليه السلام من الجنة قال له :

اني أريد لكما الخير «وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين»
ان أغلب الاشرار في العالم ومع الاسف الشديد لطفاء وظرفاء الصلبة
وقديماً في مصر كانوا إذا أصابهم الجفاف وقلّ منسوب النهر يختارون
فتاة بكر صغيرة ، ويلبسونها الحلي والجواهر ، ويرموها في نهر النيل
ليجري ماؤه .. ألم أقل لك ، يُعتبر الإنسان أخطر مخلوق على وجه
الأرض ..

عليك الحذر دائماً لأن الإنسان مجبول على الظلم والاذى ،
قال الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان وهو أعلم به «ان الإنسان
كان ظلوماً جهولاً» وعندما أراد الله خلق البشر قالت الملائكة
«أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» كن حذراً ، لأنك مهما
كنت طيب القلب وتقدم الخير ان اخطأت مرة واحدة ، فإن هذه المرة
ستكون كالحب الأول ، لا يُنسى . . . ولا أعني بكلامي هذا مقاطعة
الناس والتقرز منهم وهجر العلاقات الاجتماعية ، وإنما الحذر من هذا
المخلوق . . . والأهم من كل هذا عليك الحذر من نفسك ، لأنك ستظلم
وانت لا تشعر بذلك ، بل تظن انك على صواب ..

هل تعلم ان الظلم ، وكذلك الغباء ، يمنع صاحبه من الاحساس بأنه يظلم ويعتدي ، والشرير يظن انه يفعل الصواب ، ودائماً ترى الشرير يحاكي ويقتفي المسكنة والعطف ، ويقول عن نفسه انه انسان طيب وانه يتعرض للظلم وقلة التقدير . . . فاحذر ان تؤذي أحداً بلا احساس منك ولا شعور بالذنب ، صاحبك يتألم بشدة بسببك وانت لا تدري ، عائلتك تتألم خوفاً منك وانت تتكلف الحكمة ، وتتصنع جلب النفع والفائدة لهم ..

ومهما كان طبع البشر مؤذ وضار لغيره ، كل ما عليك فعله الا تصبح مثلهم ولا منهم ، لأن الظلم والاذى مؤلم لدرجة يعجز اللسان عن وصفه ، وحتى لو كان الإنسان على درجة من التقوى والعظمة فإنه يتألم ، حتى ان آدم عليه السلام ، خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه ، وهو أول بشر وأبو البشرية كلها ، وعندما قُتل ولده هابيل حزن عليه حزناً شديداً وقال:

تغيرت البلاد ومن عليها .. فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم .. وقل بشاشة الوجه المليح

قبل ما يقارب من خمسة عشر عاماً ، وفي بداية الشتاء القاتم البارد ، تركت مدينتي وتوجهت لمدينة السليمانية ، لأجل العمل والمال.. ذلك الصباح كان بارداً ، منعشاً ، يُرغمُك على النظر من نافذة السيارة المسرعة نحو الشمال البعيد .. وكانت السحب البيضاء القطنية تملأ السماء من كل الاتجاهات ، منذ ثلاث ليالي ، غيوم بلا امطار ، يدفعها نسيم الصباح بلطف ، وهي تعانق بعضها لتمنع قرص الشمس من الظهور .. وعندما تمد الشمس اشعتها الذهبية اللاسعة النحيلة بين الفينة والفينة ، تهديك جرعة رخيصة من الانتعاش ، وبالرغم من حلكة هذه السحب وتكاثرها فقد كان واضحاً انها لا تنذر بالتجمع لإحداث عاصفة مرعدة تعكر صفو رحلتنا في أول يوم لنا ، كانت الغيوم تغير من أشكالها المبهمة وتتفرق ، تستطيل وتستدير كأنها ترقص ، وتغير ألوانها كذلك ..

ثم بدأت السماء الصافية البهية بالظهور من جهة الغرب ، المطر لن يهطل اليوم ، والطقس سيكون أجمل من فرحتي بالحصول على هذا العمل ، في هذا المكان الزهري ، حيث لن تجد ملابسك دبقة بسبب رطوبة مدينة البصرة ، ولن يضيق صدرك في بغداد المكتظة ، ولن تمل صحاري مدينة الانبار الطويلة ..

أقنني صاحب المعمل بسيارته إلى اقليم كردستان ، أكثر الأماكن سحراً في العراق .. شعرت ببرودة تغمر قلبي ، انني محظوظ لنيل هذه الوظيفة في هذه البقعة من العالم ..

في الماضي لم نكن نستطيع الوصول هنا إلا عن طريق
السياحة المكلفة ، وذلك بعد الحصول على تأشيرة الإقامة والموافقات
الرسمية ..

عندما تنتظر من النافذة ترسم أيامك القادمة ، وتتخيل نفسك
ممدد كل يوم عدة ساعات على هذا العشب الاخضر ، المائل إلى اللون
الاصفر بسبب البرد ، وأوراق الشجر ، والحشرات الزاحفة ، والذباب
وفراخ البط تصفق على الطين ، وربما تمكنا من تجربة الصيد احياناً،
أو التعرف إلى المزارعين هناك ..

على طول الطريق ، وعلى اليمين والشمال هناك مزارع
الحنطة المتموجة ، وبعض شجيرات لا اعرف نوعها ، والفلاحين
يرتدون السروال العريض ويلفون رؤوسهم بالشماغ ، والملابس
الصوفية ، وبعضهم يرتدي جاكيت بلا أكمام ، والمحاريث والجرار ،
وأشجار متفرقة بعيدة . . . وقريباً من كل هذا كانت مجموعة من
الخراف السود والبيض تحاول الهرب في كل اتجاه ، وبعض الكلاب
تعيدها لمسارها ، والراعي يستخدم الحصى والصياح ليبعدها عن
مزرعة جاره . . . في شتاء ذلك المكان الرحيب عليك ان ترتدي
الصوف النخين سواء كنت بشراً ام خروفاً ، أما الكلاب تركض
عوضاً عن ذلك . . . لم أرى أي شجرة جوز أو بلوط ، يبدو انها
تزرع في مكان آخر ..

ثم غصنا داخل مجموعة من الطرق الضيقة بين الجبال الخضراء ، طرق هائجة لكنها لا تنفض الغبار ، ثم الممر البطيء المتعرج بين التلال إلى المعمل ، كانت السيارة تهتز بشدة وهي تشق طريقها فوق الحصى . . . في الطريق ألقى السائق التحية على رفاقه وكانوا يتكئون على الجدار الشمسي بحثاً عن الدفء ، وهرباً من الهواء البارد المنقى ..

ثم ظهر المعمل من جهة السائق ، في بقعة منخفضة قليلاً عن جانب الطريق ، وفجأة وعلى الرغم من الجو الناصع الدمش ، انتابنتي رجفة ، وتمنيت ان اذهب للبيت ، حيث بدت أمام مخيلتي بوضوح صورة قفزت من ذهني ، صورة ولدي بعمر ستة شهور ، يبتسم ، ويناغي ، اشتقت لرقبته الطرية ، وعطرها الجميل ، اجمل من رائحة التفاح .. كنت أعلم تمام العلم اني أفعل هذا لأجله ..

معمل تكرير النفط ، معمل بعيد ووحيد بين الجبال ، بدائي وبسيط وصغير ومنعزل .. مساحة المعمل هي نفس مساحة ملعب كرة قدم ، في مقدمة المعمل يوجد كرفان يحتوي على أربعة غرف ، ومطبخ فيه أسوء الطباخين وأسوء وصفات الطبخ ، لا أدري كيف يسمح لهذا الطعام بالدخول إلى المعدة .. وبقيّة الغرف هي استراحة للعمال وللنوم ، وفي الوسط كانت توجد ساحة كبيرة للناقلات ، وعلى اليمين خصص مكان لمولد الكهرباء ،

أما في الزاوية البعيدة هناك وُضعت ثمانية خزانات ضخمة سعة كل منها مئة ألف لتر ، ورصفت على شكل مجموعتين ، لخزن النفط الخام أو خزن المنتج بعد تكريره ، اما على اليسار كانت هناك معدات المعمل والتصفية وتكرير النفط ..

والفكرة الاساسية لتكرير النفط بسيطة وقديمة وبدائية ، تُعرف بـ " التقطير " .. حيث يدخل النفط الخام عبر انبوب إلى الفرن ، وعندما يعمل الفرن يحدث صخباً عالياً كأنه وحش يشخر كالمجنون ، داخل الفرن يوجد وعاء كبير مُحكم يتعرض للنار بدرجة حرارة عالية ويسجّن النفط المار بداخله حتى يبدأ بالتبخر ، وتتبخر كل مادة بناءً على درجة غليان خاص بها ، فتتبخر المشتقات الخفيفة أولاً مثل "النافثا" التي يُصنع منها البنزين .. ومع استمرار درجات الحرارة بالارتفاع تتبخر المشتقات الاثقل مثل الديزل ، ثم الاثقل ، وهكذا ، حتى لا يتبقى في الفرن إلا الاسفلت ومواد مشابهة مثل الفحم النفطي..

ومع تبخر كل مشتق حسب درجة غليانه ، يُبرّد ويُجمّع في خزّانات خاصة ، حيث يتم تكثيف هذا البخار بالتقطير وعند درجة حرارة معينة لكل منتج ، ثم يغلق المشغل و مساعده صمامات خاصة وينقل المنتج المتبقي في الفرن إلى خزان آخر ، وهو منتج تخين القوام لبقايا النفط الخام من الاسفلت والزفت والفحم النفطي ، ثم الاطفاء والتأكد من سلامة المعمل والآلات ، وأخذ استراحة بسيطة ، ثم ملء الفرن بالنفط الخام واستئناف العمل من جديد ..

هذا شرح بسيط ومختصر لعملية تكرير النفط الخام واستخراج المنتجات منه .. ثم يعبأ مرة أخرى بالشاحنات ، ناقلات النفط "الصهرىج" إلى مكان لا نعرفه .. وكل هذه العملية من التكرير والنقل والتصدير في هذه المعامل البدائية التي تقام بين الجبال ، بعيداً ، خارج المدن ، يقومون بها لخداع منظمات النفط العالمية ، والتحايل على قانون منع تصدير النفط الخام خارج البلد ..

هناك حيث التلال الترابية الحمراء ذات الرائحة العشبية الممزوجة بالطين ، تنتشر فوقها الزهور قصيرة العمر ، بألوانها الفاضحة على مرأى البصر، كل شيء بهيج الطلة ، ويشجعك على التنفس حتى يتورم صدرك . . . عندما كنت هناك .. وحيداً .. منزوٍ .. كان صوت الحمامة يشعرني بالدفع ، والحنان ، والطفولة ، والبكاء ، وفي الليل تبهرك السماء ، سوداء مرصعة بالنجوم ، وشديدة الصفاء..

كانت وظيفتي محاسب لمدة شهر واحد ثم أصبحت مدير إداري للمعمل ، وكان عمري قريباً من ثلاثون عاماً .. الطعام وفير ، والراتب كبير ، والعمل مريح ، وسلس ، وذلك لأن مالك المعمل سخي وطلق اليدين ومتساهل . . . تعرضنا لبعض الحوادث هناك ، أمست ذكريات خفيفة مهمة .. إحدى الليالي ظهر لنا ذئب جعلنا نترك المكان تعمل والفرن راضخ يزمجر ، طافح بالنفط ، واختبأنا في الغرفة وأقفلنا الباب على أنفسنا ، وكأن الذئب الفطن يمكنه الإمساك بالمقبض وسحب السقاطة وفتح الباب ..

ومرة سمعنا صفير انفجار الغاز الموجود في خزان فارغ ،
جعل العامل يركض حبواً بيديه ورجليه ، كأنه ضبع كسرت ساقه
الخلفية . . . وكنت قد تعلمت قيادة السيارة في الطرق الخالية الزلقة ،
شاحنة عجوز متعبة لكنها نشطة ، وكأنها صبي من الريف يركض
حافياً .. وفي كل مرة يجذب انتباهي شيء غريب في ذلك الوقت ،
والآن ، وفي كل مكان وزمان ! .. عندما يصعد العمال للسيارة بعد
انهاء العمل ، لا أدري ما السبب الذي يجعل كل عامل يوصد الباب
بقوة ! .. هل هو برهان على انجاز العمل بنجاح باهر ؟ أو ربما إقرار
على انه يشعر بالتعب والنشوة ..

وأ تذكر .. أيضاً .. عندما احترقت ساقية الماء المغطاة بالخام ،
ساقية بطول خمسة أمتار وعرض أقل من متر ، تتجمع بها مياه
التنظيف وفضلات المعمل ، وكانت تطفو على سطحها بعض المواد
النفطية ، احترقت قرب الخزانات ، لم تكن نملك سوى ثلاث
اسطوانات اطفاء الحريق صغيرة الحجم ، امسك كل شخص بواحدة ،
وبدأ يصوب تجاه النار ، أما البقية كانوا يصرخون ويركضون في كل
اتجاه ، قريب من النار ، يشبهون مجموعة من النمل عندما تسحب
قطعة الحلوى من بينهم ، الكل يصرخ وهو يعطي الاوامر
والارشادات، بلا أي فائدة .. أحد العمال جاء يركض حاملاً اسطوانة
مطفأة الحريق وسحب صمام الامان ووجه الخرطوم نحو اللهب ، مع
صرخة وكأنه يريد ان يخيف اللهب الغاضب ، ضغط على المقبض
ولم تخرج منها أي مادة ، حاول عدة مرات ولم يحدث شيء ،

عندها قام بحملها ورميها وسط الساقية والنار ، صرخت به مستغرباً: ماذا تفعل ؟ قال لي: عندما تنفجر سوف تنتشر المسحوق الذي بداخلها وتُخمد النار .. قال هذه الكلمات بحزم ، وصراخ بالتأكيد، نظرت إليه فاعراً فمي ، الاحمق ، إذا انفجرت سوف تنتشر الوقود المشتعل في الارحاء ، وعلى الجميع . . . ناديت جميع العمال ليبتعدوا على ان نستأنف اخمد النار بعد انفجار المطفأة .. انفجرت بعد دقيقتين وعدنا لمحاولة اطفائها ، لكننا ، وللأسف ، اصابنا اليأس وسط كل هذا الصخب لذلك انسحبنا ، وتركنا النار تتأجج حرة ..

جاء بعد ذلك رجال الاطفاء الهادئين واخمدها على مهل ، لم تكن تستوجب الحذر حتى .. والكثير جداً من الذكريات .. عندما هجم سرب جراد كثيف كسحابة يغطي الافق ، ويفرش الأرض ، ويلوي الزرع .. يُذكرني بتكدسه المقرف قول أحد الشعراء:

ثلاثة من طبعها الفسادُ ، الفأرُ والبربرُ والجرادُ ..

وعندما وجدت عقرب صفراء في سريرى ، وابنتها تختبئ في ملابسي .. الكثير من الذكريات ، لا أعتقد انها تعني لك شيئاً ، لكنها تجوب رأسي على الدوام ، لم ألتق بأحد العمال يوماً لنذكر هذه القصص بتباه واختيال ، كما يفعل الجنود القدامى مع أولادهم المُجبرين ..

عندما حل الصيف تبين ان هناك نقص ، اختفت عشرات الملايين من الدينانير خلال الجرد الشهري ، ولا دليل على وجود سارق أو سبب لهذه الخسارة ، تم سرقة منتج بما يعادل مبلغ خمسين مليون دينار . . . عندها قام صاحب المعمل بمضاعفة كمية النفط الخام ، خطوة جريئة منه لتعويض الخسارة .. لكن .. حدث العكس وتضاعفت الخسارة إلى مئة مليون .. كنت المتهم الأول بسرقة الأموال ، وكذلك مشغل المعمل ومساعدته .. لطالما كنت أعتقد ان فكرة العمل في غابات الشمال الجبلية هي فكرة رومانسية ، حتى أدركت مساوئها عند الذهاب والتوغل هناك ..

استدعاني مالك الشركة لغرفته الملاصقة لغرفتي ، نهضت وتفحصت نفسي بقلق في مرآة نظيفة ، رخيصة ، معلقة على الجدار.. كان الجو حار وعصبي ، والشمس شديدة الحرارة ، ان قضاء دقائق زهيدة تحتها حتى تظهر على وجهك كل ملامح الفقر والبؤس ، انتظرت قليلاً ، مطأطأ الرأس ، اراقب اخاديد الصلصال الجافة . . . ثم دفعت الباب الصدي ودلفت للداخل ، كان الرجل يسند رأسه للخلف وقد اغلق عينيه ، وكان يسترخي حائراً ، لم يشعر بوجودي رغم صرير الباب الحاد ، صرير يؤلم الاسنان ، القيت التحية بهدوء محاولاً ان أبدو أكثر تماسكاً ..

لم تكن الغرفة مكتب فخم يليق بمدير شركة نفط ، رغم صغر هذه الشركة ، لا يوجد مكتب على غرار المدراء ، ليس هنالك كرسي دوار مصنوع من الجلد ، لا توجد لوحات على الجدران ، لا أواني من الفخار لنباتات الظل ، لا مكتبة أو قرطاسية ، ولا حتى طبلية صغيرة لوضع قدح الشاي ..

كانت الغرفة للاستراحة فقط ، تحتوي سرير معدني مقعر للأسفل ، كأنه يريد ان يُقَبَّل الأرض ، مخصص للنوم والجلوس ، وتفوح منه رائحة العطن ، وكرسي بلاستيك مليء بالخدوش وكأنه معد للقطط لتحك عليه اظافرها ، وعطر البطانية المختمر ، والفراش العتيق .. تشبه إلى حد بعيد غرفة حارس كهل ، اعزب ، في مخزن قديم للأدوات ، خارج المدينة ..

كان المدير رجل عجوز وسمين ، ونظيف ، وكذلك انيق ، يضع عطراً غالياً ، يلبس قميص ابيض وسترة جميلة بلون الحبر ، لا أظن انك سوف تجد صعوبة في تخيل كيف يجلس مدير سمين وسترته ، يحقق مع أحد موظفيه حول سرقة . . . جلس أمامي برأسه الكبير المستدير ، وبدأ يسألني عن كمية النفط المفقود وهل من جديد حول الموضوع ، بدأ يشرح لي عن كمية المال الضائع وأنه يبحث عن أي خيط يوصلنا لسبب من أسباب الخسارة الشنيعة ،

كان يستجوبني بطريقة غير مباشرة ، يتمم ويهرش رأسه ثم يسرح قليلاً ويعود لسؤالي مرة أخرى ، كان يسأل واجيبه ويكمل مردفاً امممم .. همم .. امم .. ها .. اممم . . . لم تكن نظرتيه وصوته هي نفسها من الرجل الطيب الذي عهدناه من قبل ، كانت أكثر ميلاً لإعطاء أوامر صادرة من شخص في موقع السلطة ..

بعد ان أنهى ما في جعبته من الاسئلة ، جلسنا صامتتين وكل منا متحير في أمر الآخر ، بدأ ينظر تجاهي بحماس ، متصلباً ، ينتظر ان ترمش عيني للتأكد من اني هو المجرم الخائن للأمانة ، يحاول اخافتي بتلك العيون ذات اللون الاخضر الفاتح ، يتوسطها خرز صغير لونه بني داكن ، يشبه بذرة داخل نصف حبة عنب خضراء ، يعصر عينيه بقوة محاولاً اخافتي ، وأنا انظر إليه بنفس الطريقة ، لأنني أعرف ما يريد من هذه المحاولة الساذجة ، ركزنا في عيون بعضنا كغبي وأغبي ، كما يتحدى الأطفال بعضهم ، لمدة ثانية واحدة ، اثنتان ، ثلاث ، اربع ثوان ، تسعة ، عشرة ، خمسة عشر ، ستة عشر إياك ان تطرف أو تبدو خائفاً ، بقينا على هذه الحالة الحذرة المضحكة لما يقارب من عشرون ثانية ، مجرد تصور ان شخصاً ينظر إليك على نحو غريب ، هو أمر مزعج جداً ..

هذا الرجل اخافني حقاً، لم يكن السبب عيونه الذابلة أو نظرتيه التي اجهدته ليتقنها ،

لكن ما اخافني هو حكمه الذي أراد ان يصدره ضدي بدليل واهن ، دليل رمشة عين المتهم ، ومعناها انه كاذب خائف لم يستطع كتم جرمه أكثر . . . يؤكد خبراء لغة الجسد ان التواصل بالعين اثناء الحديث دليل على صدق المتكلم ، أما إذا تحدثت لشخص يكذب فإنه لن يستطيع النظر لعينيك أبداً أثناء الحديث ، وفي بعض الاحيان يتلفت ليراقب الاشياء من حوله ..

يبدو انه قرأ هذا المقال سابقاً ، وأعجبه .. بعد هذه المحاولة اليائسة نظر مهزوماً إلى الاتجاه الآخر وسرح تائهاً يفكر ، انا متأكد انه قال في سريره: يبدو ان هذا الابله بريء حقاً .. هز رأسه بطريقة جميلة ، مؤلمة ، ثم ، ابتسامة فاترة ..

خيم الصمت بضع دقائق فيما عدا دقائق قلبي والساعة المعلقة على الحائط الحزين الرطب ، ساعة مكسورة الزجاج . . . لم أكن أعتقد ان الاستجواب كان من الممكن ان يسير بشكل أفضل ، ان استحالة ان اسرق من هذا العجوز كاستحالة رؤية نهر أو بحر بلون ازرق في الحقيقة . . . ابتسمت خفية ، متشفياً ، منتصراً ، ثم شرعت بالخروج ، كلانا شعر بالحزن ، هو لم يجد ضالته ، وانا حزنت لموقفي ، لص . . . بعد فترة من الزمن تبين ان الخسارة سببها تبخر كميات كبيرة من المنتج خلال فصل الصيف ، وذلك لأن المعمل بدائي لا يحتوي أجهزة أو معدات حديثة تحول دون ضياع المنتج في الهواء .. هواء الشمال ، البريء من الغبار ..

أشرقت الشمس بهدوء لتضيء جميع طرق المزارع الضيقة
حولنا بنور صاف مفرح ، كل شيء هناك جميل ما عدا اني مكتظ
البال ، الحشائش والورود الملونة المبتلة ، والأرض الطينية ، وبعيداً
ذلك التل المرتفع ، كنت امشي عليه في الربيع الفانت حين اشتاق
لطفلي ، وحشائش قصيرة تملأ وسط الطرقات ، وفضلات الخراف
المكورة ، مبعثرة في كل المكان ..

مرّ قطع من البقر بخوارها وثغائها، وآثار خطوات البقر
على فضلاتها تشبه ختم قديم ، والهدوء ، هدوء قاتل مريح ، يبعث فيك
اهتياج للتفكير بكل شيء ، بلا هوادة . . . هناك على مسافة ليست
بالبعيدة أستطيع رؤية فلاح ينظر نحوي بانزعاج ، لأن بعض نفايات
النفط تسربت إلى داخل ارضه ، لقد كنت حقاً أظن ان العمل سيكون
اشبه برحلة مجانية إلى جبال الشمال . . . امضيت ستة اشهر بحلوها
ومرّها ، ثم استقلت من العمل وعدت للبيت ..

لقد كنت محظوظاً هناك محظوظ وماهر ، وجيد في عملي ،
ولا بد من الحظ للنجاح ، لأن اتقان العمل والاخلاص ليس كافياً ..

ثم تكرر نفس الموقف مرة أخرى ، الحكم عليك بدليلٍ سيء
واهن .. انتقلت بعد فترة ليست بالقليلة للسكن في بغداد ، وبعدها
بعامين تقريباً طرق الباب رجل غريب وعرفني بنفسه ، انه رجل
الاستخبارات في مركز الشرطة القريب من بيتي ، وانه يجب عليّ
الحضور لملء استمارة معلومات ، ذهبت للمركز ودخلت على غرفة
ضابط الاستخبارات ، كان رجلاً في الاربعين ، بُنيته اقرب إلى مقاتل
عسكري ، يبدو عليه مظهر رجل الجيش الحقيقي ، اسمر ، طويل ،
شعره اسود مصفف بعناية .. سألني وهو يثبت عينيه في عيني بتعاضم:

- هل تسكن بالإيجار ؟ ..
- كلا ، هذا البيت ملكي ، لدي سند يثبت هذا ..

- أردف سريعاً وقد عزم ان يكون سؤاله واضحاً على الفور
- منذ متى وانت تؤجر هذا المنزل ؟ ..
 - سيدي ، ان المنزل ملكي ولديّ ما يثبت هذا ..

عبت بأصابعه في شاربه مفكراً.. ثم.. آااااه .. نعم .. هذه النظرة
التي أعرفها .. ها قد بدأنا ... ها قد بدأ العد التنازلي .. إما ان تثبت ،
أو للسجن والتحقيق والتعذيب ... استمر الحال هذه المرة لأكثر من
خمس وعشرون ثانية ، نحدق في عيون بعضنا .. يسأل وأجيبه ثم
يصوب نظره تجاهي .. ثلاث جولات متتالية .. كنت خائفاً أكثر هذه
المرة ، وتائه ، ومتحير .. لا أدري ماذا علي ان أفعل ، هل استرسل
وافرط في النظر ، أم التفت لجهة أخرى ؟ ..

انه ضابط استخبارات ، وهذا يعني ان هناك احتمالين للنتيجة ..
الاحتمال الأول ، انه سوف يعتبرها نظرة تحدي ، قلة أدب ، جلسة
تأديب . . . الاحتمال الثاني ، سوف يعتبرها هرب من الحقيقة ، كاذب
مجرم . . .

كنت خائف ، ومرعوب ، ومهزوم ، وخائر القوى والمدد . . . في
طريق العودة من مركز الشرطة للبيت ، أخبرني ولدي الصغير انه
كان يمتلئ ذعراً عندما كان يجلس بجانبى على الكرسي في غرفة
الضابط ، وكنا انا وضابط الاستخبارات نحدق في عيون بعضنا . . .
وقال لي: لقد كنت ارتجف بقوة ، وكاد قلبي ان يقف من شدة الخوف ،
وانه كان يظن ان الشرطي سيأخذني للسجن ، كان يذكر هذا الموقف
لسنين تترا ..

حقاً ، بلى ، وفعلاً ، ان الإنسان ، أخطر مخلوق . . . تخيل انه بسبب
رفة عين أو التفاتة بسيطة ، كان من المرجح ان أُعتَبَر سارق للنפט ،
ومباشرة لمديرية مكافحة الاجرام ، للتأكد ان كنت اللص أم لا..

وبسبب رفة عين أخرى كان من الممكن ان أدخل السجن وأُعلّق من
اليدين اليمنى والساق اليمنى ، وأضرب ليل نهار في مركز الشرطة ،
حتى أُقَرَّ على جرم لم ارتكبه ، ولم اسمع عنه ..

الشر ، قليله كثير ..

الشر ، قليله كثير ..

لا أمان ..

في أروع وأفخم مبنى ، وفي أبهى معلم من معالمها ، في قلب المدينة التي خنقتها الاحجار العالية ، وفي زمن كانت فيه الشمس تسطع بوهج على قصور شاهقة ، وأسواق تعج بالضجيج ، في مدينة البرتغال ، حيث يقف بزّهو هناك ، القصر الانيق ، الرشيق ، طويل القامة ، كأنه رمز أمان للناس من حوله .. وداخل هذا القصر عاش ملك مع عائلته ، وكان هذا الملك حكيماً سياسياً داهية ، لكنه سفاكاً للدماء .. غرز الكثير من أعمدة الخشب عند مدخل قصره ، وزينها برؤوس الكبار والملوك من أعدائه المهزومين ..

وعندما أراد أحد ابنائه اغتياله أمسك به وضرب عنقه ، ومن جبروته وعتوه انه أخذ يوماً مالا من أعمى ، فارتحل الأعمى وعاش بمكة ، فبلغه ان ذلك الأعمى يدعو عليه ويشتكى إلى الله ، فأرسل إليه أحد جنوده وأعطاه حفنة من الدنانير مطلية بالسّم ، فسار الرجل إلى مكة وأعطاه الذهب ، فقال الأعمى: يظلمني في مملكتي ويكرمني هنا ؟ ثم وضع ديناراً في فمه ليتفحصه كعادة الاضراء ، فمات في اليوم التالي . . . وهرب مؤذن من مدينته بعد ان عانى الظلم فأرسل من يأتيه برأسه ..

وقد شرب الخمر ليلة حتى أخذهُ السكر وذَهب عقله ، ثم خرج في الليل ومعه غلام ، وسار مخموراً ، حتى وصل إلى قبيلة البرزال ، وكان بينهما حروب طويلة ، ووجد جماعة يشربون الخمر أيضاً ، فسلم واستأذن منهم وجلس بينهم ، فزاد تعجبهم ، وأكل من طعامهم وشرب حتى زاد من سكره أكثر ، وبدأ يترنح ثم سقط ، لكنه تجلّد وقال: أريد ان انام .. ففرشوا له ، فتناوم .. فقال بعضهم: هذا كبش سمين جاءكم برجله ، وفرصة عظيمة ، والله لو انفقتم أموال الاندلس كلها ما قدرتم على تحصيله .. فقال أحدهم: كلا ، رجل قصدنا ، ونزل بنا مستأمناً ، لا نتحدث عنا القبائل انا قتلنا ضيفنا .. ثم انتبه وقام ، فقبلوا رأسه .. فقال لهم: أين نحن ؟ .. قالوا : بين أهلك وإخوانك .. قال: تعالوا اكتب لكم ، فكتب لكل منهم هدايا وأموال وفرس وخدم ، وأخذ معه غلمانهم ليقبضوا ذلك ، وركب ، فمشوا في خدمته ..

لكنه أساء لهم كل الاساءة ، فقد أرسل في طلبهم بعد أشهر يدعوهم لوليمة ، فأتاه ستون منهم ، فأكرمهم وأدخلهم حماماً ليستجموا ، ثم اغلقه عليهم وختمه بالطين ..

وفي يوم من الأيام جاءته هدايا ومن بينها ثوب فاخر ، أهده له أحد الملوك ، إلا ان الثوب كان مسموماً فمات من أثر ذلك السم ، وانتهى عهده وحكمه وظلمه .. ولكن قبل ذلك بثلاث عقود تقريباً وُلِدَ للعائلة الحاكمة فتى نشأ في بيئة ارسقراطية بين العلماء والادباء ،

أراد والده الملك ان يربيه تربية خاصة بأبناء الملوك ، تربية الثراء والامارة والقيادة ، فمئذ بلغ الثانية عشر من عمره ، ومن أول ما بدأت عضلاته تتكور وصوته يزداد خشونة وغممة ، عيَّنه أميراً على إحدى الولايات ، ثم بعد ذلك بفترة يسيرة جعله قائداً على كتيبة من المقاتلين وأرسله لغزو مدينة وحصارها والاستيلاء عليها ، ثم عينه قائداً للجيش كلها ، وكلفه بالكثير من المهمات الصعبة وهو دون الخامسة عشر من عمره ، وخلال هذه الحروب والغزوات التي شاركها تعرف على رجل وأصبح من الاصدقاء المقربين لديه ..

نمت صداقتهما وازداد قربهما وتآلفت قلوبهما حتى أصبح هذا الرجل من أعز أصدقاءه ، ثم عينه وزيراً له ، وكان يشاركة في السياسة والحكم ، والسفر ، والشعر والكتابة والفنون ، حتى انه في إحدى الليالي أرسل الامير الشاب إلى صديقه وأكرمه أكثر من المعتاد ، وعندما حان وقت النوم قال له: لتضعن رأسك معي على وسادة واحدة ، وفي تلك الليلة انتاب الوزير الخوف والفرع الكبير وظن ان صاحبه الامير سوف يقتله ، لذا انسل بصمت من الفراش ، ولف نفسه بقماش واختفى في دهاليز القصر ، ناوياً الهرب في صباح اليوم التالي وعبور البحر خوفاً من القتل . . . وفي الصباح افتقده الامير وبحث عنه بنفسه وأمر جميع رجال القصر بالتفتيش عنه حتى وجده ، فسأله مستغرباً: أين كنت وما الذي حملك على هذا ، قال: خشيت ان تقتلني .. فضحك الامير وقال: كيف اقتلاك ، رأيت أحداً يقتل نفسه ، ان انت عندي إلا كنفي ..

وفي يوم وبينما هو يسير مع صاحبه ، وهو يشاطره الفنون والشعر قال بيتاً من الشعر ينتظر من صاحبه ان يكمله ، تلثم صاحبه وظل يبحث بين الكلمات ، لكن صوتاً ناعماً قريباً منهما أجابه بما يناسب البيت الشعري ، فلما استدار ناحية الصوت إذا هي فتاة من أجمل ما رأى ، تغسل الملابس على ضفاف النهر .. فسأل عنها ثم دُلَّ على أهلها فخطبها لنفسه ، وكانت بعد ذلك من أعز نسائه إليه ، ولا غرابة ان تقع الفتاة بحب الامير ، ولكن العجب انه أحبها أكثر ، وكان أشد تعلقاً بها ، فأكرمها وأحبها ولم يرفض لها طلباً ، لما أعجب بها من فصاحتها وحكمتها ، وجمالها وانوثتها ، وتألقها بالشعر والمطالعة.. وكان يغدق الكثير من الأموال إرضاءً وتلبية لطلباتها ..

ومن أغرب القصص في اسرافه لإرضائها ، انها كانت تنظر يوماً من شرفة القصر إلى فتيات صغار يلعبن بالطين ، فاشتته اللعب معهن ، وتشوّقت إلى أيام طفولتها يوم كانت تلعب مثلهن ، فما كان من الامير الشاب إلا ان أحضر كميات هائلة من الرمال والتراب وماء الورد ، وأفضل العطور ، ثم أمر بإحضار العنبر والمسك والكافور ، ثم عُجن ذلك كله وخُلط جميعاً حتى صار طيناً ، ليفرشه الخدم أمام القصر ، وتلعب به زوجته وتسير عليه مع صديقاتها وخدوماتها .. ويحكى انها غضبت يوماً منه ، فقالت: ما رأيت منك خيراً قط .. فقال لها: ولا يوم الطين ؟ .. فاستحييت وسكتت ..

ومع مرور الوقت تسببت هذه الزوجة وصديقه الوزير إلى وقوع الأمير الشاب في الاسراف والتنعّم ، وانغمس بالكثير من اللهو والترّف ، مما اضطر والده الملك الحاكم إلى طرد صديقه من البلاد ونفيه بعيداً .. فبقي الأمير وحيداً حتى توفي والده مسموماً .. وأصبح بعده ملكاً للبلاد ، لكنه يختلف كثيراً عن أبيه ، مخالفاً له في الصرامة والعنف ، ميالاً إلى التسامح والتساهل ، شاب فتى ، فارس شجاع ، وأميراً ذا هيئة باهرة ، مولع بالشعر والادب والمسامرة ، وكان أول ما فعله ان استدعى صديقه وعينه كبير وزرائه ، وبقي معه يستعين به ويستشير ..

وعندما بدأت بلاده بالتساقط قرية بعد أخرى بيد اعدائه ، وجاءه يوم أدرك فيه ان دولته لن تصمد طويلاً ، قرر ان يطلب المساعدة ، فعقد الملك ووزرائه اجتماعاً واستخلصوا انه لا بد من طلب العون من جيوش صديقة ، وهكذا قامت الجيوش بمساعدته حتى انتصر على اعدائه ، وألحق بهم أشد الخسائر والهزيمة .. ولكن النصر كان مُرّاً ، ولم يكن يدري ان استدعاء هذه الجيوش سيكون بداية نهايته ..

وقبل هذا بمدة كان ولده قد حذره من طلب العون وقال له: ان قائد هذه الجيوش بعد ان يساعدنا سوف يخرب بلادنا ، ويبدد شملنا ، ويطالب بالملك . . . وهذا ما حدث بالضبط فبعد ذلك وعندما زار قائد الجيوش دولته قال لوزرائه وللقيادة الذين حضروا معه:

كنت أظن اني ملكت شيئاً ، فلما رأيت هذه البلاد صغرت في عيني مملكتي .. وطمع بالاستيلاء عليها ، فقالوا له: أرسل بعض جنودك بحجة انهم يسكنون مع الملك في بلاده حتى ينصروه ويعينوه في حال تعرضه للعدوان . . . وافق الملك الشاب وتقبل الأمر بحسن نية . . . ثم بدأ هؤلاء الحلفاء يتحولون إلى خصوم ، وقرروا السيطرة على الممالك شيئاً فشيئاً ، ثم قام هؤلاء الجنود بالانقلاب وانتزاع المدن من أمرائها واحدة تلو الأخرى ، وقتلوا أمراء هذه المدن ومن بينهم اثنان من ابناء الملك ، ولم يتبقى له إلا مدينته التي يتحصن بها ..

لقد اقترف خطأ جسيماً ، ولكن ، لا أحد يملك الفرصة لاختيار أخطائه ، وأخيراً حوصرت مدينته من قبل جيشان عظيمان ، واحد من جهة الغرب وجيش آخر من جهة الشرق ، وبينما هو على هذا الحال حصلت انتفاضة قوية في داخل مدينته .. أخبره بعض حاشيته ووزرائه ان يقضي على هذه الانتفاضة بقوة ولكنه أبى ذلك ، حيث كان محباً لمدينته وأهلها ..

لقد تحرك شيء ما عميقاً داخل احشائه ، شعور غريب وجديد عليه ، يخبره ان خصمه هذه المرة ليس بالخصم السهل . . . ثم نجح بعض الثوار في فتح ثغرة لجيوش خارج المدينة ، واقتحم من خلالها بعض الجنود ، الخونة . . . ان المصائب لا تأتي فرادى ، ولم يكن التسلل بالشيء اليسير لأعدائه ولم يكن التسلل هدية بلا ثمن ،

وثب الملك من قصره بلا درع ولا قناع ، وقفز نحو أول متسلل من الجدار وسدد إليه رمحاً فقتله في الحال .. ثم خرج الرجال والأولاد حاملين سيوفهم وعصيهم ، منتعلين وحافين الاقدام ، يقفون في مهب الجيوش ، والغبار يعلو وجوههم وانوفهم ، يتعرضون للضرب والقتل لكنهم لا يتراجعون ولا يفرون . . . الغاية العظمى والهدف الوحيد الآن هو المواجهة وإغلاق ثغرة الخونة ، وتمني النصر ..

ولا أحد يعتقد أو يصدق ان إزالة الملك هي النية الحقيقية وراء هذه الجيوش ، وحتى لو تنازل الملك وأعلن الخضوع والرضوخ .. فلا أحد يدري إلى أين سيصير مآل الأمور وحياة الابرياء ، لا أحد يثق بميول الغزاة ، ولا حدود لجشعهم . . . كان دوي المعركة فوق الرؤوس ، وصليل السيوف ودق الفؤوس ، يُبكي النساء والأطفال ، والاغنام والحمير ، والحجر والشجر . . . اشتبك المهاجمون والمواطنون في معركة ضارية قُتل فيها الكثير من كلا الطرفين ، قاتل الملك وقاتل معه شعبه ، تقدم الملك الصفوف واستبسل وضحى ، لقد كان قوياً كالدب وشرساً كالفهد ، ويهجم كخنزير ، ويضرب كنمر ، ومخيف كالذئب ، ويحزن كلبوة ، ويتأمل كالصقر ، كذب يُخفي مخالفه عن جرائه ويقتل بها أعدائه ..

لكن الجيوش كثيرة والخيانة كبيرة ،

وبعد قتال عنيف تم الاستيلاء على المدينة ، فنهبوا قصورها
وخرّبوا بناءها ، وقتلوا أربعة من ابنائه ، وذبحوا العديد من فرسانه
خلال هذه المعركة . . . وفي أثناء ذلك وقع الخطب العظيم ، ودوى
صوت صارخ في السوق ، وتبعه صوت ثانٍ أشد عنفاً قريباً من
القصر ، وثالث في أزقة المدينة ، صرخات تمزج الغضب بالحزن
والضعف واليأس .. عندها أيقن الجميع بانتهاء الحرب وانقضت معها
أيام الحرية والهناء ، لقد وقعت دولته في المصيدة ولا مناص منها ..

كأنها افعى وذيلها في يد عجوز يحمل حجراً ، كأنها ثعلب
حاصرته الكلاب ، أو كخروف يُجرُّ من ساقيه ، أو فأر أُغلقت عليه
خزانة الملابس ، انه الخوف والرعب واليأس ، وفقدان الحلول
والحيل . . . وفي ليلة من ليالي الخريف أُسر الملك الجريح هو وعائلته
وأُخذت معه زوجته وبناته ومن بقي من أولاده إلى منفى بعيد ، إلى
مدينة صغيرة تدعى "أغمات" ، لتتغير حياته إلى الأبد ، حيث أمر قائد
الجيش الجديد بنفيهم هناك ، ليقضي آخر ما بقي من حياته في السجون
بظروف مزرية ومعاملة سيئة ..

كانت لحظة كئيبة على شعبه الطيب الذي أحبهم وأحبه ،
وخرج الناس لتوديعهم محتشدين على ضفتي النهر ، وقد ملأ الدمع
أعينهم ..

عانى خلال الأسر من المرض والكرب والضيق والعسر ،
ولم تزل كبده تتوقّد بالزفرات ، وجلده يتردّد بين النكبات والعثرات ،
ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات ، عندما رأى ابناه يرتدون ثياباً
ممزقة ..

هل كان ما مضى كله حلم ؟ هل ستوقظه زوجته ؟ أم يستيقظ
على ضحكات بناته ؟ الاجابة بسيطة وواضحة للأسف ولا تحتمل
خياراً آخر ، لقد عرف ان حياته ونهايته ستكون بين هذه الجدران
الاربعة ..

وكان يُسمح لبناته ان يأتين لزيارته في الاعياد ، وكن يعملن
في الاسواق ويغزلن للناس بالأجرة ، فرآهن في أطمار رثة ، يمشين
بخطى مرتجفة متشبّثات ببعضهن ، في ثيابهن الممزقة ، ويغزلن
للناس ويستعنّ بذلك على حاجاتهن الخاصة ، وقد تلتخن بالطين ،
وكنّ فيما مضى إذا اشتھين وطء الأرض فرش لهنّ المسك والكافور
حتى لا يصيب شيء من الأرض أجسادهن الغالية ، ثم افتقرت زوجته
المدللة والتي كانت أحب نسائه إليه واضطرت للعمل لتكتفي وزوجها
حاجتهما من الطعام والشراب ..

فتصدع قلبه لما رأى حال زوجته وبناته وقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فسائك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الاطمار جائعة

يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة

أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والاقدام حافية

كانها لم تطأ مسكاً وكافورا ..

ثم زاد به الأمر حتى افتقر هو وأولاده أشد الفقر ، وكابد معهم
الأسى والجزع والأسر ، وتعلموا الصنائع والعمل المجهد ، وذاق المرّ
بعد المرّ ، فلا معين له ولا ضمان ، ولا أمان من تقلبات الزمان ..

هذا الرجل هو "أبو القاسم المعتمد على الله" ، أما زوجته والتي كانت أحب الناس إليه ، واشتق اسمه من حروف اسمها .. حيث يقال ان اسمه الحقيقي هو "المؤيد" واستبدله "بالمعتمد" تيمناً بزوجته "اعتماد الرميكية" .. لم تستطع هذه الزوجة تحمل الآلام والحسرات ، والعمل والذل والفقر والحرمان ..

فلم تبقى طويلاً حتى توفيت ودفنت قريباً من سجنه .. ثم فارق الحياة ولحق بها مكبلاً بأغلاله ، ودفن بجانب زوجته ..

لا تفتح على نفسك باباً ،
يصعب عليك اغلاقه ..

تصعب عليك اغلاقه ..
لا تفتح على نفسك باباً ،

الروح والقضبان ..

في صغري اشتريت حذاء تزلج ، ظريف ، فرحت به . . .
كنت فتى أضاع ثلثين عمره ونصف الثلث الباقي شارد البال بين أحلام
اليقظة ، لأن الأحلام هي كل ما أملك ، ثم انها مجانية ، بواسطة هذه
الأحلام استطيع ان اقلب الطريق إلى متاهة في لبّ الأرض حيث
الكنوز والجنان والاختار .. وبالخيال أبذل مكان عملي إلى ساحة قتال
في جزيرة خضراء نائية .. هذه الأحلام تجعلني امشي عدة كيلومترات
بلا وعي ، سارحاً مع المخلوقات الجميلة القاتلة .. لماذا افعل هذا ؟
هرباً من التعب ، الألم ، القipzig ، الصقيع ، الجوع ..

لا شيء انتظر حدوثه اليوم أو غداً ، أو في المستقبل البعيد ..
حين تولد كفرد من ابناء الطبقة الكادحة ، تطحنك ظروف الحياة
وترفسك رفساً ، لن تفكر لماذا تفعل ما تفعله كل يوم ، وماذا يخبئ لك
الغد ، أما التفكير بالمستقبل والنجاح والطموح ، هو الحلم الذي لا
تنتظره .. ما يمنعك هو انك بلا روح حقيقية تشبه باقي البشر ، لأن
روحك سُحقت تحت العمل اليومي المُنهك والعسير ..

لقد ضاع العمر كما تضيع صنائع المعروف مع اهل الازواج ،
كنت فتى مزدحم الافكار ، مشوش البال .. تجذبني مغامرات الهواة
والعبث ، كان عمري اثنتا عشرة عاماً حينها ، اعمل في السوق مع
اخوتي الكبار ..

صبي اسمر قليلاً .. بوجه حنطي اللون ، وأعتقد ان مفردة
ترابي أقرب للوصف ، وشعر بني قاتم أشعث ، ثائر الخصلات ، كل
خصلة تميل في الاتجاه الذي ترتاح إليه ..

اشتريت يوماً حذاء قديم اسود ذو أربع عجلات ، مستخدم ،
لكنه نظيف نوعاً ما ، يشبه سيارة الابطال في أفلام الأكشن القديمة ،
يبدو أكبر من مقاس قدمي بثلاثة ارقام . . . تدفعه بواسطة انفه ، وهي
اسطوانة من البلاستيك في مقدمته ، ترفع مؤخرة القدم وتلتصق انفه
بالأرض وتدفعه للخلف فيتحرك ، كما يفعل المجذاف مع القارب ،
تدفعه ويتزلق للأمام . . . عيبه الوحيد انه صامت لا يسمع .. ولا
يتكلم .. لكني كنت أحدثه..

اشتريته صباحاً .. كفتى صغير ، احببته حد الهيام ، وكنت
اراقبه كل نصف ساعة ، اخرجه من الكيس واطمأن عليه وأعيده ..
كزوجة تخبي مولودها الجديد وهي عائدة من المستشفى ، وتسترق إليه
النظر بجنى وحبور .. انتظرت المساء ، انتظرت بصبر ليحل الظلام
كي أعود للبيت وأجربه قبالة منزلنا الذي لا نملكه . . . تناولت طعامي
على عجل ، اخرجته من الكيس ، وانتعلته وخرجت إلى الشارع ليلاً ،
مهرولاً ، ممتلئ جرأة وحماس .. الليل في المدينة ليس بذاك الجمال ،
ولا يشبه ليالي الريف الصيفية ، بل عكسها تماماً ، ليل يسهل نعته ،
صاخب ، مضطرب ، لا سكون فيه ،

سماؤه تحوي بعض النجوم الخجلة ، لا ظلام دامس ، لا أسرار ولا أصوات لعشاق ، لا صرصور يغني ، لا ضفدع يتملق انثاه . . . لا جرو يبحث عن امه ، ليل كأنه عباءة سوداء ، انه من الظلم والتعسف لو اسميناه ليل ظلامه حالك . . . ارتديته ليلة واحدة وتعبت لا تعلم ركوبه .. لم أكف عن المحاولة البائسة لتعلم ركوب هذا الحذاء السحري ..

ان الطريقة الصحيحة لركوب حذاء التزلج هي ، أولاً.. ثني الركب بزاوية يسيرة . . . ثانياً .. تحني رأسك وجسدك للأمام قليلاً . . . ثالثاً .. تدفع الساق اليمين للأمام ونحو اليمين ، خارج مسار الجسم قليلاً ، ثم تدفع بالقدم اليسار للأمام ونحو اليسار ، مع انحراف قليل خارج مسار الجسم ، كأنك تزيح الثلج وأوراق شجر خارج نطاق مسارك ..

خرجت إلى الشارع وكانت الفتيات الصغيرات يلعبن قريباً من باب الدار ، يضحكن ، يقفزن بمرح ، يغنين ..

هلا يا رمانة ، هلا يُمّة .. من هي الزعلانة ، هلا يُمّة ..

أمونة الزعلانة ، هلا يُمّة .. منو يراضيه ، أبوها يراضيه ..

صايغ تراجيه ، هلا يُمّة ، هلا يُمّة ..

اندفعت بجسدي ، الساق اليسرى ونحو اليسار قليلاً ، ثم تبعتها باليمنى ونحو اليمين خارج مسار الجسم .. لكن الفعل كان أصعب من الكلام بكثير ، وأصعب حتى من تخيل حالتك الآن ، وانت تحاول فهم طريقة ركوبه من خلال كلماتي وطريقة وصفي لها .. لم تنفع المكابح، كنت أسقط بوجهي وعلى الاسفلت مباشرة ، ولا حائل بيننا ، انهض مجدداً وانظر للبنات الصغيرات يقفن قريباً مني ، ادفع يميناً ، وأسمع صوت البنات ، هلا يا رمانة .. ثم القدم اليسار .. من هي الزعلانة .. تدرجت على جانب الشارع .. أمونة زعلانة .. والتراب ملأ عيني وفمي .. من هو يراضيها .. لم ينتبه أحد أو يشفق على حالي .. خدشت مرفقي .. هلا يا رمانة .. جرحت راحة يدي .. من هي الزعلانة .. تمزق بنطالي وسالت قطرات الدماء من ركبتني .. ولا زلت اسمع، ابوها يراضيها .. صايغ تراجعها . . . هلا يُمّة ، هلا يُمّة . . . حاولت كثيراً.. لكن الأمر أصعب مما خُيل لي ..

كنت أظن عندما اشتريته ظهراً اني سوف اتمايل وتحملني الريح كما تفعل فتيات التزلج عندما يرقص الثنائي على الجليد . . . لكن الأمر مختلف .. وعندما كانت تقابلني سيارة لم أكن أميل عنها بلطف ، وإنما احاول التوقف بصعوبة ثم امشي نحو الرصيف ، ارفع قدماً للأعلى واثبت أخرى كمن غاصت قدماه في بركة من المربي الدبقة ، أو أسقط نفسي على الأرض متعمداً وازحف على ركبتني كطفل يحبو .. حاولت . . . وحاولت . . . ان الطاقة الخارقة لدى الأطفال تجعلني اشعر بالكآبة لحالي التي أمسيت عليها اليوم ..

أيها الحذاء ، أينما كنت الآن ، وكيفما هو حالك ، اعتذر لك
عن الرائحة ، فهذا الجورب يدفئني منذ الصباح .. اعتذر أيضاً عن
خشونة باطن قدمي ، ومخالبتي الفارعة الممتدة .. انا أشعر بك حقاً ،
وأشعر بالاختلاف بين الانامل الرهيفة لمن انتعلك قبلي ، وبين هذه
الحوافر التي تثقل كاهلك الآن .. كنت تحمل إيميليا الفتاة من النرويج
بغرور ، أما الآن عليك تحمّل فتى الادغال مُكرهاً ، كما فعل المصباح
السحري مع الساحر جعفر . . . آااااه أيها الحذاء المسكين ، أتمنى
لو ان عندي قدماً أقل وزناً وأقصر طولاً ، غير هذه القدم المشوهة ،
لأضعها عليك ..

فجأة ، أحسست بشيء يخمش اصبعي من الداخل ، لم أبالي به
وتسليت كثيراً بين مرح وفشل ، حد الاشباع . . . بعد ان تعبت من
اللعب عدت للبيت ، اخرجت قدمي فوجدت ان اصبعي مجروح ومنتفخ
قليلاً ، وبعض قطرات الدم ثخينة القوام على حافة اصبعي الزعيم ..

لا بد ان هناك عيب في صناعة هذا الحذاء تسبب بجرح قدمي
بهذا الشكل ، شيء لم أعرف كنهه .. رفعت الحذاء وضربت مؤخرته
على الأرض بقوة ، ثم رفعته وهزرتة وطرقته على الأرض مجدداً ..
ثم تبين ان داخله عقرب .. عندما هزرتة سقط منه عقرب .. كان يختبئاً
في الحذاء ، كان خائفاً دافئاً فاقتحمت صومعته .. كان العقرب اسود ،
وكبير جداً ، وأعمى ، يثير الرعب ، يشبه قطعة فحم لامعة سقطت
على الأرض ،

وكان يرفع ابرته وكلاييه بحقد ، كأنه رجل كاوبوي يحذّرني قائلاً: إذا تحركت سأطلق النار . . . ويهين لك انه مستعد للهجوم رغم انه في الحقيقة شبه ميت ، لأنني كنت اضغط عليه بقدمي وهو يلسعني.. مشى نحوي ببطء ، عدة خطوات ، يترنح ، رغم ما به من المصاب .. إلا انه وبكل سهولة كان ثائر ومغتاظ ، ومنفعل ، كأنه وحش من أساطير الفايكنج . . . ما أصابني بالدهشة هو طريقة مشيته، كيف يستطيع المشي على أربع قوائم بينما ذيله شاخص ثابت كأنه لا يتحرك .. حين رأيته كاد قلبي ان يثب من فمي لو جرؤت وصرخت، لكن فمي هو الآخر تصلب من الرعب ..

انهلت عليه ضرباً حتى أصبح اشلاء .. واخيراً .. قتلته.. السفاح المسكين .. كان في جوف حذاء التزلج منذ اشتريته ، ربما قبل ذلك بأيام أو اسبوع أو أشهر .. لأن العقرب يستطيع البقاء لما يقارب ثلاث سنوات دون ان يدخل في جوفه قطرة ماء أو حبة غذاء . . . دافع عن نفسه حتى الموت .. كان يريدني ان اسحب قدمي واتركه لحاله وسباته ، لكنني لم أشعر به .. لبث هناك إلى ان ارتديته ثم لدغني ومات على مرحلتين ، الأولى عندما دسسته برجلي ، والثانية عندما ضربته حتى تقطع .. رغم تأكدي من موته إلا اني كنت ارتعش منه مرعوباً ، وأشعر انه في أي لحظة سوف يباغتني ، ويقفز تجاهي وينقض ليشوه وجهي ، وبلا مبالغة ، هذا ما كنت أشعر به حقاً..

لأن لمسة حنونة واحدة من هذا الاخ المهيّب ، بخرطومه الصلب الذي يشبه عنق الافعى ، تصيب الإنسان بنقوب وألم وحروق، ومن الممكن ان تنهي حياته بسهولة ..

في اليوم التالي بقيت في البيت ، أتصنّع الألم .. انها استراحة من العمل .. وحيث كنت اعمل كان عندي صديق اسمه "حسين" ولد هادئ طويل ونحيل ، شعره اسود .. عيبه الوحيد انه صديق عمل ، وصديق العمل يبقى صديق عمل مهما كان عمره أو عمر العلاقة بيننا... طلب الحذاء يلهو به يومين أو ثلاثة ثم يعيده ، أراد تجربته والتزلج به .. جرب اللعب به ، حاول ، أراد ، حاول عدة مرات .. لكنه لم يفلح .. وفي النهاية ترحلق ، وسقط ، وكسر معصمه . . . لا أدري من المنحوس بيننا ، نحن الثلاثة ! ..

الخوف والحذر ، هما العنصر الوحيد الذي ظل حياً يفرض شبحه على حياتي ، وراحتي ، وسكينتي ، لأنه ارتبط بحادث ونكبة مفزعة . . . يخيفني على أمل ان أبقى حذراً لئلا يتكرر نفس الحادث .. بعدها ، أصبحت اخاف في كل مرة انتعل حذاءً ، خوفاً من وجود عقرب أو أي حشرة . . . إلى اليوم وبعد عمر سابغ لم اصادف ان خرجت ولو نملة من حذائي حين اتفحصه ، لكنه الخوف نفسه ، وبنفس مقداره ، لم ينقص يوماً ..

المهم .. اني .. وللآن .. وبعد ثلاثين عاماً ، لا انتعل حذائي
إلا بعد ان ارفعه ، واطرق كعبه على الأرض ، مرتين أو ثلاث ، ثم
ارفعه مرة أخرى واهزه جيداً ، لعلني اجعل العقرب المختبئ ، يفلت ،
يتزحلق ، يسقط خارج الحذاء ، وبعد ذلك ارتديه . . . وانا متأكد ان
هذا الفعل سيتكرر لآخر لحظة من حياتي ..

الآن ، وقبل ان اكتب هذا المقال بقليل ، تأكدت من حذائي
وقمت بما اقوم به عدة مرات كل يوم ، اطرقه ، اهزه ، ارفعه ،
اتفحصه ، ثم انتعله ..

يكسر الإنسان الفعل ذاته لسنين طوال لموقف حصل معه مرة
واحدة ، وكما يقول المثل "من تلدغه الحية بيده يخاف من جر الحبل"
وهذا ما يحدث حرفياً عندما يتألم شخص من كلمة ، أو موقف ،
أو غدر ، أو خيانة .. فإنه يحذر ويخاف لآخر العمر ..

ان أذى الناس فأر شقي ، يخنس داخل الشخص الطيب ليعزله
عن المجتمع ، ويزرع به بذرة الحذر والحيطه من تصرفات البشر ،
أو الاقتراب منهم .. انه حذر من تكرار لدغة من وثق بهم يوماً ،
حذر من تكرار ألم الخبث والخيانة التي ترافقه ذكراها طول العمر ..

تأتيك ضربة تغير كل ما فات .. ضربة لحماسك ، وضربة
لثقتك ، وضربة أخيرة تطفئ روحك ..

لا تؤذي إنسان .. فكبرياؤه يمنعه ان يُظهر ويُبين لك انه
تعرض للأذى .. لكنه في الحقيقة سوف يعاني ، وحيداً ، منكشأً ،
طول الدهر ..

في يوم من الأيام قامت حديقة حيوان في رومانيا بإطلاق
سراح انثى دب في الغابة ، وبعد ثمان سنوات وجدوها تقوم بالدوران
حول نفسها في حلقة صغيرة ، دوران لا نهائي .. يقول عالم الاحياء:
انها حرة الآن ، لكن عقلها لا يزال أسير القفص الذي عاشت فيه لمدة
عشرون عاماً ، ولم تفهم حتى الآن ، ان القضبان لم تعد موجودة ..

الماضي درس ، وليس سجن مؤبد ..

الماضي درس ، وليس سجن مؤبد ..

اسمي هو سيف ..

اسمي هو سيف ، اختاره أبي لأن الناس يحبون هذا الاسم ، ويقولون ان معناه السلاح الابيض المعروف .. عندما خرجت اليوم صباحاً رفعت بعض اكياس الشيبس والفسق ، وبعض أوراق الدفاتر الممزقة من أمام منزل جاري ، لأنني أعلم يقيناً انه يجلس الآن يراقب الشارع على الشاشة من خلال الكاميرات . . . انا ذاهب إلى المتحف العراقي لأنني سمعت ان هذا المكان جيد ، ويدل على الرقي ، والناس يمدحونه ، رغم اني لم انجذب يوماً لهذه القطع المصاغة من الطين المقسى ، وأفنعة التملق ، ولم أصدق أبداً انهم كانوا يستطيعون النقش على الدراهم والدنانير بهذه الدقة .. لكنني اخاف ان يتحدث أصدقائي عن المتحف وأخبرهم اني لم أذهب إليه أو اسمع عنه ..

صعدت سيارة نقل عام صغيرة قديمة ، تخض وتقلقل على طول الطريق ، تغربل محتويات الجسم وتغير أماكنها .. قلت السلام عليكم ، فقال السائق " السلام " .. هكذا ، كلمة واحدة فقط ، لكنني أظن انه رد باستصغار .. وعندما رفعت عيني لأنظر للطريق ، رأيت السائق يحدّق فيّ من خلال المرآة الصغيرة أمامه ، وكانت إحدى عينيه أكبر من الأخرى ، خفضت رأسي وبحثت في محفظتي الرثة عن نقود طازجة ، خوفاً من ازعاج السائق ان رأى نقوداً هرئة ..

جلست في المقعد بطريقة غير مريحة ، ماذا أفعل فهذه السيارة ملك للجميع . . . على طول الطريق وأنا ألوي رأسي تجاه الشباك وأنفي خارج حدود السيارة ، أشاهد العمران ، والعمال ، والقطط ، خشية ان يظن الناس الذين يركبون معي داخل السيارة اني اراقبهم ، فيغضبون . . . انظر إلى معالم الطريق ، سوق الدورة ، مصرف الرافدين ، ثم جامع مكة ، سكة القطار تحت الجسر ، منطقة المهديّة الثانية ، والتي لقبت بعد الحرب " باب الحارة " تيمناً بالسلسلة السوري ، ثم مشاتل السيديّة لبيع الورود والشجيرات ، وهلم جرأ ..

هذا ما كنت اشاهده لأنني كنت أجلس من جهة السائق ، ويجلس بجانبني شاب أعتق ساقه وحررها للأمام ، بينما كنت أصكّ ركبتيّ وأقفل ساقيّ بوضع قدم فوق الآخر ، وأشبك اصابع يدي . . . لمحت رجل آخر يجلس قبالي ، كث الشارب ، قاسي الملامح ، يضع خاتم كبير في بنصره ، وساعة سوداء ، أسنانه بيضاء لامعة ، يبدو انه لا يدخن ، وهناك ، على رقبته أربع شعرات لم يلاحظها حين حلق ذقنه صباحاً .. استطعت مراقبة هذه الاشياء بسرعة ، قبل ان يرفع رأسه عن الهاتف ويلاحظ اني انظر إليه .. وإلا .. لا أعلم ما سيحدث ، الناس هذه الأيام كالأطفال ، لا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم ، وربما كانت تجلس بجانبه فتاة ، لست متأكداً ، لكنني لمحت حقيبة يد سوداء ، لذا أشحت نظري وعدت أكلم الطريق ..

اثناء الطريق ، وبالتحديد عند صومعة خزن الحبوب "سايلو الدورة" مقابل منطقة السيديّة ، سعد رجلان ، أحدهما يرتدي سترة عريضة وبنطال تتدلى طياته اسفل قدمه ، أما صاحبه كان يبدو قوياً مقتول العضلات ، ويرتدي كنزة ضيقة وبنطال يعصر ساقه ، لا أدري كيف تقابلا ..

لقد اجتاز السائق المتحف ، وأصبح محاذياً لمستشفى ابن البيطار ، انه خطأي ، لأنني استحييت ان اسأل من يجلس بجانبني ، ناديت على السائق بصوت مبوح تخالطه حروف قريبة إلى الروسية: سأنزل هنا إذا امكن ، رحم الله والديك ، شح جه ، ممنوه ح بي ، عح عهج تنحنحت وأنا ابادل حصي الشارع نظرات الشفقة والمواساة .. اغلقت الباب على مهل حتى لا يغضب السائق ، وما ان تحركت السيارة حتى فُتح الباب ، أردت ان اجري وألحق بها لأوصد الباب جيداً ، لكن أحد الركاب اغلقه قبل ان أصل ، ثم أسرع السيارة بتغافل اعتذرت من السائق في سرّي واحمررت خجلاً ، لأن الناس في الشارع وأمام المحلات ، جميعهم ، كانوا ينظرون لي ، وربما قالوا: لماذا لم يغلق الباب ، انه احمق لا أدري من أين يأتي الناس بهذه الاطنان من القسوة ..

أعلم ان الكثير من القراء سيقول في خلده انها حكاية مبالغ بها، وانا معهم في بعض هذا، وربما هم على حق، لكنها حقيقة واقعة ملموسة يعاني منها الكثير من الناس، وربما انت واحد منهم ..

لنتحدث انا وانت على انفراد فيما بيننا ، هل انت مشغول بالناس وما يتكلمون عنك ؟ ومهتم أشد الاهتمام لرأيهم فيما تتلفظ به ، وماذا يقولون عنك لو تحدثت بالهاتف علانية ، وكيف تعامل عائلتك وأولادك ، ومهتم لوصفهم كيفية عبورك الشارع ، وكيف تجلس ، وكيف تقف ..

هل تعلم لماذا كل هذا القلق والتوتر .. ولماذا انت بدورك تراقب من دخل ، طوله وعرض اكتافه ، تراقب طريقة مشيته ، تراقب حركاته وطريقة كلامه ، تتأمل لون عينيه ، وشكل انفه ، ياقة قميصه ، وحتى الخاتم في اصبعه ، وتلاحظ الشعرة المنفصلة عن حاجبه ، وترصد الشيب في شاربته ، وتسريحة شعره ، تتفقدته كما يفعل الطبيب مع الطفل المولود حديثاً ..

لماذا تفكر ماذا ستقول غداً لترضي شريكاً أو صديقاً ، وكيف تجيب إذا سُئلت بعد اسبوع أو شهر ، تصنع في مخيلتك سيناريو لمناظرة ، وتتمرّن لتدافع عن نفسك لو اغضبك أحدهم مستقبلاً . . . لماذا انت تخطط لحادثة لم ولن تقع ، وترسم في رأسك حرباً مع شريك العمل في حال تغير عليك ، وتصوغ في خيالك ان هذا شخص خطر ، وهذا يغضب ، وآخر ينزعج من ابسط الكلام ، ووووو الخ ..

يا صديقي ، هل سألت نفسك يوماً لماذا انت قلق وحذر
بخصوص الآراء التي يكوّنها الناس عنك ، وفيك حزن على ذكريات
الماضي ، وخائف من ورطة الغد ..

شاهدت يوماً تجربة أقيمت على جمع من الأطفال الصغار ،
تجربة تغمرك حزناً ، ثم تستنبط منها شيئاً مهماً كان قد سبب لك
الارق لزمان طويل ، ثم ، وبعد ان تفهم ، سوف تسكب مشاكلك خارج
عقلك .. لأنك عرفت مصدرها وعرفت كيف تضع حداً لها . . .
هذه التجربة تكشف عن الفرق بين مجموعة من الأطفال ، منهم من
تربى في ظروف عائلية آمنة ، وأطفال آخرين يتم رعايتهم في
مؤسسات حكومية بعيداً عن الالهل ، تم احضار سبعة أطفال تتراوح
أعمارهم من سنة ونصف إلى سنتين ، ليتم اختبار كل واحد منهم على
حدة .. وقام المشرفين على هذه التجربة بإحضار كرسي صغير
مخصص للأطفال ووضعوا أمامه طاولة ثم قاموا بإحضار مكعبات
ملونة لمراقبة التصرفات وطريقة اللعب لكل طفل ، ومعرفة ردود
أفعالهم . . . تم اعداد كل شيء ..

اجلسوا الطفل الأول ، طفل تربى في ظروف طيبة ،
مستكشف نشط ، متحمس للامساك بأي غرض يراه ، كان يمرح
بحرية تامة ، طوله قريب من ثلاثة اشبار ، وجهه مستدير كقرص
الخلوى ، وخدود وردية ، مكتنزة باللحم ، يبدو أكثر تعقلاً من سنه ،
كأنه مدرس مادة الرياضيات ، وسيماً مهيباً ،

شعره بني يغطي مقدمة رأسه ، الابتسامة جزء لا يتجزأ من محتويات وجهه ، وقد بدا غاية في الاناقة والوسامة ، طفل مدلل لم يتلوث بالأمراض النفسية للأهل ومشاكلهم الساذجة ،

وضعوا قطع المكعبات أمامه ، وضعوها على مقربة منه وبمستوى ذراعيه ، وبسرعة بدت السعادة على وجهه .. الطفل الذي تربى في ظروف عائلية مناسبة تتحرك يداه الصغيرتان في كل اتجاه ، بفرح ، وبلا نسق ، فرج عن اصابع كلتا يديه واطلقها لتملأ المكان .. يحرك المكعبات ثم يأخذها ويضعها في فمه ، ويطرقها على الخشب ويحاول ان يرتبها ، مستغرق في اللعب ، غير آبه لما حوله ، وبالكاد يعير أي انتباه للموجودين . . . يعبث برعونة حلوة في الفضاء الساحر من حوله ، فضاء لم تكن نراه نحن ، مطمئن وواثق ان لا أحد من الاشخاص المحيطين به سوف يسبب له الاذى ، أو يمنعه من اللعب ..

الطفل الثاني ، فتاة صغيرة تذهب بانتظام إلى رياض الأطفال، ترتدي الكنزة البيضاء التخينة ذات اكمام لونها اخضر فاتح يشبه لون الملفوف ، كأنها فتاة من القرن الثامن عشر ، وجهها يشبه النور في الليالي المقمرة ، كانت تشعر بثقة كبيرة ، ثقة غطت المكان حولها ، عندما جلست لم يختلف سلوكها عن سلوك الطفل السابق ، تمسك الالعب بيديها ، وسرعان ما بدأت ترتبها فوق بعضها ، وتلنقط ما يسقط منها ، اخذت تلعب ولا تعطي اهتماماً للناس حولها ، وكأنهم ببساطة غير موجودين ..

احضروا الطفل الثالث ، وكانت طفلة تربت في مؤسسات حكومية ، تم ابعادها لظروف خاصة عن أهلها ، تعاني الاهمال ونقص الوزن ، يظهر على وجهها ملامح الحرمان والافتقار للحب والحنان ، تستخدم اليد اليمنى ، بينما تتصلب اليد الأخرى ، وبحذر ، تحركت بتثاقل وهي توجه يدها نحو قطعة مكعبات كانت هي الاقرب إليها ، وتلتقط القطعة ، لكنها تعير اهتماماً قليلاً باللعب ، ثم تلتفت يميناً وشمالاً تراقب الموجودين في الغرفة ، ربما تعتبرهم مصدر خطر عليها ، كأنها اعتادت ان يؤخذ منها كل ما تمسكه ، بتعسف وانانية ، تنتظر ان يمنعها ، أو يصرخ بها أحدهم ، تنظر نظرة والهة . . . ومع هذا الحزن الذي بدا جميلاً على وجهها ، إلا ان هناك لمعة كسوء القمر تغمر عينيها ، تلعب قليلاً ثم تسرح ، تتأمل حولها ، وتفكيرها منصب على الاشخاص المحيطين بها ، انها تلتفت كثيراً ، وتراقب بتحرز جميع الافراد المتواجدين في الغرفة ، كانت ترتجف حذرة وبلا حراك ، كورقة صفراء معلقة بغصن ، تعلم شيئاً سيئاً عن الخريف ..

احضروا الطفل الرابع ، مما بدا انهم مصممون على انهاء التجربة ، ثلة من الاطباء أو علماء نفسيين يعملون في صبر من أجل إثبات وهم ، علماء حادي المزاج لا يهتمهم سوى العلم مهما كانت نتائجه الوبيلة . . . اعتقد ، انه ومهما ظن الطبيب انه طيب القلب ، لكن فضول العلم يدفعه احياناً ، أو ربما في غير هذا التجربة ، للقيام بالشر والعمل الاناني ..

رقم اربعة ، كانت طفلة تم سحبها من حضانة أهلها السيئة إلى مكان أسوء ، كانت تشبه الطفل الأول من حيث لون الشعر وبياض البشرة ، ولكن تظهر عليها ملامح البؤس والعدم ، وبلا صبغة زهرية على وجنتيها ، تغلق نصف عينيها ببلادة ، مركزة على الاطباء الجالسين في الغرفة ، هادئة صامتة ، معترزة بالقليل الذي تملكه .. الحزن لم يمنعها من فرض شخصيتها بينما وجب عليها ارتداء حلة الحذر ، تعبر عن رفضها اللعب عن طريق رفع يديها وابعادها عن المكعبات ، بإيماءة تدل على تجنب اللعب . . . بعد فترة ليست بقليلة ، واخيراً ، تلتقط مكعباً وتنظر بقلق حولها ، ونظراتها المضطربة تدل على الاخفاق ، كانت خائفة ، لديها ماضٍ قصير من الزجر والمنع ، تبعد يديها عن المكعبات وكأنها تظن انه ليس من حقها اللعب ، تم تسجيل سلوكها على انه سلبي ، لأنها لا تلعب ..

ان الألم الذي في عينيها يكفي ليوظ ميتاً غرقاً بدموعه ، انها تجربة مؤلمة بكل المقاييس . . . بل انني ، صدق أو لا تصدق ، شعرت بالحزن المصاحب للصمت والحسرة لأسابيع عندما شاهدت هذه التجربة للمرة الأولى ، شعور غامض في اعماقي ، أطلقت سبّة في السر ، ثم تابعت مشاهدة التجربة والكثير من السباب أيضاً ، وبدأت أحداثها تجرفني ، ولّكم حسدت الطفل الأول ..

الطفلة رقم خمسة ، طفلة أخذت من أهلها بعمر صغير ووضعت في مؤسسة حكومية ، بعد فشل تبنيها مراراً ، تحمل في تعابير وجهها الملل والتعاسة ، تراقب خطوات الطبيب النفسي وهي تمص اصبعها خائفة منزعة ، كأنها تنتظر صفة اعتادت عليها ، ناولها الدكتور قطعة المكعبات في رقة فأبعدت يدها ، وبعد عدة محاولات امسكت قطعة المكعبات التي وضعها بين اناملها ، مستسلمة لم تقاوم ولم ترفض ، ولكنها لم تبدي أي اهتمام بها ، قلبت المكعبات على سطح الطاولة ، ثم عادت لبرودها الموروث ، عيناها لا تغفل عن الطبيب الذي يحاول مساعدتها ، تلاحقه بنظراتها ، كانوا صغار السن لذا لم يفقهوا ان من حولهم استخدمهم لمصلحة ..

طفل آخر صغير بعمر سنة وبضعة أشهر ، يلبس قميص رصاصي داكن ، نحيل ، شعره قصير ، يحكم قبضته واصابعه خجلاً ويفرد السبابة والابهام ، يجلس بلا حراك أمام الألعاب .. كأني كنت معهم هناك داخل الحجرة ، غرقنا في هدوء عميق نحدق بالفتى . . . لم يمد يده ، كان عليه ان يلتقطها ، أو يجب عليهم وضعها بين اصابعه أيضاً ، كانت عيناها تتموج في صمت ، وتتجول في هواء الحجرة الكثيفة ، ان هذا الطفل ملامحه تدل على قوة وحنق ، لكن ذكريات القسوة والشتم والحرمان لها كلمتها .. بعد مدة من الزمن سمح لنفسه ان يُرخي يده الناعمة لتترنح بخجل ورغبة نحو اللعبة ، يتحرك نحو المكعبات ببطء وخوف .. لكنه تذكر ،

ثم أصبح شيئاً فشيئاً غير مبالي باللعبة ولا بالأشخاص من حوله ، خنس مرعوباً ثم انزوى على نفسه في استسلام ، ينكمش ، يتفوق على نفسه ، ويحاول ان يهدى من روعه عن طريق مص الالبهام وفرك عينه بيده الأخرى ، انه ألم موثق نجم عن مدة من الوقت العصيب ، مدة اطوالها لا تشبه مقاييس الوقت التي نعرفها ، مدة من الوقت تشبه حال طفل طوق حذاءه بيديه رجاء ان لا يغفو ، منتظراً صباح العيد ..

فاحت في المكان رائحة لا تطاق ، رائحة الألم الموجود في ذهن هذا الكائن البريء ، لكن التجربة استمرت على مضض . . . رغم اني كنت أشاهد عبر الشاشة ، إلا اني شعرت وبيقين مُسَهَّب ان بإمكانني لمس بشرة الطفل ، وتمنيت ان ابرم له خده الرقيق ، وأمسد له شعره ، واسمع دقات قلبه الخائرة العملاقة ..

الطفلة رقم سبعة ، والأخيرة ، طفلة تعاني من نقص الوزن ، نحيلة ، بشرتها شاحبة ورهيفة ، جبهتها متقدمة للأمام ، يرتسم على وجهها الكثير من الألم ، تُبدي جموداً واضحاً ، منعزلة ، غير مهتمة تماماً بما حولها ، وغير مهتمة بالمكعبات أيضاً ، أو غير ذلك . . . تبدو مذعورة كأنها تعرضت للضرب قبل لحظات ، تنظر لكل مكان وتلاحظ كل الاشياء من حولها ، ما عدا المكعبات التي أمامها ، وكأنها لا تراها ، لا تتطلع بنظرها ابعد من مستوى حالها وأحلامها ، يرتجف جسدها ،

انزعاج ، تشوش ، قلق متزايد ، ارتعاش الشفة ، بلبلية في التنفس ، ثم تصوب نظرها نحو الأرض ، كأنها توضح لنا مدى الخذلان الذي تعاني منه ، عينيّين باردتين كشتاء قضاء العمادية ، ناعستين كخضرته . . . وهناك داخل عيناها الخضراوين الرائعتين غشاوة لامعة من دموع لم تنحدر بعد ، ما سر هذا الهلع على وجهها ؟ انه مفعول العنف لا أكثر ، ظلام الفكر الأبوي وبقايا اصوات تخمش الروح ، ساد صمت كئيب . . . على كل حال ، انه شعور غريب ان ترى إنساناً على هذه الحال المزرية ، ويحتاج إليك إلى درجة البكاء ، لكنك لا تستطيع ان تحرك ساكناً ، أو تهشّ غباراً ..

ما سأقوله لك الآن هو خلاصة بحث سنين عزيزة ، لا اطالبك ان تقتنع به ، ولكن اطالبك باحترام ما ستقرأه ، لأن هذه المعلومات لم تأتي من الدراسة والكلام وقراءة الكتب فقط ، وانما جاءت بعد عراك وصراع مع قساوة الأيام ، وخشونة الحياة ، وتكبّد الألم ..

ان هذه التجربة التي أوضحت كيف ان الطفل المدلل الذي تربى في ظروف عائلية طيبة ، مليئة بالحنان والحب والاحترام فيما بينهم ، الطفل الشبع بالاهتمام والطعام ، ينغمس في اللعب ، يشعر بالأمان ، مطمئن ان من حوله لن يؤذيه .. اما الطفل المحروم من عطف وحنان الوالدين ، هو طفل قلق ، مضطرب ، خائف ، يهتم بمراقبة الاشخاص من حوله أكثر من الاهتمام بالأشياء التي يحبها ،

وهو متأكد انهم مستعدون لإلحاق الضرر به ، ومتأكد انهم سيحرمونه ما يُحب عن قريب ، فإنها - اقصد التجربة - تبين وببساطة السبب من وراء ان الكثير منا ، ولهذه اللحظة وفي هذا العمر ، وكل ما يشغل باله هو الاشخاص المحيطين به ، ورأي الاشخاص الذين يراقبونه ، يخاف من عقابهم ويبحث عن رضاهم . . . السبب هو الظلم والحرمان منذ الطفولة ، ونقص الحنان ، واضطهاد الاهل ، من الضرب والتعذيب ، الكلام الجارح ، الصراخ بوجه الطفل ، الاهانة المستمرة ، منعه من ممارسة حقه كمخلوق ، ومنعه من ممارسة حقه في التصرف كطفل ، وأساليب العقاب المتنوعة التي يتعرض لها في طفولته .. كل هذا هو السبب الرئيس لضعف شخصية الفرد ، وارتداء قيمته في عينيه ، وبالتالي الشعور بهوان نفسه أمام الآخرين..

تبين لنا هذه التجربة السبب في اننا نراقب الاشخاص من حولنا بإسراف ، مما يجعلنا ننسى ونغفل عن المرح والتمتع بالأشياء الجميلة حولنا ، ونقضي العمر بين قلق وحزن ، بين وشوشة لا تنقطع في الرأس ، بين تعذيب وإهانة للنفس . . . وبالمقابل تعظيم كل ما يحيط بنا والخوف منه .. وفوق كل هذا فإننا نعتبر آراء الناس حولنا ذات اهمية قصوى ومصيرية ..

ثم ، أننا عندما نعرف السبب ، فإن الحل يأتي ملازماً له .. لأن فهم السؤال هو نصف الجواب . . . وكما يُقال: إذا ظهر السبب بطل العجب ..

الآن ، وبعد ان عرفنا السبب ، فالحل هو التجاهل .. نعم ، التجاهل ولا شيء غير التجاهل ، التجاهل بكل انواعه وألوانه . . . الفائدة الأولى من هذه التجربة هي ، انتبه لأولادك وكل صغير انت مسؤول عنه ، لا تصنعهم في مثل هذه البيئة وهذا الحال ، ولا تضعهم في مثل هذا الموقف . . . اما الفائدة الثانية ، هي التجاهل .. لكن التجاهل انواع واقسام كثيرة ، اكثر من ان تحصى هنا ، ولكني سأذكر لك بعضاً منها ..

واعلم أيها الأخ الحبيب والصديق القريب ، ان التجاهل ليس تكبر وتبخر على الاشخاص من حولنا ، وإنما هو تجاهل للأخطاء ، وتجاهل للهفوات والزلات ، وتجاهل لحفظ الود بين اثنين يحتاج أحدهما للآخر ..

■ يتجاهل الأزواج نكد بعضهم بالسكوت ، أو الموافقة أحياناً ، والتبسم ، ليس خوفاً ، وإنما للحفاظ على العائلة من الضياع .. لأن تجارب النكد التي مروا بها سابقاً ، النكد من كلا الطرفين ، أوضحت لهم ان الجدال والصراخ وقت المشكلة لن ينفع بقدر أنملة .. وهنا يأتي دور التغافل والتجاهل عن الزلات ، تجاهل العثرات والمشاكل المنزلية التي لا يسلم منها بيت ، ولا يحصل هذا التجاهل إلا بمساعدة الزوجة في التربية ، وأمور البيت ، وغسل الأواني ، واللعب مع الأولاد ، والسير مع الزوجة ليلاً ، إلى كل مكان ..

■ □ كذلك عند شجار الأولاد فيما بينهم وبعض الاجحاف والتسلط من هنا وهناك ، نحتاج للتجاهل وعدم التدخل ، حتى لا تزرع الحقد والكراهية فيما بينهم ، لان الأولاد مهما تشاجروا ، سوف تسمع ضحك وقهقهة بعد ثوان . . . أما ان تدخل الشخص الكبير ، وضرب هذا وصرخ بالآخر ، وحرّم الابن الاكبر من اللعب ، وقد استخلص حكمه بناءً على أقوال أصغرهم ، فهذا هنا يكمن الجور والظلم ، وزرع بذرة الانتقام والعداوة ..

■ □ وذلك العجوز ، جاري الطيب ، كان يذهب من بداية شارعنا إلى نهايته ويعود لبيته ، يجوب الشوارع في المنطقة سيراً على الاقدام ، مرتدياً جورب ثخين ، ليشترى باقة كرفس أو قلم رصاص ، أو قطعة حلوى لحفيده .. يتجاهل مرضه المزمن ، ويتجاهل التفكير فيه ، بينما غيره يرقد في الفراش ، يقتل نفسه ببطء ، جراء تأمل المرض والتبصر بمضاعفاته ..

■ □ عندما تمشي في الشوارع والاسواق تجاهل التفاتة تؤذي رقبتك ، لتعرف نوع سيارة زميلك في العمل ، أو شكل زوجته واولاده ومستوى اناقته في اختيار ملابسه .. كن عزيز النفس ..

■ □ لا تهتم بما يقال عنك ، فانت تعرف من انت ، لا تقلل من قيمتك ولا تجبر نفسك على إرضاء من حولك . . . تجاهل وتمسك بما تعتقده وتقتنع انت به ، حتى ان كان لا يوافق رغباتهم ، فلست مجبوراً ان تفكر مثل الآخرين ،

واعلم ان افكارك أثمن من ان تضيعها فُرباناً لهم . . .
ابحث عن رضا الله ثم ارضي نفسك ، ولا يهكم ما يقال خلفك ..
اذا كنت لا تعرف قل لا أعرف .. اذا كنت لا تريد قل لا اريد .. نسيت
قل نسيت .. اخطأت ، اعترف وقل نعم لقد اخطأت .. ان كنت فقير
وميسور الحال ولا تملك ما يملك غيرك ، قل نعم انا فقير ولا املك هذا
الشيء ، ولم أجربه اصلاً . . . وهذا ليس عيباً ونقصاً فيك .. فلا يوجد
انسان كامل وسليم وأموره تمام التمام ، لا يوجد انسان لا يخطئ
ويعرف كل شيء ، ويتذكر كل شيء .. فالكمال لله وحده .. فلماذا كل
هذا الخوف ، ولماذا الخجل والتمثيل والتصنع ..

■ سر على مهل أينما كان مشوارك ، ولا يهم ان تأخرت
على وسيلة النقل .. تجاهل الاستعجال ..

■ تجاهل حتى الاشياء البسيطة .. الصوف المكور على
سترتك ، والخيط البارز من ملابسك ، تجاهل حتى غبار التراب على
حذائك ..

■ تجاهل الحزن والغضب ، تجاهله بالعمل والابتعاد عن
الفراغ ، لا تضيع وقتك سارحاً كالبعوض ، تمصّ روحك من روحك ..

■ انت تتعب نفسك في تخيل مراقبة الناس لك ، اخطأت في
أحد الايام خطأً بسيطاً لم ينتبه له الشخص الآخر ولم يعره أي اهتمام ،
أما انت تفكر به وتبالغ ، وفي الحقيقة لا أحد يراقب ، الناس تنسى ،
الناس لا تهتم ، كلّ مرهق بحاله ،

تهاون أيها الحبيب ، هدى من روعك ، لا تكن متزمت ، كن سهلاً وخذ الأمور بسهولة ، لماذا تعذب نفسك ؟ لو تجاهلت لسملت ، وكما يقال: لن تجد الهدوء أبداً ان كان مصدر الضجيج في أعماقك ..

التجاهل ممتع وعزة للنفس ، يقلب حياتك رأساً على عقب ، فانت بين أمرين ، إما ان تبالغ بمراقبة كل شيء ، أو تتجاهل وتحيا مطمئن منشراح الاسارير ، هادئ البال . . . أكثر طالب يقضي أوقاته مرحاً في الحياة الجامعية هو طالب يواظب على ارتداء الملابس الدارجة - الكاجوال - التي تبعث على الراحة الشخصية الفردية ، وحذاء شبه رياضي ، وقميص وبنطال تلقائي ، لا يصف شعره مهما لعبت به الريح ، غير مبالٍ بهذه الأمور الصغيرة ، يذهب مبتسماً ويعود مرتاحاً ..

على عكس من يلمع حذائه ، ويراوغ الطلاب يومياً للحفاظ عليه بنفس مستوى البريق حتى انتهاء الدوام ، وكذلك يفعل مع القميص ، ويتفحصه لو تحرك وخرج من احدى الجهات ، ويراقب خصلات شعره حائراً ، ينظر في زجاج السيارة ، وكل شابك يمر به ، وأي باب مظلل يصادفه في الطريق ، انها مصيبة ترهق البال ..

التجاهل مُتعة وريح وفوز وفائدة ، عندما تريد شيء وتتمناه بشدة ، وتحاول الحصول عليه ، وتتمسك به ، وتتشبث بيديك ، وتلوي عليه قدميك ، وتَعْصَه بأسنانك ، وتتوسل .. وكلما ألححت وركضت خلفه سوف يصعب عليك أكثر ، ويبتعد عنك ، ولن تحصل عليه مهما كانت تضحياتك . . . ولكن ، لو أنك تجاهلت وهدأت ، وانتظرت غير مُكترث ، لجاءك بأسهل ما يكون وأيسر الطرق ، وأقلها ثمناً . . . وَلَكُمْ أَحْسَدُ من يبهرع ويجيد التجاهل منذ صغر سِنِّه ..

لذا يا صديقي القريب ، تجاهل كل ما يؤرقك ، تجاهل كل صغير وكبير ، تجاهل البشر وغير البشر ، وخاصة الوسواس التي تهيج وتتخبط داخلك .. تجاهلها وإلا سيصل بك الأمر ، ان تقوم بغسل الصابون بالماء والصابون قبل ان تغسل به وجهك ..

تجاهل وسواس الشيطان التي تغلي داخل رأسك ليقع البغضاء بينك وبين صاحبك ، هل يكرهني ؟ هل اغضبته ؟ هل سينتقم مني ؟ هل تصرفت معه بطريقة صحيحة ؟ ووووو ... الخ . . . تجاهل واستمر بما عليك القيام به ، لا تترك مجالاً للشيطان يتلاعب بك وبعقلك ، وحتى ان اساء إليك شخص ، لا شجار ولا حقد ، تجاهل فقط وحافظ على راحة قلبك ..

تجاهل لتحفظ بأشياء ثمينة ، فإن السعادة في التجاهل . . .
بدون هذا التجاهل اليسير سوف تخسر الكثير ، وأول ما تخسره هو
صحتك وسعادتك ، وتخسر القريب والبعيد .. تجاهل هذه الشرشرة
داخل رأسك ، والتي تشبه تجمع للذباب على جيفة كلب ..

في أحد المساجد ، وبعد انتهاء الصلاة ، نظر أحد المصلين
إلى شيخ المسجد فوجده يرفع أربعة اصابع ويباعد بينهما ، وكأنه يكلم
شخصاً يجلس أمامه ، تعجب الرجل .. إذ لا يوجد أحد امام الشيخ ،
فذهب إليه وسأله ، فقال الشيخ: ان الشيطان جاء يوسوس لي ويقول:
ان صلاتك بها خطأ .. فقلت له: لا اصدقك ، إلا إذا احضرت اربع
شهود ..

التجاهل ينفع حتى مع الشيطان ..

التجاهل تنفع حتى مع الشيطان ..

كلمة لا بد منها ..

بعد حياة طويلة ، بين غباء وتسرع ، بين شجاعة وخوف ، بين حزن وضحك وبكاء ، بين تصاغر وفخر ، كالمسافر بعد عناء واططار .. تجلس كالعجوز لتستريح ، لا شيء في جسدك يشعر بالحماس ما عدا عقلك المشغول ، تفكر كيف مرّ العمر ومضى ، وتعاتب روحك .. لو غيّرت بعض التفاصيل لكان السفر اجمل وأسهل وأكثر هدوءً .. لن تتمكن من تغيير الماضي ، وجلّ ما يشغل بالك هي أشياء معنوية ، وافكار في رأسك فقط .. لكن صوت في داخلك يحدثك ويقول: انه لا يزال في العمر بقية ، ولا ضير ان حاولت مجدداً ..

انت الآن ، مقتنع إلى حد التكبر بمقولة " من يضحك اخيراً يضحك كثيراً " .. توبخ نفسك وتنظر لها كعجوز متعفن مدّ رجله فوق بعضهما كسلاً ، وقد أمست بشرته كأنها قشر بطيخة صفراء ذابلة. . . اعتقد ان ما تحتاجه الآن هو حزمة بسيطة من الافكار ليس من الصعب ان تبدأ معها من جديد .. انقضت تلك الأيام التي قلت فيها ان من الغباء ان يمرّ الوقت بحزن وخصام ، ووجه عبوس .. ثم ادركت ان الأمر ليس بيدك ، ومهما حاولت سيأتيتك ما يعكر مزاجك وصفو حياتك ، بلا أرادة منك ..

تضحك وتمرح وتقهقه كالأطفال ثم تندم وتقول: كم كنت
سخيفاً . . . ثم تصمت ولا تتفوه إلا بالمفيد من الكلام ، وتتصنع القوة
والجراءة ، وتقطب جبينك .. ثم تندم مرة أخرى وتلوم نفسك قائلاً:
لقد ضاعت الاوقات والساعات بحذر ، لو اني لعبت وقفرت ومرحت..
لتكتشف ان هذه الدنيا حشرات لا تنقطع . . . تبني بيت ، ثم بعد ان
يكتمل تقول: لو اني أزلت هذا الحائط لأصبح البيت أوسع ، ولو
استبدلت هذا الباب لكان أجمل . . . سترى ان ما فعلته البارحة صار
اليوم خطوة ساذجة ، وغداً تدرك كم انت احمق الآن ، وهذا حال
الجميع ، وفي جميع الاوقات . . . لقد كانت الحياة حلوة ومرة ،
ولا تزال كذلك ، لم تتغير ، عشنا وتخطاها على هذا الحال ..

يا صديقي الحنون .. لماذا تعذب روحك ، ان الحياة لا تستحق
كل هذا الاهتمام ، قال الله سبحانه ((زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)) وصفها
بأنها زهرة ، والزهرة هي اسرع جزء من اجزاء النبات يبدأ بالذبول ،
ولا بد ان تدرك انه ما من داعي لكل هذا الانشغال والاهتمام بها ،
والحياة لا تستحق هذا التأمل والتمعن بتفاصيلها ..

ازعجك سائق سيارة الاجرة في نصف الطريق ، ولأي سبب
كان ، لا مشكلة ، انزل واستأجر غيرها . . . لم يعتني بك البائع ولم
يهتم لأمرك ، لا مشكلة ، ولا تغضب . . . جارك سيء ، تغافل ..
أولادك يتشاجرون فيما بينهم ، ابتسم ..

الحياة لابد ان تحتوي على الحلو والمر في ساعاتها ، والفرح والترح في أيامها . . . هل تذوقت الرمان اليمني ؟ من عيوبه انه حلو فقط ، تفرح في البداية لأنك اشتريت رماناً حلواً لن يعاتبك عليه الأولاد ولن تلومك عليه الزوجة ، وعند تكرار شرائه تَمَلّ طعمه وتعاتب نفسك بنفسك ، ثم تذهب لتشتري الرمان الحلو والحامض ، فتجد انه طيب وألذ ..

كذلك الحياة ، ولابد للأيام من تنوع ، ولابد للشؤون والظروف من تباين واختلاف ، حتى يبتعد عنك الملل ، ولتعرف طعم وحلاوة الجانب الآخر ، وهذه الصعاب تجعلك تعرف وتقدر قيمة الخير الذي انت فيه ، كما ان الجوع يجعل الطعام أشهى ..

فلا تبالغ في عقاب نفسك ، يا صديقي .. سيمضي العمر على كل حال ، وكلّ سعيدٍ مطمئن بحاله . . . لا تهتم ، الغني يضحك والفقير يمرح .. الغني يمرض والفقير يجوع .. الغني قلق بشأن الديكور الداخلي والفقير متحير بألوان واجهة الدار . . . قال الخضر لموسى عليه السلام: ياموسى ، ان الناس معذبون في الدنيا على قدر همومهم بها . . . قام باحثون بتجربة علمية على فأر ، حيث قاموا بتسليط الاصوات المزعجة عليه وحرمانه من الراحة لإجهاده ، ووضع القطط قريباً منه لتخويفه بشكل مستمر ، وبعد خمسة أشهر فقط أصابه الشيب والوهن ، واعتلت جسده الأمراض ، ثم مات ..

يا صديقي الجميل ، ستدرك بعد رحلة طويلة ان كل ما ظننته من انجازات ونجاحات ، وقوة وشباب ، لم يعد مهماً ، وليذهب حيث ذهبت الصحة والأموال . . . وتكتشف مع تقدم العمر انك لم تعد تبالي ولن تغريك الذكريات . . . انت الآن مدرك كل الادراك ، ومتيقن كل اليقين ، انك لم تكن يوماً الشخص الأفضل في هذه الحياة ، ولن تكون كذلك ، ولا تريد ان تصبح الأفضل . . . فكل ما يهملك وتتمناه الآن ان تهدأ وتمضي بسلام . . . انت الآن لا تأبه لأي شيء ، وراض عن كل شيء .. أيها الفتى العجوز ، لنبدأ بهذا ..

كان في مدينتنا رجل منحوس تهجم عليه المصائب من كل مكان ، كما تهجم خلية النحل على طفل يأكل الحلوى .. هذا الرجل يُخَلِّص نفسه من مشكلة ثم يدخل في اسوء منها ، تعتقله السلطات لتهمة كيدية ، هو يعلم انه بريء ، وانا أعلم انه بريء ، والجميع يعلم انه بريء ، حتى انت تعلم انه بريء .. لكنه يقضي الكثير من الوقت بين التعذيب والتحقيق ، والاصفاد والبذلة الصفراء .. ثم يخرج من غضب الحكومة ومباشرة إلى حوادث السير ، وعراك الشوارع والنزاع العشائري ، والسجون والغرامات ، يفضّ مشاكله ويفرق بينها ويتملص منها ، وما ان يخرج بكفالة ليرتاح قليلاً ثم مرة أخرى إلى دولا المصائب .. تجوال بين البلايا والقوارع والسجون .. يدخل سجنًا ويخرج من آخر .. ثم تبين ان هذا الشخص قد أهان والدته يوماً وأساء معها الادب ، وبالغ في الاساءة ..

ثم انه ندم واعتذر ، والأم بدورها صفحت عنه وسامحته ،
لكن المصائب لاحقته لعشر سنين ، وربما طول العمر ، أو أبد الدهر ،
وربما مات والناس تدعوا عليه ليزداد عذاباً ..

والآن ، عليك ان تفكر في كل هذه الشرشرة في حياتك
واللخبطة في سعيك ، ما سببها ؟ ربما ذنب أحدثته ونسيته . . .
لتكتشف في مرحلة ما ، ولابد من ذلك ، ان كل أجزائك سببها
الذنوب... كل مصائبك وخسارتك والبال المشوش ، والقلب المتزعزع
بالهموم ، والروح المتعبة ، كل هذا سببه الذنوب ، عندما آذيت شخصاً
واستهزأت به ، وظلمت ، ونظرت للسوء بسوء ، وخدعت غيرك ،
كل ذل سببه ذنب . . . كان رجال الدين فيما مضى يقولون: ان الرجل
ليذنب الذنب بالليل ، فيصبح وعليه مذلته . . . وبالمقابل فإن كل
افراحك ، وراحة قلبك ، والأموال التي جاءتك بلا تعب ، كانت بسبب
الاحسان للناس والتغافل عن الزلات ..

وتكتشف ان كل حدث صغير أو كبير هو من الله ، وأمره إلى
الله ، وجزاؤه على الله .. ولا أعتقد انه قد فات الاوان . . . وعندما
تدرك عواقب ونتائج أخطاء الماضي ، وتعرف ان هناك طريق أفضل
وأجمل لتلزمه ، وتنوي التوبة مما مضى والبدء من جديد . . .
فإن فكرة التوبة والتخلص من الذنوب التي اتقلت رقبتك ستصبح
معركة كر وفر بينك وبين الشيطان ..

لكن ، مهما كان الذنب عظيماً ، لا تخف ولا تيأس ، فإن باب التوبة مفتوح ، عُدْ إلى الله وتوسل إليه ، ليقبل توبتك ويغفر لك ما مضى ، ويعينك على ما سيأتي .. توسل إليه وارجع رجوع المعتذر النادم ، كما فعل قوم النبي يونس عليه السلام .. بعثه الله إلى أهل نينوى ، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه ، وتمردوا عليه بكفرهم وعنادهم ، فلما طال عليه أمرهم ، خرج من بينهم ووعدهم حلول العذاب بعد ثلاث أيام .. فلما خرج وتحققوا وتيقنوا نزول العذاب بهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة والانابة ، وندموا على ما كان من أفعالهم مع نبيهم ، فلبسوا " المسوح " وهو الثوب الغليظ من الشعر يُلبس على البدن تقشفاً وقهراً للجسد ، يلبسه الرهبان للتظاهر بالبراءة والطيبة والتوبة والذل ..

ثم عَجَّوا إلى الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا إليه ، وتمسكوا لديه ، وبكى الرجال والنساء ، والبنون والبنات والأمهات ، وفرقوا بين المواشي وأولادها .. فجأرت الانعام والدواب ، ورغت الابل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة . . . فكشف الله عنهم العذاب بحوله وقوته ورأفته ورحمته .. فما كان من هذه القرية ، إلا ان آمنت بكمالها وتمامها ..

ومما تكتشفه أيضاً .. الآن .. أو بعد لحظات ، أو سنوات ، وهذا يعتمد على سرعة الاستنتاج والبدية لديك ، تكتشف ان الخير في اتباع من خلقك ، ولن تحصل على قلب هادئ مطمئن إلا بالعودة للطريق السليم . . . وتكتشف انك لو قرأت كتب الدنيا كلها لن تحصل على الخير ، إلا باتباع تعاليم من خلقك ، وهو أعلم بحالك ، ويعلم ما تحتاج إليه ، ويعلم ما هو خير لك وأزكى . . . اما إذا أردت العيش بعيداً عن القوانين الربانية ، سوف تبقى تدور في دوائر ، ثم تعود لنقطة البداية ، أو أسوء من ذلك . . . فاتبع ولا تماطل ، ولا تجادل ، ولا تخف ، فلن يذهب شيء تفعله الله هباءً ولا سدى .. تأكد يا صديقي ان الثقة بالله منزلة عالية ، وانه لن يُضيع لك تعباً ..

أفلس رجل صالح فقال لزوجته: تصدّقي بكل ما في البيت ، ففعلت إلا الرحي أبقتة .. طُرق الباب بعد ساعة ، فإذا بأحدهم يملأ الدار قمحاً .. رجع الزوج فرأى القمح ، وقال لزوجته: أفعلت ما طلبت منك ؟ .. قالت: نعم ، إلا الرحي ، أبقيته خيفة الحاجة له .. قال الرجل: لو اخرجتيه لجاءك القمح دقيقاً ، فاتعبي الآن بطحنه ..

ومن هذه التعاليم التي لا ينصلح الحال إلا بها ، ان بعض السخط من طبخ زوجتك لأنه لم يعجبك ، كان يمكن معالجته باتباع قاعدة بسيطة ، ويمكنك تجربتها في المنزل متى أردت وهي .. (ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قطُّ ان اشتهاه أكله وان كرهه تركه)

وكل معضلة ومأزق خارج المنزل ، مع قريب أو صديق ، وكل مشكلة مع جار أو غريب ، كان يمكن تسويتها واستبدالها مودة ومحبة ، باتباع قاعدة أخرى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } . . . وقال رجل من الطيبين الاوائل: لذة العفو أعذب من لذة التشقي ، وأقبح فعال المقتدر الانتقام ..

وكذلك المحافظة على الصحة والفكر والنشاط ، وحصول العافية وسلامة الجسد ، يمكنك نيلها والحصول عليها بتطبيق قاعدة أخرى والمداومة عليها .. قال رسول الله ﷺ: ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسبُ ابن آدم أَكَلَاتٌ يُقَمِّنُ صُلْبَهُ ، فإن كان لا محالة فثَلُثْ لطعامه وثَلُثْ لشربه وثَلُثْ لنفسه . . . وهذا مُشاهد ومُجَرَّب ، لأن راحة المعدة في قلة الطعام ، وراحة الروح في قلة الآثام ..

وهلم جراً في كل صغير أو كبير من أمرك ، الآيات والتعاليم الالهية كثيرة ، ويُغريك ان خيرها ونفعها مستمر معك في الدنيا والآخرة . . . وعندما تقرأ كتاب " رياض الصالحين " سوف تعلم ان كل صغيرة وكبيرة ، وكل شاردة وواردة ، وكل ما يعينك ويعينك في حياتك ، موجود ذكره وطريقة أدائه وانجازه في هذا الكتاب ، بأفضل وأسهل وأسلم طريق . . . عندها حافظ على ما بقي من هذه التعاليم لأنها كثيرة لا تحصى ، وخيرها كثير أيضاً ..

وفوق هذا الخير كله ، خير أعظم منه يوم القيامة ، وهو جنة فيها مالا عينٌ رأت ولا اذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال رسول الله ﷺ . . . وقال ايضاً: ان في الجنة لسوقاً ، يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال ، فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، فيقولون: وانتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ..

وقال ايضاً ﷺ: أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، أنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقهما ..

أيها الصديق النبيل تنبه فما هذه الدنيا إلا جسر نعبر عليه وطريق نسير فيه ، لنصل إلى وجهتنا الصحيحة ودارنا الأزلي الذي خرجنا منه ، ونعود إليه ان شاء الله ، هذه الدنيا حلم نصحو منه عما قريب ، ولا شيء غير هذا ..

وتدرك في نهاية المطاف انك كنت مشدود البال ، ومتوتر الاعصاب والحال ، وبلا فائدة ، استعجال ومشاكل بدون سبب ، وكلما جاء الغد ستقول: هل كان ما حدث يستحق كلما جرى . . . قال أحد الصالحين: وما الدنيا ؟ ما مضى منها فحلم ، وما بقي منها فأماني ..

ثم بعد كل هذه الصولات والجولات ، والتجارب والمغامرات
والمواقف والتحديات ، بعد كل هذا .. سوف تموت . . .

فلا تنس الموت ، فهو لن ينساك .. وفكر في النهاية أكثر من البداية ..

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه لولده حين حضره
الموت: يا بني ان الموت أجلّ من ان يوصف ، لكني سأصف لك ،
أجِدُنِي كأن جبال رضوى على عنقي ، وكأن في جوفي الشوك ،
وأجِدُنِي كان نَفْسِي يخرج من ابرة ..

بعد ان راودته هذه الافكار ، اعتدل العجوز في جلسته وقد
نشط عقله وحدّ بصره .. الآن .. وقد فهم ان عليه ان يستمر مادام في
العمر بقية ، يستمر لكن على هذا الطريق الجديد ، فقد آمن الآن
واطمئن ان العبرة بالنهايات ، فقال لنفسه بهدوء: انها دسنة من الافكار
اجعلها اما نهاية لشر أو بداية لخير .. فأنت من سيختار ، وليس من
الصعب ان تبدأ بها .. ولتكن نهاية علمك هي بداية عملك ..

يا صديقي الطيب ، اتبع الخير ، مع انك لن تلقى من اتباع
الخير والعمل به إلا الخير ، وتغمرك السعادة في الدنيا والآخرة . . .
لا تؤذي مخلوقاً في هذه الدنيا مهما كان حجمه ومرتبته ، فربما كان
عند الله عظيماً .. تؤذيه لتبتسم لحظة ، ويبيكي من أذيته خُفية حتى
الممات ..

يا صديقي الحبيب ، لا تعاند ولا تجادل ، وكن مثل هذا
الاعرابي ، رجل من البدو لم يرتحل بين البلدان ، لم يقرأ كتباً ،
ولم يدرس العلوم والطب ، ولم يتصفح المواقع ، لكن قلبه نقي ،
قلبه نبيه فطن ، يدرك الخير ويقوده إليه ..

قال الاصمعي: أقبلت ذات يوم من مسجد البصرة ، فبينما انا
في بعض سبّكها إذ طلع اعرابي جلف على دابته ، متقلد سيفه وبيده
قوس .. فدنا وسلّم وقال لي:

- ممن الرجل ؟ ..
- من بني الاصمع ..
- هل انت الاصمعي ؟ ..
- نعم ..
- ومن أين أقبلت ؟ ..
- من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ..
- وهل للرحمن كلام يتلوه الأدميون ؟ ..
- نعم ..
- اتل علي شيئاً منه ..
- انزل عن دابتك . . . فنزل ، وابتدأت بسورة الذاريات ،
فلما انتهيت إلى قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا
تُوعَدُونَ} . . . قال:
- يا أصمعي ، هل هذا كلام الرحمن ؟ ..

- اي والذي بعث محمداً بالحق انه لكلامه ، أنزله على نبيه محمد ﷺ . . . فقال لي:
- حسبك ، ثم قام إلى ناقته فنحراها وقطعها بجلدها.. وقال: أعني على تفريقها ، ففرقناها على من أقبل و أدبر .. ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وجعلهما تحت قدمه ، وولى مدبراً نحو البادية وهو يقول: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} . . . فأقبلت على نفسي باللوم ، وقلت: لم تنتبه لما انتبه له الاعرابي ..

فلما حججت مع الرشيد دخلت مكة ، فبينما انا أطوف بالكعبة إذ هتف بي هاتف بصوت دقيق ، فالتفت فإذا هو الاعرابي الذي أعرفه . . . فسلم علي وأخذ بيدي وأجلسني من وراء المقام ، وقال لي: اتل كلام الرحمن .. فأخذت أقرأ في سورة الذاريات ، فلما انتهيت إلى قوله {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} .. صاح الاعرابي: وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ..

ثم قال: وهل غير هذا ؟ .. قلت: نعم .. يقول الله عز وجل: { فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون } ..

فصاح الاعرابي: يا سبحان الله ، من الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟ ألم يصدقوه حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ ..

قالها ثلاثاً ، وخرجت فيها روحه ..

يا صديقي الرائع .. ها قد وصلت إلى نهاية ماخطت يدي في هذا الكتاب ، وَلَكَ عَلَيَّ وصيتان ، من صديق لصديق .. الوصية الأولى .. ابتعد عن النساء ، لأن عزة النفس تأتي من الابتعاد عن النساء ، والجنة تأتي من الابتعاد عن النساء ، وخير الدنيا اجمع يأتي من الابتعاد عن النساء .. والمال والرزق والنجاح والفلاح يأتي من الابتعاد عن النساء ، وكلما ابتعدت عن النساء ابتعدت عن الفقر ، وكلما ابتعدت عن النساء تخلصت من الذل .. وكما قلت لك قبل قليل ، عليك تجنب النساء والحذر منهن ، لأن الواحدة منهن كأنها قطعة من الحديد ، سواء سقطت عليها أو سقطت هي عليك ، ألحقت بك ضرراً .. فاسمع نصيحة مُحِب ، قبل ان تجرب الفقر والذل ثم تندم .. ولو أردت يوماً التأكد من كلامي ، راقب تصرفات الرجال من حولك حين يختلطون بالنساء ، وخذ منها درساً واتعظ .. لأن السعيد من اتعظ بغيره ..

أما الوصية الثانية هي .. لا تؤذي أحداً .. ما نفعلك وما تستفيد ان جعلت شخصاً ينام حزيناً مكدرأ ، وما يضرك ان ينام شخص مبتسم بسببك . . . انت تؤذي وتنسى ، وصاحبك يعاني الهم والغم .. هل تعلم كيف يعامل الرجل الحزين عائلته ؟ وكيف تعامل المرأة الحزينة أولادها ؟ ..

ربيع العمر قصير ، وخريفه طويل ..

ربيع العمر قصير ، وخريفه طويل ..